





رضوى عاشور

حلمي التوني 95

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٦٠ ليرة – لبنان ٩٣٠٠ ليرة – الاردن ٣٧٠٠ فلس – الكويت ٢٠٠٠ فلس – السعوديه ٢٠ ريال – تونس ٤ دينار – المغرب ٤٠ درهم – البحرين ٢ دينار – الدوحة/ قطر ٢٠ ريال – دبي / أبو ظبي ٢٠ درهم – عمان تسقط ٢ ريال – غزة الضفه القدس ٣ دولار – لندن ٤ جك .

العدد ٥٦١
سبتمبر ١٩٩٥ ● ربيع ثان ١٤١٦ هـ
NO. 561 - SEP-1995

اهداءات ٢٠٠٢
أسرة المرحوم/شارل كرتيه
الاسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك في الكويت : السيد عبدالعال بسيوني زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

مريمة
و
الرحيل

بقلم

رضوى عاشور

●

دار الهلال

الـغــلاف تصـمـيـم
الفنان حلمى التونى

مَرْيَمــــــــة

- ١ -

قالت مريمة: "رأيته بعد الغسق بقليل، ظننته القمر إذ كان كبيرا ومضيئا، ثم رأيت القمر في الجهة الأخرى فاستغربت. بعدها نمت فرأيته مرة أخرى، ولكنه كان في الحلم أكبر. كان نحاسيا ومتوهجا ومشرفا على جبل، وعلى الجبل وعلٌ عظيم تعلو رأسه قرون شجرية ملتفة. وكان الوعل ساكنا كأنما قُدَّ من صخور الجبل الذى يقف على قمته. ثم استيقظت".

رفعت مريمة طرف ثوبها ومسحت العرق المتفصد على جبينها. أما المرأة المتربعة بجوارها على البساط فأخرجت من جيبها حقا حديديا صغيرا وفتحته، غمست فيه طرفى إبهامها وسبابتها وأخذت منه قدرا من مسحوق أحمر داكن، قربته من فتحتى أنفها واستنشقت بقوة. مرت لحظة صمت أعقبها عطس متكرر.

عطست أم يوسف عطسة أخيرة، ثم هزت رأسها، ثم مسحت أطراف أصابعها فى خرقة وضعتها بالقرب منها، ثم أمسكت بقلم وورقة، وخططت أرقاما وحروفا. لم تغلق مريمة باب الرجاء، وظلت تتطلع إلى المرأة العارفة التى بدا وجهها مستغرقا ومقطبا. انفرجت أساريرها قليلا ثم انفرجت أكثر فانفلت من مريمة السؤال:

– خير؟!

تنحنحت أم يوسف ثم قالت:

– ما رأيته يا أم هشام هو النجم المذنَّب وهو لا يظهر إلا منذراً باشتعال الفتن وتبدُّل حال بحال إذ ينبئ بزوال مُلك الظالمين وهلاكهم الوشيك. والسؤال هو متى يتحقق ذلك؟

كررت مريمة العبارة وهى تلتقط أنفاسها التقاطا:

- متى يتحقق ذلك؟!

- بعد سبع سنين إذ يكون الأول من شهر محرم يوم سبت فتتوافق هجرة رسولنا الكريم مع ذكرى اليوم الذى خلق الله فيه آدم. وحين يحدث ذلك، يقول العارفون من أجدادنا، تهل علينا سنة يكثر الضباب فيها ويشحّ المطر، ولكن الشجر يحمل الثمر الوفير، والأرض تغدق علينا من خيرها، والنحل، حتى النحل، يمنحنا الشهد بلا حساب.

كانت مريمة تتصبب عرقا، ابتل صدرها وظهرها ومنابت شعرها. تسمع دقات قلبها فترهف السمع خشية أن تفوتها كلمة واحدة من الكلام.

- هل أنت متأكدة من هذا التفسير يا أم يوسف؟

سألت ثم لامت نفسها فالمرأة عارفة بالله، وعلوم النجوم، والطالع، والأحلام وقد يبدو استفسارها تطاولا أو تشككا.

- أنت رأيت يا أم هشام، ولم أفعل سوى تفسير ما رأيته فهل أنت صادقة في نقل ما حدث؟

- أقسم بكتاب الله أننى في الصحو رأيت نجما بحجم القمر في السماء، وفي المنام رأيت وعلا على رأس الجبل.

- إذن فلقد اختارك الله لتبشّرى خلقه بكشف الغمة وزوال الكرب.

اختنقت مريمة بالدموع ولكنها لم تبك. مالت على يد أم يوسف وقبلتها، ثم استأذنت في الانصراف. خرجت وقطعت جزءا من الطريق، ثم تذكرت الحرز وجرة الزيت، فعادت أدراجها. قالت:

- أحضرت لك جرة زيت من زيتوناتنا في عين الدمع، وضعتها بالباحة ولم أخبرك، وأيضا نسيت أن آخذ الحرز.

قالت أم يوسف وهى تناولها الحرز:

– لن يؤتى مفعوله إلا إذا لبسه الصبى ملاصقاً لبدنه. وشكرا على الزيت يا أم هشام.

قصدت مريمة دارها. تعثرت قدماها في الطريق مرتين. جلست على حجر تستجمع شتات نفسها. هل يصدق كلام أم يوسف؟ لم يسبق أن خاب تفسيرها لحلم أو رؤيا أو إشارة من النجوم. ونساء الحى تشهد، فلماذا تخيب هذه المرة؟ هل يكتب الله لها أن ترى بعينيها كشف الغمة؟ هل يكرمها بسبع سنين تعيشها فوق ما عاشته؟ حاولت أن تحدد عمرها فأرهقها الحساب. قامت وواصلت طريقها.

حكت لحسن الرؤيا والتفسير. قال: "أم يوسف تدجِّل على الخلق. قراءة الطالع والتنجيم في الإسلام حرام" ولكن جاراتها، حين حكت، انصتن باهتمام وتناقلن ما سمعنه فما انقضت ثلاثة أيام حتى صار الخبر مشاعا في البيازين. كانت نساء الحى، المجتمعات عند الفرن، وعند مضخات المياه في المغسلة، وعلى باب الطاحونة والمعصرة، يُعدن رؤيا مريمة ويزدن عليها.

قالت أحداهن إن زوجها اخبرها أن فقيها ذا كرامات رأى فى المنام الفاطمى يعتلى حصانه الأخضر، ويشهر سيفه، ويذيع في الناس أنه لم يمت بل كان حبيسا وراء صخرة تحت الجبل، وأنه بعد الإفلات من محبسه الطويل قادم لانقاذ أهله.

وقالت امرأة أخرى إن ابنة عم لها سمعت من مكارى يتنقل بالحمولات بين البلاد انه سمع في بالينسيه عن امرأة وضعت طفلا بستة أصابع. وفسر العارفون الأمر بأنه إشارة مؤكدة لخير على الطريق. وقال المكارى نفسه انه سمع من الأهالى، في رحلة حملته إلى البشرات، أنهم رأوا طيورا غريبة سابحة في السماء، وأكد بعض رجال القرية أن ما رأوه لم يكن طيورا بل رجالا مسلحين يعتلون جيادهم ويحلقون بها في السماء.

وقالت صبية لا يشى صغر سنها بما كشف عنه كلامها من فطنة:

– سمعت من جدى أن العرب سيستعيدون وهران وسبتة من الأسبان، ثم يصلون مضيق جبل طارق فيمتد أمامهم جسر من العنبر، يعبرون عليه ويسترجعون الأندلس كلها حتى غاليقيا.

– وأين تقع غاليقيا هذه؟

– في أقصى البلاد، بعدها الجبال ثم أرض الفرنجة.

ملأ قلب مريمة اليقين بأن الأيام لن تحمل لها سوى الخير فأطلقت لخيالها العنان، يجمح ويقفز متجاوزا حواجز زمانها، يأتى لها ببناتها الخمس وابنها هشام. يرجعون، يُعمِّرون الدار بصخب الحياة، وضجيج بنائين يُعمِلون أزاميلهم في الحجارة، ومناشيرهم في الخشب. يصعدون ويهبطون، يروحون ويجيئون، يوسّعون الدار ويعلّونها. وهى تصنع للجميع طعاما وفيرا، وتمدُّ بطول باحة الدار حبالا تنشر عليها غسيل الأولاد، وأولاد الأولاد، وأقمطة مواليد وضعتهم أمهاتهم في البيازين . هل يمد الله في عمرها لتشهد كل هذا النعيم؟! تقطع مريمة أحلامها بالدعاء، تكشف رأسها وتتطلع إلى السماء: "بشفاعة محمد، نبيك وحبيبك ومصطفاك أطل في أجلي، وأعطني الصحة والعافية لأكرم القادمين. أسابيع معدودة أراهم، ثم آتيك بعدها طائرة كالحمام ...".

ما الذى حدث لمريمة؟ ألم الركبتين الذى لازمها سنوات وأثقل عليها في القيام والقعود اختفى، كأنه كان وهما. صارت نشيطة، رائقة البال، لا تضيق بمطالب حسن. يسمع الجيران ضحكاتها في المساء وهى تكركر كالماء العذب المندفع من الجبل بعد ذوبان الثلج. اشترت لنفسها ثلاثة أثواب جديدة، صارت تتحمم كل يوم، وتكحل عينيها، وتدهن شعرها بزيت اللوز. والمستطيل الذى كانت قد اقتطعته من الباحة وزرعته زهورا أهملتها فماتت، عادت إليه ترعاه كل يوم. بذرته، وسقته، وتعهدته فأخرج نبته ريحانا وخزامي ووردا وحصى البان. وعلى حافة النافذة المطلة على الحارة ثبتت حوضا غرست فيه أعواد ورد بلدى، أزهرت مع الربيع،

وأينعت، وتكاثفت أوراقها وردية وقرمزية وبيضاء وصفراء، تُشاغِل الجيران ببهائها، وتشبك عابر السبيل فيرفع عينيه، يتطلع فيرى مريمة جالسة وراء الشباك. هي أيضا تتطلع، ليس إليه بل إلى مدخل الحارة، تعرف أن الوقت لم يحن ولكن ترى بعين الخيال عودة الغائبين، وتنتظر.

ـ ٢ ـ

«"سليمة؟!" » هبت مريمة من نومها، فتحت عينيها، واعتدلت جالسة. لم يبادرها شك رغم نبرة السؤال الذى نطقت به الإسم أنها سليمة. فهل هو طيفها أم جاءتها كالأحياء، جسما من لحم ودم؟

ظلت متربعة على فرشتها، تحبس أنفاسها، ترهف السمع، تحدق في الظلام. ثم عادت تنادى بصوت هامس: "سليمة" لم يأتها جواب.

قامت وتحسست طريقها إلى القنديل وأسرجته، تطلعت حولها: كان الصغير مستغرقا في النوم وليس في الغرفة سوى موجوداتها: الصندوق والبساط والنسجية المعلقة على الحائط.

حملت القنديل، خرجت إلى الرواق ثم إلى الباحة. دارت حول البئر، خلف شجرة التين، عبرت الباحة إلى شجرتى المشمش واللوز، عادت إلى الرواق، دخلت غرف البيت، صعدت إلى السطح، نزلت. لم تجدها.

وضعت القنديل جانبا، وتربعت على مصطبة خشبية في الرواق. لم تأتها سليمة بهذا الشكل أبدا. جاءتها في المنام مرات، ومرات كانت تستحضرها بالذاكرة والخيال فتحضر، ترى وجهها، تسمع رنة صوتها، تبادلها حديثا هامسا أو بدون كلام. ولكن ما حدث الليلة يختلف لأن سليمة كانت معها في الحجرة. لم يكن ذلك حلما بل علما ويقينا. فلماذا أتت، ولماذا، هكذا في غمضة عين، ذهبت؟!

لكل شئ في هذه الدنيا علامة، فهل تكون عودة سليمة علامة على عودة الغائبين؟ هل جاءتها لتؤكد تفسير أم يوسف أم جاءت لغير ذلك؟

فرّت مريمة واقفة وهرولت إلى غرفتها. رفعت القنديل فوق رأس الصغير، وضعت كفها على جبينه ثم على صدره. كان مستغرقا في النوم، يتنفس في هدوء وانتظام. عادت إلى الرواق وجلست. لا، لم تأت سليمة لتأخذ الصغير. كسرت قلبى مرة ولن تكسره مرتين . يومها جاءتها سليمة في الحلم. كانت تقف على الدرج الحجرى المؤدى إلى السطح، تلتف بملف أبيض، ويحدد زرقة عينيها كحل أسود. وكانت تحمل عائشة بين ذراعيها، كأن السنوات لم تمض وعائشة بعد وليدة في الأقمطة. قالت مريمة:

– ليست عائشة التى تحملينها ياسليمة بل على ابنها.

فالتفتت سلبمة إليها، رمقتها بنظرة عاتبة، قالت:

– هذه ابنتى عائشة، كيف لا أتعرف عليها؟!

استدارت وأخذت تصعد الدرج. حاولت مريمة اللحاق بها، ولكنها تعثرت وسقطت فانجرحت ركبتها. ولما حاولت القيام وقامت كانت سليمة قد ذهبت.

ولما استيقظت مريمة من نومها تفحصت ركبتها فلم تجد بها جرحا فعرفت انه كان حلما، استعاذت بالله من الشيطان، وانتظرت حتى طلع النهار ثم ذهبت إلى أم يوسف لتفسر لها ما رأته في المنام، فقالت لها: "قضاء الله نافذ يا أم هشام. ستذهب عائشة، ويبقى لك ابنها" كذّب قلبها الكلام فالله وحده علاّم الغيوب، وكذب المنجمون ولو صدقوا، وليست هذه المرأة سوى بشر تخطئ وتصيب. ولكن المرأة أصابت، وسهم الله نفذ فرحلت عائشة وتركت لها ابنها لترعاه وتكبّره كما رعت أمه من قبله . لن تكسر سليمة قلبى مرتين. لم تأت لتأخذ الصغير بل لتؤكد البشارة". أطفأت مريمة القنديل، وقامت إلى البئر وملأت الدلو وغسلت وجهها ثم دخلت المطبخ لتعد الكعك.

غربلت الطحين وعجنت وخبزت. ولما استوى الكعك صفّته في السلة وحملته إلى السوق كعادتها كل صباح.

تربعت في ركنها المعتاد ونادت على بضاعتها فأتى الشارون وابتاعوا وذهبوا، ثم حملت سلتها وعادت إلى البيت.

كان على يلعب في الحارة مع أولاد الجيران. رأته قبل أن يراها، ولما رآها ركض إليها فأخرجت من جيبها قطعة الحلوى التى اشترتها له. تناولها دون الانتباه المعتاد ، قال:

– جاءنا ضيف اسمه نعيم. يقول جدى إنه صاحبه، وكان مسافرا في بلاد بعيدة جدا.

هرولت مريمة باتجاه الدار فتبعها الصغير:

– انه رجل مُسِّن ياجدتى، يبلغ من العمر مائتى عام وربما أكثر. شكله غريب، وشعره أبيض كالثلج وطويل، وملابسه أيضا غريبة. الأولاد في الحارة خافوا منه ولكنى لم أخف. وعندما وجدته يقصد دارنا سألته إن كان يريد جدى حسن فسألنى "من أنت؟" فقلت له، ثم صحبته إلى حيث يجلس جدى. هل تعرفينه ياجدتى هذا الشخص الذى يُدعى نعيم؟

لم تجبه مريمة بل اندفعت إلى داخل الدار فرأت حسناً جالسا مع شيخ نحيل رث الثياب يحمل في يده مزمارا غريب الشكل. صافحته ورحبت به ولكنها لم تتعرف عليه فأخذت تسترق النظر إلى وجهه، وتجتهد لترى في ملامحه شيئا من نعيم.

لا الوجه هو الوجه، ولا الهيئة هى الهيئة، ولا طريقة الكلام نفسها، فأين نعيم؟!ألفته شابا عفيا وصاخبا تتألق عيناه، نشيط ومضطرم ومقبل وثرثار، يمشى بخفة، ويتحدث بسرعة فتتراكض على لسانه الكلمات. يضحك فينفلت الصوت حرا مجلجلا يضئ وجهه وعينيه بضوء يشاغل الجالسين. وهذا الشيخ الجالس أمامها مهدم عتيق ورث، يبدو وكأنه يكبرها بجيل أو جيلين. سقطت أسنانه سوى القليل فتعثرت على لسانه الكلمات واختلطت بمفردات أعجمية، وجدت على حديثه لكنة

غريبة. وتغضّن وجهه فتكاثرت فيه الشقوق والتجاعيد، وجسمه صار ناحلا كالعود، وأصبح شعره فضيا تماما وتركه مهملاِ مسترسلا حتى الكتفين كأنه لم يقصه ولم يُمشّطه منذ سنين.

كان يجلس بجوار حسن وبيده آله غريبة لها ذراع خشبية طويلة مفرغة كالمزمار، يُقرِّب طرفها الأعلى من فمه، وتنتهي من الأسفل برأس خشبية مجوفة محشوة بأوراق داكنة اللون. كان يسحب النفس من ذلك المزمار العجيب بدلا من أن ينفخ فيه، فتتوهج الأوراق في الرأس الخشبية وتتقد كقطعة جمر، ثم يبعد الأنبوب عن فمه ويخرج من فتحتى أنفه سحابة من دخان تنشر في الدار رائحة نفّاذة.

– ما هذا ياسيد نعيم؟

– إنه غليون محشو بأوراق الدخان.

لم تفهم مريمة معنى كلمة غليون. وتشككت في سلامة عقل الرجل. فهل للدخان أوراق وكيف يحشو المرء شيئا بالدخان؟! غيّرت الموضوع:

– وهل تزوجت يا سيد نعيم؟

باغتها بالتفاتة مفاجئة وحدق في وجهها فاضطربت ولم تفهم ماذا جرى.

– نعم تزوجت!

– وأكرمك الله بالخلف؟

– ثلاثة: بدر، وهلال، وقمر.

– ولماذا لم تأت بهم؟

تحركت شفتاه والغضون المحيطة بفمه وحدجها بنظرة أخرى وقال بصوت غاضب:

– تركتهم هناك. تركتهم جميعا، زوجتى والصغار!

قامت مريمة لتعد طعاما مناسباً للضيف. ذبحت دجاجتين وجلست تنتف

ريشهما وتتساءل إن كان الرجل هو حقا نعيم أم عفريته، أم عفريت غريب يدّعي انه نعيم. وظل السؤال يشغلها ويربكها حتى انتهت من اعداد الطعام. ولما جلسوا لتناوله رأته يمضغ الأكل، ويبتلعه، فرجّحت انه ليس عفريتا لأن العفاريت، على قدر علمها، لا تأكل كبني آدم. ثم سمعته يسأل عن سعد وسليمة فقالت لابد انه نعيم. كانت تريد البقاء لتسمع منه وتتأكد أكثر ولكنها خشيت أن يحكي حسن أمام الصغير كيف مات سعد كمدا بعد أن شاهد بعينيه حرق امرأته المقيدة في كومة الأخشاب. قالت:

- ألا تريد أن احكي لك حكاية يا علي؟
- ماذا ستحكي؟
- ما تختاره أحكيه
- حكاية كعبة الحجاز.

أخذته من يده إلى الغرفة، ووضعته في الفراش، وتمددت بجواره، ثم بدأت تحكي عن كعبة الحجاز: بهية في ثوب مخملي أسود تزينه خيوط الذهب والفضة. يسعى الناس إليها من كل مكان ليمتّعوا عيونهم برؤيتها، ويفرحوا بلمسها وباللقاء "وفي يوم من الأيام نزل على الكعبة عدد من الملائكة، فقابلتهم الكعبة بالود والترحاب، وأكرمتهم ، ثم لاحظت انهم يحملون معهم سلاسل غلاظاً. سألتهم:

- ما هذه السلاسل؟

قال الملائكة:

- جئنا بهذه السلاسل لنجرك إلى يوم الحشر.

تعجبت الكعبة، قالت:

- لن أذهب!

قال الملائكة:

– نأخذك إلى الجنة فكيف لا تذهبين؟!

قالت الكعبة:

– لن أذهب إلا ومعى أحبابى.

سألوا:

– ومن أحبابك ياكعبة؟

أجابتهم:

– كل مظلوم من أهل الأرض. انتظروا فأعلمكم بهم فتذهبون إليهم وتأتون بهم فأذهب في صحبتهم إلى الجنة. ولا حاجة لجرِّى بالسلاسل الغلاظ فأصحابى كثر، سيحملوننى وأدلهم أنا على الطريق.

راحت الكعبة تسمِّى أحبابها، ومرّ مائة عام والكعبة تحصى والملائكة ينتظرون ثم مرّ ألف عام والكعبة تحصى وهم ينتظرون. ثم ...".

انتبهت مريمة إلى أن الصغير استغرق في النوم. طبعت قبله على جبينه ثم أغمضت عينيها.

لكل شئ في هذه الدنيا علامة قد لا يفهمها الإنسان أبدا، وقد يفهمها بعد حين. جاءتها سليمة لتخبرها بعودة نعيم، وربما تأتى ثانية لتخبرها بعودة باقى الغائبين. وقد تكون عودة نعيم نفسها هى العلامة. ولكن هذا الشيخ المهدَّم، هل هو حقا نعيم؟!

-٣-

بدا لنعيم أن العودة تداوى ألمه فعاد ولكنه لم يجد في غرناطة غرناطة، ولا البيازين في البيازين. وصل المدينة بعد عسر، ومشى حذاء حدرّه. يعرف مجراه وماءه وقناطره، والحمراء المشرفة عليه، ولا يعرف هذه القصور الجديدة ولا تلك الكنائس المشيدة على ضفته. هل ضيع الطريق؟ سأل. لم يكن ضيعه بل حفظ ذاكرة مكان تبدَّل. حتى الدار غاب من فيها سوى حسن الذى كان بليدا فصار أكثر بلادة، ومريمة عجوز مجعدة فقدت فطنتها وذكاءها، تسأله كالأغبياء: "وهل تزوجت يانعيم؟ وهل أكرمك الله بالخلف يانعيم؟ ولماذا تركت أولادك يانعيم؟" ولا تعى انها تفتح عليه بأسئلتها بابا للجحيم، ثم تذهب لتنام وتتركه لحسن، يستغرق في النوم في دقائق معدودة، ويعلو شخيره فيكاد يحيله الصوت إلى الجنون. إلى أين يذهب إذن، أين؟!

أطبقت الغرفة على أنفاسه فخرج إلى فناء الدار. خلع ملابسه وأنزل الدلو في البئر ورفعه وسكب ما فيه من ماء على رأسه. ثم جلس على حافة البئر.

كان القمر في العالى بين هلال وبدر. تطلع إليه فرَقّ قلبه، حيّاه وهو يبتسم، سأله عن مايا وأحوالها. كان موقنا أنها تسكن فيه، وانه يرعاها ويحنو عليها. يتطلع إلى القمر فلا يرى سوى قرصه المضيئ صغيرا أو كبيرا، مكتملا أو نصف مكتمل، فضيا أو من نحاس فينتظر ليالى وأحيانا شهورا حتى يبصر وجهها في القرص الربانّي: جبينها العالى، وعيناها المسحوبتان، والشفتان المكتنزتان. يراها فيحدثها بالمخزون في قلبه. يحكى ما جرى ويستعيد معها الزمان القديم. يجلسان

سويا بباب الكوخ، ينساب بينهما الصمت أو الكلام، جدول فضي يضيئه القمر بنور على نور. يقيس الأيام بباطن كفه على بطنها العارية. يقول "كبر الولد" تضحك، تقول "كبرت البنت" يتحسس رأسه وحركته، ويقول:

- إن كان صبيا نسميه هلالا

- وإن كانت صبية؟

- نسميها بدرا

لم يبق من حساب الأيام سوى دورة واحدة من دورات القمر، يخرج بعدها الولد إليهما صغيرا ثم يكبر.

كان القمر غائبا. والشمس تتوسط قبة السماء.تملك الأرض وما عليها، تبطش، تقدح نارها بنادق وحرائق ونباح كلاب مسعورة تنتشي بالدم المسفوك. "أركضي ياماما، أركضي، إنها المجزرة" يركض. تركض. "الطفل ثقيل في بطني، لا أستطيع". "تحاملي واركضي" يركض، يحيط كتفيها بذراعه ويدفعها دفعا للأمام. النار خلفهما، وأصوات الجحيم، والطريق مفتوحة أمامهما للهرب. يركض، تركض، تسقط. يحملها، يركض بها، يسقط. يقومان، يركضان، يصطدمان بالحجارة، بالأشجار، بوهن جسدين حرمهما الله من الأجنحة. "لماذا حرمت عبادك من الأجنحة؟! ألست قادرا على كل شئ، فلماذا بخلت علينا، وما كان الأمر يكلفك سوى ان تنبت لها جناحين؟!".

مرّ يوم وليلة وهو راكع أمامها يتضرع إلى الله أن يعيد لها الحياة أو يخرج الصغير المحبوس في بطنها. يبكي، يصيح، يسكت، يتوسل.

حفر الأرض وأودعها فيها. فهل يهيل عليها التراب، كيف يهيل عليها التراب؟! نزل وتمدد بجوارها.

فتح عينيه على أصوات ووجوه رجال متحلقين حوله يحدقون فيه. كانوا قشتاليين. ارتجف فزعا. الله إذن معهم وها هي جنته أسكنهم فيها أم تراه بُعث

إلى الجحيم؟! ولكن لماذا يدخله الله الجحيم؟! كان محموما ويرتجف وكانوا يسألونه، بعد أيام عادوا للأسئلة:

– لماذا ترتدى ملابسهم؟

– سرقوا ملابسى وأنا أتحمم في الجدول، ثم وجدت قتيلا من الأهالى فسترت عريي بملابسه.

صدقوه وهنأوه بالسلامة، ورقصوا وشربوا.

كان القمر غائبا والشمس في وسط السماء، الشمس كلبة مسعورة تتغوّل على الأرض، شرهة لا تشبع، ليست الأرض كالسماء ، الأرض تضم وتحنو، تطعمك وتأويك حتى عندما تصبح بلا حول ولا قوة ولا حياة، تداريك فى صدرها، تترفق بك، والسماء؟ ضحك نعيم ضحكة عالية مُرة، السماء تترك للكلبة العنان في مراتعها الزرقاء، بصق في الهواء، زرقاء زورا وخداعا، القمر سيد الملاح، وفىّ وطيب، أنيس الجليس وحده، تطلع إلى القمر وعاد يحييه:"مساء الخير يا قمر".

انسحب نعيم إلى شجرة التين، وقرفص تحتها، وظل ساهما في مكانه حتى سمع مريمة تصبِّح عليه، وكان الوقت فجرا.

دخلت مريمة مهرولة إلى المطبخ، ثم سمعت نعيما يسألها بصوت غريب: "ما رأيك في زرقة السماء يا مريمة؟!" فزاد يقينها أن الرجل مجنون، لمحته تحت شجرة التين في ضوء السحر الشحيح فقالت له صباح الخير، وعندما اقتربت من البئر لتغسل وجهها وجدته عاريا فأشاحت بوجهها وأسرعت إلى المطبخ، والآن يسألها سؤالا عجيبا، فما العمل؟!

انتهت مريمة من إنضاج كعكها ثم حملت سلتها وغادرت المطبخ.. ثبتت عينيها على باب الدار، لم تلتفت يمينا أو يسارا كى لا ترى الرجل عاريا ولكنها وجدته أمامها وقد ارتدى ملابسه، بدا وديعا وهادئا وهو يسألها:

– هل هذا بستانك يا مريمة؟ يدك خضراء والبستان جميل!

رق قلبها. أعطته كعكتين وانتوت أن تشترى له ثيابا جديدة قبل حلول عيد الفطر ثم ذهبت إلى السوق.

– صباح الخير ياجدى نعيم

التفت نعيم فرأى الصغير قادما نحوه. تطلع فيه. يا الله، كيف لم ينتبه. الولد يشبه سعدا، يشبهه كثيرا: سمره البشرة، والأنف الكبير والعينان، عمق السواد وكحل الرموش والنظرة، نفس النظرة.

– كم عمرك يا على؟

– خمس سنين، وأنت؟

– خمِّن؟

تطلع إليه الصغير وبدا متحيرا في ايجاد الاجابة الدقيقة. ثم قال:

– مائة وثمانين!

ضحك نعيم ضحكة مجلجلة ثم مد يده إلى الولد، أمسك بها وغادرا الدار.

هبطا إلى رصيف حدرُه. يسأل نعيم :

– ما اسم هذه الكنيسة؟

– سان بابلو وبدرو

– وهذا المبنى؟

– دير الراهبات

– وذاك؟

– السجن

كان الولد فطنا، يعرف ويجيب، ثم انحرفا مع مجرى النهر وتجاوزا الكاتدرائية إلى شارع السقاطين فصار نعيم هو الذى يُعرِّف الولد ..

- هذا سوق الحرير، ومن هنا تدخل إلى العطّارين، وهذه سكة الصنادقية، وتلك تقودك إلى بائعى السبابيط تتجاوزها فتجد سوق الفخاّرين.

عادت مريمة إلى الدار فلم تجد علياً. سألت عنه حسن فقال إنه لا يدرى. ولما طالت غيبة الولد وغيبة نعيم ركبتها الوساوس. الرجل مجنون، كيف يؤتمن على ولد صغير؟! دفعت بالوساوس بعيدا وخرجت تبحث عنه في الحارة والحارات المجاورة، استعلمت من الجيران. نزلت إلى رصيف حدّره، صعدت التلة من جديد. تجاوزت كنيسة سان سلفادور. لم تجده. عادت إلى الدار تمنى نفسها بأنه قد عاد.لم تجد في الدار سوى حسن فتشاجرت معه لأنه أهمل رعاية الولد ... "ماذا نفعل الآن لو ضاع!" بكت مريمة ثم تحول بكاؤها إلى نشيج ثم سمعت صوت على ونعيم يضحكان.

لامهما حسن على سلوكهما ولم تقل شيئا. حملت على وضمته إلى صدرها وهى تتمتم "الحمد لله"

- سأعد لكما العشاء

- أكلنا كثيرا ياجدتى

- ماذا أكلتما؟

حكى الولد عن جولتهما وما تناولاه من طعام وشراب ثم أبرز ما اشتراه له نعيم: ثوب جديد، وحلوى، ولعبة خشبية على شكل حصان.

- اشتراها لك نعيم؟!

كررت مريمة السؤال ثم انتحت بالولد جانبا وهمست في أذنه:

- السرقة حرام، والكذب أيضا حرام. كيف حصلت على هذه الأشياء؟

- اشتراها لى جدى نعيم، أقسم بالله . كلما أعجبنى شيئ يقول اشتريه لك، يطلبه من البائع، ويخرج النقود من جيبه، ويسأل عن الثمن ويدفعه كاملا.

- هل بدر منه سلوك غريب؟

- لا أفهم ياجدتى.

- هل هو مجنون؟

- ليس مجنونا ياجدتى بل عاقل مثلى ومثلك.

- هل أنت متأكد؟!

حدّق فيها الولد مستغربا ثم قال:

- متأكد ولكنه ينسى كثيرا ، قلت له عشر مرات إن اسمى على وليس هلالا فيناديني رغم ذلك بهلال.

هل يكذب على ؟ لم تعهده كذّابا ، ولكن من أين لنعيم بالنقود وهو لا يملك أن يشترى لنفسه غير هذا الثوب الرث الأسوأ من ثياب المتسولين الواقفين بباب الكاتدرائية؟! لماذا لا يشترى لنفسه ثيابا لائقة مادام يملك أن يشترى للصغير ثوبا ولعبة وحلوى؟ إنه مجنون، لم يعد لديها شك فى ذلك !

-٤-

انتابت الصغير نوبة السعال فمسّدت له مريمة صدره وظهره بزيت الزيتون، وأحكمت حوله الغطاء. ولكنه ظل يسعل حتى تقيأ ما في جوفه.

في الهزيع الأخير من الليل أغفى، وبقيت مريمة متيقظة بجواره حتى سمعت صياح الديك. قامت بحرص، أحس بحركتها. قالت: "نم يا على، لم يشقشق الفجر بعد". لم تفلح في إبقائه وحده في الفراش فلفّته بحرام صوفى يحميه من لفحة الهواء، وتبعها إلى المطبخ.

قرفص بالقرب منها. رأها وهى تكيِّل الطحين ثم تنخله فتتراكم ذرّاته في القصعة، ناعما أبيض. حملت جرة الزيت، مالت بجذعها قليلا فانسكب دهن الزيتون الأخضر سائلا ذا قوام يشف ثم يستقر في أبيض الطحين.

غفى ثم أفاق. كانت مريمة متربعة تصف الكعك الذى عجنته وكوّرته على غربالها الكبير. قامت وفتحت باب التنّور، ونقلت كعكها إلى النار الموقدة فيه وأغلقته . أخذت الولد من يده، وملأت الدلو من ماء البئر وغسلت له وجهه.

– ألن أتحمم ياجدتى؟

– لا داعى للحمام اليوم.

لم يلِّح واكتفى بوعدها أن تحممه في اليوم التالى إن لم يعاوده السعال. كان يحب الصيف، رغم شدة حرارته ، إذ تسمح له جدته باللعب في الحارة كما يحلو له، وتحممه في الصباح وفي المساء. يخلع ملابسه، تملأ السطل بالماء وتفرغه على رأسه دفعة واحدة. يشهق، ويضحك متقافزا، ويطالب بالمزيد.

عادت جدته إلى تنّورها، فتبعها. كان المكان عابقا بالرائحة الزكية. أخرجت الكعك وناولته واحدة، واحتجزت بعض أقراص لجده حسن ولنعيم. قالت:

- تبقى اليوم مع جدك حتى أعود من السوق.

لم يقبل، زيّنت له البقاء: "أشترى لك حلوى"، "يلاعبك نعيم"، "يحكى لك جدك حكاية". بكى، طاوعته.

لاحق خطواتها في دروب البيازين تتعرج وتحملهما هبوطا إلى رصيف حدُّره. رأسه يكاد لا يصل إلى خصرها، وهى تمشى بخطى وئيدة فيهتز ردفاها ويستقيم جذعها كالقضيب. تقبض بيدها اليسرى على يده، وترتفع يدها اليمنى عاليا فوق رأسها حيث تستقر سلة الكعك المغطاة بشرشف أبيض كالحليب.

ما أن وصلا الساحة وافترشا جانبا منها حتى بدأ يطالبها بالحكاية. ولكنها كانت منهمكة تنادى على كعكها، فيتوقف الشارون فتعطيهم وتأخذ الدراهم التى يدفعونها.

كان على يحب حكايات جدته التى لا تنفذ، فلكل إنسان عندها حكاية، ولكل مكان قصة، وللحصان أصل وفصل وكذلك الطير السابح في السماء. غرناطة في الحكاية لها صاحب إسمه شانيل، يلفّ ذراعه حول كتفها، يرافق أيامها ولياليها، يؤنسها بأحاديث رحلته، فهو قادم إليها من بعيد. وما يحكيه شانيل ممتع مثير يمتزج فيه الكلام بالأغنيات، ومالقة أميرة لها قصر عال مشرفيته على البحر، ووراء البحر من يطلبها، وهى تريده، تسعى ولا تطول، تنتظر وتقطع الوقت بالغناء. والحِمّة صبية بلا أهل مقطوعة في الجبال، تبكى في صمت وحشتها، وفي الليل تنادى فيتردد صوتها في التلال والوديان. يسمعه رجل طيب فيقول: "من ينادى؟" تقول: "أنا الحِمّة" فيسحب الرجل حماره، يمضى في اتجاه الصوت لكى يلقاها ولكنه يخطئ الطريق. يعود أدراجه، يحاول من جديد.

نعيم أيضا يحكى له. حكايات جدته تختلط برائحة الخزامى التى تدسّها بين ثيابها المطوية في الخزانة. وحكايات نعيم تختلط برائحة غليونه. يحكى وهو يدخن فتنتشر من حوله سحابات الدخان. يأخذه الكلام فيبقى متربعا، ينسى الركض في الحارة، والجوع والعطش، ولا ينتبه إلا حين يباغته ذلك السائل الدافئ يتدفق بين فخذيه، يبلل مقعدته وثيابه.

قبل يومين بال على نفسه ليس لأنه استغرق في الاستماع إلى نعيم. كان يسعل سعالا شديدا فأصرت مريمة ألا تصطحبه إلى السوق. بكى فقال له جده حسن:

– إن توقفت عن البكاء أحكى لك حديث قصر الذهب وقصة الثعبان.

نسى البكاء وهو ينصت للكلام عن القصر العظيم: أعتابه من العنبر والأرجوان، جدرانه من الذهب، وأعمدته من نحاس، وأبراجه رخام، والبساتين من حوله تمتد كالجنان.

"وفي يوم من الأيام ظهر ثعبان هائل الحجم يزحف تارة على بطنه وتارة على ظهره وأخذ يبتلع الأبقار والأغنام ويهلك الزرع. ويقطع الطريق على أهل القصر وينفث فيهم دخاناً كثيفاً".

استنجد أهل القصر بالنبى عليه الصلاة والسلام فأرسل إليهم ابن عمه على بن أبى طالب ركب حصانه السرحان، وأشرع سيفه ذا الفقار، فتبعه العديد من الفرسان. لكنهم حين دخلوا القصر أحاط بهم الدخان من كل جانب، واهتزت الأرض من تحت أقدامهم، وتساقطت على رءوسهم الأحجار فاختبأوا في جب لم يحمهم من الدخان الكثيف ولا الدوى المروع المنبعث من الثعبان".

بال على في ثيابه، وظل خائفا حتى بعد أن نجح على بن أبى طالب في ضرب الثعبان بسيفه، وقتل من يعاونونه من الجن، وإعادة القصر إلى أهله.

عادت مريمة من السوق فوجدت الصغير شاحب الوجه مبلل الثياب.

- ماذا جرى؟

- لا شيء، حكيت له حديث قصر الذهب وقصة الثعبان.

- أفزعت الولد، وزدته مرضاً على مرض.

تشاجرا . علا صوت مريمة، وعلا صوت حسن، وقام على ليبدّل ثيابه. لم تكن مشاجرة الكبار بالشيئ الجديد عليه. كان جده وجدته كثيرا ما يتشاجران، وعندما جاء نعيم صار هو أيضا يتشاجر أما معها أو معه فيغادر الدار غاضبا وهو يقسم أنه لن يعود أبدا إلى هذه الدار ولكنه في المساء يعود ، دائما كان يعود.

حين يتصايحون يتركهم على ويخرج إلى الباحة، يتسلق شجرة التين، أو يخرج للعب في الحارة، أو يعلنهم "سأذهب إلىوردة " . كانت دار إرناندو بن عامر تقع في نهاية الحارة العليا، تسدها ببوابتها الخشبية. لا يطول السقاطة لكى يطرق الباب فينادى بأعلى صوته:

- إفتحى ياوردة، أنا على.

تسمعه فتأتى بمن يفتح البوابة. يدخل ويلعب معها، لا يعكر صفوه سوى مشاركة خوسيه في اللعب. يبقى في دار إرناندو بن عامر حتى تأتى جدته لإعادته إلى البيت.

- جدتى هل يمكن أن أذهب إلى وردة بعد أن نترك السوق؟

- إذهب بعد الظهر. عندما انتهى من بيع الكعك آخذك إلى صديقة لى تصف لنا دواء آخر لسعالك.

باعت مريمة آخر كعكة في سلتها، واشترت لعلى قطعة من الحلوى، وأغراضا للدار، ثم صعدا معا إلى البيازين.

قصدا بيت امرأة نصحت بخلطة من الأعشاب تغلى وتشرب قبل النوم. ذهبا إلى العطار، وابتاعت مريمة المطلوب ثم عادا إلى البيت.

استقبلهما حسن بالصياح. وبخَّ مريمة على التأخير : "تتحججين ببيع الكعك وتقضين النهار خارج البيت لتثرثرى مع الرائح والغادى" غضبت وصاحت فيه كما صاح فيها فسبَّها وسب كل النساء فقالت له:

– قل لى ما الذى جنيته من زواجى منك؟! بعت بناتك الخمس لأغراب حملوهن ورحلوا، بعت البنات بثمن بخس: إدارة خان أفلس في نهاية المطاف. وقسوت على ولدك الوحيد فترك لك الدار وشرد في الجبال!

تحامل حسن على نفسه وقام رافعا يده ليضرب مريمة فدفعته بعيدا وسحبت على من يده وهى تقول:

– تعالى يا على ، سنترك هذا البيت المخروب ونعيش في مكان آخر.

التقيا بنعيم عند بوابة الدار. سأل عما جرى فحكت له، قال:

– حسن خرف يامريمة، طلقّيه فأتزوجك.

زجرته:

– وهل هذا وقت مزاح يا نعيم؟!

قال:

– ولكنى لا أمزح!

صاحت مريمة، ولطمت خديها وهى تنعى حظها في العيش بين رجلين خرفين. تركها نعيم مهرولا إلى داخل البيت ثم عاد مهرولا ولحق بهما على بعد خطوات من الدار. كان يرفع قبضته عاليا ويعلن بزهو:

– ضربته، قضيت عليه، اعتقد أنه فارق الحياة!

اندفعت مريمة راكضة وعلى ونعيم في إثرها. دخلت غرفة حسن فوجدته ممددا

على الأرض بلا حراك. علا عويلها، وصرخ على فزعا فإذا بحسن يرفع حاجبيه ويفتح عينيه على اتساعهما، ويقول:

- ماذا حدث؟ ماذا دهاك يا امرأة، لماذا تولولين، هل جننت؟!

بعد أن هدأوا بدأ على يبكى. ولم يفلح أي من ثلاثتهم في إسكاته فاقترحت عليه مريمة أن يذهب للعب مع وردة. قال إنه لا يرغب في ذلك. حايلته ورافقته إلى دار إرناندو بن عامر. أمسكت بالسقاطة، وطرقت الباب، وأدخلته ثم ذهبت.

لم يرق لعلى اللعب. جلس مع وردة وخوسيه في الباحة ثم انصرف.

دخل الدار فوجدهم جالسين في الرواق. كانوا يستعيدون الواقعة. يهتز صدر جدته وهى تضحك، ويتمايل نعيم مقهقها، ويمسك جده بخاصرته ويكرر وهو يلتقط أنفاسه التقاطا: "سأموت من شدة الضحك"

حدق فيهم مشدوها ثم اندفع راكضا باتجاه الباب.

- إلى أين يا على؟

- سأعود إلى وردة

ولكنه لم يذهب. جلس في الحارة عند سور الدار وكان محتقن الوجه، غاضبا، تلح عليه الرغبة في سبّهم.

ـ ٥ ـ

كان حسن قلقا بشأن نوع التعليم الذى يتلقاه حفيده في المدرسة. لم يرسله إلى أى من الفقهاء الذين يتعهدون الصغار سرا في بيوتهم. قرر ألا يزج بالصغير وبنفسه في مشاكل قد تزداد تعقدا بما لا تحمد عقباه. ألحقه بالمدرسة الإرسالية حيث تعلم الولد الأبجدية اللاتينية، وانطلق لسانه في الحديث بالقشتالية. ولم يكن ذلك هو ما يقلق حسن، بل ولع الصغير بالأناشيد الدينية التى صار يحفظها عن ظهر القلب، ويتعجل الذهاب إلى القدّاس لأنه – هكذا يقول – يحب صوت الأرغن والجوقة التى تترنم بتلك الأناشيد.

ثم صادق على ولدا في سنه من رفاق المدرسة الأسبان – ولد أعجف ككوز الذرة له شوشة صفراء ووجه شاحب – سمعه حسن بأذنيه يسمى على "نيجرو" فنهره بعنف، فإذا بعلى يدافع عن صاحبه قائلا: "إننا نمزح ياجدى ونقلّد أستاذ الصف الذى يعلق على تلازمنا الدائم بقوله "بلانكو إى نيجرو"، يقولها الاستاذ ويبتسم، وأحيانا يضحك، فيضحك الأولاد، وأضحك أنا، وأنطونيو أيضا يضحك» على طفل برئ من كل معرفة بهذه الدنيا، ولا يدرى أين وضعه الله فيها. ولو تركه دون توجيه ضاع!

تأمل حسن المشكلة ليال متصلة، وقلبّها على وجوهها، ثم استقر على ضرورة تعليم حفيده اللغة العربية بما يمكنه من قراءه القرآن، والكتب الأخرى أيضا. وتدريجيا يفهم الولد الحكاية، وموقعه منها. إنه في السابعة وعهد الطفولة الأولى

ولّى، وحان وقت التوجيه والتعليم. لن ينتظر أكثر من ذلك، والفرصة مواتية ، والولد مُجاز شهرين في الصيف، ومريمة تخرج إلى السوق كل صباح، ونعيم لا يأوى إلى فراشه إلا قرب الفجر ويصحو متأخرا.

نادى حسن على حفيده، قال:

– هل أنت كبير أم صغير يا على؟

قال على باعتداد:

– كبير ياجدى.

– بإمكانى إذن أن أحمّلك سرا عليك ألا تفشيه لأى إنسان، حتى مريمة ونعيم، فهل تصون السر؟

– أصونه يا جدى.

– قم، واحضر اللوح الذى تكتب عليه.

إنطلق الولد راكضا، ثم عاد راكضا وفي يده اللوح المصنوع من خشب الجوز. ناوله لجده. قال حسن:

– اجلس هنا بجوارى.

فجلس وراح يراقب جده وهو يكتب على اللوح.كتب حسن a و b و c ، كتبها عمودية حرفا تحت حرف. وترك بين الحرف الأول والثانى مسافة أصغر من تلك التى تركها بين الحرف الثانى والثالث، بجوار الحرف الأول كتب الألف، وتحتها بجوار الحرف الثانى، كتب الباء. وفي المساحة الفارغة بين الحرف الثانى والثالث كتب التاء؛ ثم أضاف الثاء بجوار الحرف الأخير.

قال حسن مشيرا للعلامة الأولى:

– هذا الحرف هو أول حروف العربية، هكذا يكتب خطا كالعصا له عين في أعلاه كعين المخراز الصغير. والنطق متقارب نقول: andalucia ونقول : أندلس. والحرف الثانى هو حرف الباء، والنطق متطابق، نقول: barrio ونقول: بلد. أما

الحرف الثالث في الأبجدية اللاتينية فيقابل الحرف الرابع في العربية، بينهما شبه، وبينهما اختلاف، نقول: ciudad ونقول: casa. الحرف الذى نبدأ به كلمة "ثيوداد" هو نفس الحرف الذى نبدأ به كلمة ثور، وكلمة ثريد، ولكن "كاسا" حرفها الأول بالعربية هو الكاف، ونتحدث عنه لاحقا. وبين الباء والثاء في العربية حرف التاء، وهو كما ترى يأتى في أبجديتنا في الأوائل، أما في اللاتينية فيأتى في الأواخر.

في ذلك اليوم علم حسن حفيده أربعة حروف، طلب منه كتابتها على اللوح نقلا والحروف أمام عينيه، ثم إعادة كتابتها من الذاكرة بعد مسح اللوح. وفي اليوم التالى علمه خمسة حروف أخرى، فما انقضى الأسبوع حتى تعلم الولد الأبجدية العربية قراءة وكتابة.

أقبل على على العلم الجديد، وكلما عنّ له أن يثبت مهاراته ركض إلى جده وهمس في أذنه: "عين: عين الدمع، غين: غرناطة، فاء: فستق، قاف: قرطبة». فيغمز له حسن بطرف عينه لأن مريمة قد تسمع، والسر بينهما لا يعلم به أى مخلوق.

كان هذا السر الأول مثيرا وممتعا، لعبة مشتركة بين الصبى وجده. أما السر الثانى الذى أعقبه فكان مخيِّبا للآمال إذ أطلق العنان لخيال على ليحلق لحظة يسقط بعدها مغتاظا ومحبطا.

ألح حسن في الانتقال إلى بيت عين الدمع: "الحرارة في البيازين لا تطاق، هواء عين الدمع منعش يرد الروح" . اكترى نعيم عربة يجرها بغل قوى حملتهم من البيازين إلى عين الدمع. وكما تعاون المكارى مع نعيم في إيصال حسن إلى العربة وإركابه، تعاونا، حين وصلا إلى عين الدمع، في انزاله منها. ولما أرادا إدخاله إلى البيت قال إنه يريد أن يجلس في البستان بين عروق الزيتون. فرشوا له حصيرة بين الأشجار فجلس.

ذهب المكارى بالعربة، وانهمكت مريمة في تنظيف الدار، أما على ونعيم فقد آخذا يستعدان لقطف الثمار الناضجة عن الشجر. كانت عروق الزيتون تحتل الجانب الأكبر من البستان، وكانت غصونها مثقلة بحبات الزيتون، صغيرة وخضراء يابسة بحاجة لشمس الصيف كله حتى تنضج. وكان في البستان أيضا كرمة صغيرة، وشجرتا برتقال، وتينه ورمانة ولوزة. كان موسم اللوز قد انتهى، والرمان لم ينضج بعد فبدآ بالتين.

حمل على سلما، أسنده إلى جذع الشجرة وصعد عليه، وراح يقطف الثمار ويناولها إلى نعيم فيصفها بعناية في سلة غطى قاعها بورقتى تين.

– يا على تعال.

كان جده الذى ينادى. نعيم هو الذى أجاب:

– اتركه الآن يا حسن لدينا ما نقوم به.

– أريد أن أرسله لجارنا ليُعلمه بوصولنا.

– وما العجلة في ذلك؟! ننتهى أولا من قطف التين والعنب ثم يذهب.

– أريده أن يذهب الآن، تعال يا على.

قال نعيم:

– حين يطلب جدك شيئا لا يقدر على الجلوس هادئا كأن في مؤخرته جمرة مشتعلة. إذهب يا على، سأقوم أنا بقطف العنب، وعندما تعود نواصل قطف التين.

– يا على!

– سأذهب حالا يا جدى.

– تعالى هنا أولا، أريد أن أقول لك شيئا قبل أن تذهب.

– نعم يا جدى.

– إجلس هنا بجوارى.

جلس على فأخرج حسن من جيبه مفاتيح مشبوكة في حلقة، بينها مفتاح واحد كبير، والباقي مفاتيح صغيرة متشابهة ، قال:

- هذا مفتاح القبو تفتحه وترى ما فيه. لو لم أكن مقعدا لجئت معك، ولكن إن أعنتني على المشي فكيف لي بنزول الدرج؟! إذهب الآن إلى غرفة الخزين، وزح الخزانة الخشبية الصغيرة، تجد وراءها بابا يفضي إلى دهليز يفضي إلى باب آخر، هذا مفتاحه، افتحه. خذ معك قنديلا، وأهبط الدرج، تجد نفسك في السرداب. أوقد القناديل التي تجدها فيه، وافتح الخزائن ثم عد إلى وقل لي ماذا وجدت.

لم يكن على يعرف أن للبيت سردابا . كان متوقدا وخائفا أيضا. أخذ المفاتيح من جده وتوجه إلى حجرة الخزين. كانت الخزانة عن يمينه، أزاحها، وفتح الباب الأول الذي لم يكن مغلقا بمفتاح. دلف منه فوجد نفسه في ممر ضيق معتم. تذكر القنديل. عاد وحمل واحدا وأسرجه ورجع إلى الممر. بحث عن الباب ولما وجده وضع القنديل على الأرض وأدخل المفتاح الكبير في القفل، حاول فتحه فلم يدر المفتاح. ركض إلى جده

- لا يفتح المفتاح يا جدي!

- تصرف يا على، ألم تقل أنك أصبحت كبيرا؟! إغمس المفتاح في قليل من الزيت فيفتح!

ركض على إلى غرفة الخزين، وغمس المفتاح في الزيت، أدار المفتاح في القفل فدار، فتح الباب فأحدث خشبه العتيق صريرا زاده رهبة . رفع القنديل بيمينه وبدأ ينزل الدرج في حرص. كانت الرائحة الرطبة والعتمة، والضوء الشحيح وما يلقيه من ظلال، والمجهول أسفل السلم تبعث وهنا في ساقيه، وتوجسا في نفسه، ولكنه واصل الهبوط حتى رأى القاعة الفسيحة. بدأ بإسراج القناديل.

قاعة عتيقة مؤسسة بالأرائك والأبسطة والخزائن. الأبسطة من الصوف الملون

المضفور، والأرائك خشبية واطئه، تكسوها الحشايا والمساند، والخزائن ثلاث متماثلة متراصة في حذاء الجدار المواجه للدرج.

جرّب كل المفاتيح في الخزانة الأولى فلم يفلح في فتحها. فكر أن يعود لجده ثم تذكر الزيت. صعد إلى غرفة الخزين، وملأ إناء صغيرا بقدر من الزيت، حمله ونزل.

فتح أول الخزائن، كانت الكتب متراصة على أرفف تمتد من أعلى الخزانة الخشبية إلى أسفلها. إنتقل إلى الخزانة التالية، فوجد كتبا أخرى. ولما فتح الخزانة الثالثة عثر على المزيد من الكتب.

جلس على إحدى الأرائك مستغربا سلوك جده وتكتمه الأمر كأن المحفوظ في السرداب كنز مطموع فيه، أو نفائس مسروقة يخشى افتضاح أمرها. بدا له، وهو يهبط ببطء على الدرج مأخوذا بالرهبة، أن ما ينتظره في السرداب صناديق زمرد، وعقيق، ولؤلؤ، ومرجان، أو شيئ آخر يفاجئه ويبهره؛ مصباح علاء الدين أو قمقم يفرك نحاسة الأحمر فينطلق منه مارد يفزعه ويحقق له أمانيه. ما الذى كان يطلبه لو ظهر له المارد؟ ثلاث أمنيات لا غير فماذا تكون؟

لم يتسرع بل فكر قبل الاختيار. يطلب مالا يكفى جدته مريمة حاجة الخروج كل صباح إلى السوق لبيع كعكها. ويطلب أن يسمح له أهل وردة وأهله بالتردد عليها، واللعب معها، وألاّ يقولوا أن ذلك لا يصح لأنهما لم يعودا صغيرين. والأمنية الثالثة؟! توقف إذ بدت له أمنية مستحيلة. ولكن المارد جنّي يحقق كل شيئ. إنه قادر على تحقيق حتى المستحيل من الأمنيات. طلب أن يبعث الله له أمه، ولو لطرفة عين، فيراها كاملة كما كانت، فيتعرف على صورتها فيحفظها وتبقى مطبوعة في رأسه طوال العمر.

زفر مغتاظا، لا كنز، ولا مصباح، ولا قمقم، ولا جنى ... مجرد كتب عتيقة مقفل عليها كأنها كنوز سليمان!

أطفأ القناديل، وحمل المصباح الذى جاء به، وصعد الدرج. أقفل الباب بالمفتاح، ثم مرق عبر الدهليز إلى غرفة الخزين، أعاد الخزانةحيث كانت، ثم ذهب إلى جده وناوله المفاتيح قائلا:

– تصورت ان في الخزائن شيئا غير الكتب!

كان وجه الولد يعكس بوضوح خيبة أمله؛ هز حسن رأسه وقال:

– أفسدتك جدتك بالحكايات، إجلس.

– ولكن جدى نعيم ينتظر.

– إجلس!

جلس الولد.

– هذه الكتب كانت في الأصل لجدى أبى جعفر الورّاق، أخفاها عندما كان القشتاليون يجمعون الكتب لحرقها، وظلت هنا في عين الدمع إلى أن صدر مرسوم جديد يقضى بتسليم الأهالى كل ما في حوزتهم من الكتب، فقامت جدتك مريمة وجدتك سليمة، رحمها الله، بنقلها وإخفائها، ألا تعرف صندوق جدتك مريمة؟

– أعرفه طبعا.

– أخفيتا الكتب فيه وتكتمتا الأمر فلم يعرف به سواهما. حتى أنا لم أعرف، رغم أن الصندوق كان موضوعا في الغرفة التى أنام فيها. وظلت الكتب في البيازين سنوات طويلة ولما هدأت الأمور، وعرفت مصادفة بوجودها في الصندوق، عاودنا نقلُها إلى هنا. هذه الكتب ثروة يا ولدى.

أومأ على برأسه وقال:

– هل يمكن أن أذهب لمعاونة جدى نعيم؟

سمح له حسن بالقيام. ولم تفلح حكاية الكتب في تبديد خيبة أمل على ولا في التخفيف من غيظه لقطع متعته في جمع الثمار عن الشجر.

- ٦ -

لم يدق الباب بل دفعه ودخل. رجل مربوع قوى البنية، في ساقه اليسرى عرج خفيف ، على رأسه قلنسوة حمراء، وحول رقبته منديل صغير معقود له نفس اللون، وجهه مدبوغ بحرارة شمس لاهبة أو برد قارص.

رآه على وهو يدلف إلى باحة الدار دون استئذان فركض إليه وسأله من هو وماذا يريد. رفعه الرجل بيديه، وضمه إلى صدره، ثم أنزله إلى الأرض بسرعة مفاجئة، ثم تركه ومضى إلى داخل البيت دون أن يلتفت إلى السؤال.

وقف على مشدوها من شكل الزائر وسلوكه الغريب ثم تبعه ركضا. شهقت مريمة لرؤية الرجل، ضمته إلى صدرها، ضمها، قبل رأسها ويديها، بكت. قال:

– لماذا تبكين يا أم هشام، ليس في الأمر ما يُبكى. إخبرى أبا هشام بوجودى، قولى له لا داعى أن يسيئ استقبالى كما في كل مرة. جئت لأرى الصغير، وأراك، وأقبل رأسه وأمضى.

أراد على أن يتبع الرجل إلى غرفة جده لكن جدته استبقته. سمع صوت جده محتدا وموبِّخا ثم رأى الرجل يخرج محتقن الوجه وعابسا.

رفعه مرة أخرى وضمه، وأودع كيسا قماشيا صغيرا في يده ثم أنزله. قبل رأس مريمة وغادر دون أن يلتفت لإلحاحها عليه بالبقاء. كان يمشى بخطوة سريعة أبرزت عرج ساقه اليسرى.

انشغل على ببكاء جدته، ومحاولة تهدئتها، ورغبته في معرفة لماذا تبكى، ومن الشخص الغريب الذى دخل الدار كأنه ليس غريبا. لم تجب مريمة على أسئلته وإن كفت عن البكاء بعد حين. ولما هدأت قالت له:

- لا تقل لجدك إنه أعطاك هذا الكيس.

- وما الذى في الكيس؟

تنهدت فبدا وجهها أكثر حزنا. كرر على السؤال :

- ما الذى في الكيس يا جدتى؟

- إفتحه تعرف.

فتحه فوجد فيه عملات ذهبية:

- إنها نقود!

- أعرف.

- ولماذا يعطينى هذا الغريب نقودا؟ لقد ذهب كيف أعيدها إليه الآن؟!

- إحتفظ بها.

- ألم توصينى بألا أقبل نقودا من أغراب؟!

لم تجبه وكررت " لا تخبر جدك". لم يخبره ولكنه سأله عن أمر الرجل فاحتقن وجه حسن وقال:

- إنه ابن صديق لى.

- ولماذا لا تحبه، لماذا وقد جاء يزورك وبخته وعلا صوتك عليه؟

حدجه حسن بنظرة رادعة فخرج إلى باحة الدار وقد قرر انه يوم غريب، جاءهم فيه شخص غريب، له هيئة غريبة، وسلوك غريب وكان استقبال جده وجدته له غير عادى ولا مفهوماً سيسأل نعيما فهو صاحبه ولا يكتم عنه شيئا.

انتظر عودته إلى الدار ولما عاد سأله فقال له: "صفه لى" فوصفه، فقام نعيم وتركه جالسا تحت شجرة التين. تغيب بعض الوقت ثم جاء وقال دون أن يتطلع إليه "انه قريب للعائلة، جاء وذهب، فلماذا تنشغل بأمره؟!"

حتى نعيم يكذب عليه، ليس صاحبه إذن فالأصدقاء يتبادلون الأسرار، ولا

يكتمون عن بعضهم شيئا. أغاظه تصرف الكبار فقرر أن يحجب عنهم أمر مغامرة الغد، لن يخبرهم لا قبلها ولا بعدها.

كانت الفكرة لأنطونيو، طرحها عليهم وهم يلعبون. لم ترق له ولكن ابن فضة شجع على المضى في تنفيذها، وأخذ يتحدث في التفاصيل. أما الولد الرابع الذى كان أصغرهم فقال انه سمع إن الكنوز المخبوءة في الدور المهجورة تحرسها أرواح سكانها فتظل تحوِّم في المكان، وتسيئ لأى شخص يقترب منها. فقال له إبن فضة:

- إن كنت خائفا فلا تأت معنا!

قال الولد:

- أنا أنقل ما سمعته ولست خائفا يا فيديريكو، سآتى معكم!

بعد الإشارة إلى الخوف كانت مهمة على في إقناعهم بالعدول عن المغامرة صعبة. ولكن حين وجد فرصة للمحاولة قال:

- الكنوز والنفائس التى تتحدثون عنها كانت مخبأة في القصور والدور الكبيرة، وهذه كلها مسكونه، يعيش فيها النبلاء والكبراء، والبعض منها يسكنها أصحابها العرب. سنفشل ونعود كما ذهبنا لأن البيوت المهجورة في البيازين كانت لأناس عاديين من أمثالنا لا يملكون ذهبا ولا جواهر.

قال انطونيو:

- وما الذى نخسره لو حاولنا، قد لا نجد شيئا وقد نجد!

لو أن أبا أنطونيو لم يتحدث أمامه عن القدور المملوءة بعملات الذهب والجواهر التى دفنها العرب قبل رحيلهم لما فكر أنطونيو في هذه المغامرة، ولما اقترحها ولما تحمس لها إبن فضة. ولكن ما حدث حدث.

لم يذهب على إلى داره مباشرة بل تابع الحوارى الملتفة في الحى. كان منشغلا

بأمر تلك الدور المهجورة، ولم يكن عددها في البيازين قليلا. يمر بها العابر إن ذهب من هنا أو من هناك فيلتقط وحشتها من بابها المتهالك، أو مشرفيتها المتآكلة، أو سورها الحجرى الذى تساقط طلاؤه دون أن تمتد له يد صاحب بدلو وفرشاة تعيد له أبيضه كباقى البيوت. وقد تمر وتجد الباب مشرعا فترى الخراب فيملؤك الخوف، ليس لأن الناس يقولون إن العفاريت تسكن المكان. فهو يعرف الخوف من العفاريت، حين يتعين عليك أن تخرج من الحارة أو تعود إليها في ليلة بلا قمر فيُسرع خطوك، وتتيبس رقبتك، لا تملك الالتفات يمينا أو يسارا، وتعلو دقات قلبك لأنك تعرف أن عفريتا ما يتعقبك، أو يكمن لك عند هذه الشجرة، أو خلف هذا السور ..

في اليوم التالى التقوا عصرا حسب الاتفاق، وعند السبيل القريب من كنيسة سان سلفادور أبرز كل منهم ما أحضره خلسه من داره، فاطمأنوا على اكتمال العدة: قنديل زيت، وثلاث شمعات، وكيسان من الخيش لنقل ما يجدونه من الخبايا، وحبل، وفاس، وسكين. انطلقوا إلى المغامرة ، ساروا بمحاذاة السور القديم، ثم توغلوا في الحومات والحوارى حتى وصلوا كنيسة سان كريستوبال، ثم تجاوزوها. عن يمينهم كان السور الآخر للبيازين يمنطق أعلى التلة ويفصل بينها وبين الحقول. وعن يسارهم كان قرص الشمس كبيرا ومشرفاً ومشتعلا قبل الغروب.

عند أطراف الحى وجدوا الحارة التى ينشدونها، مقفرة ومهجورة، يلفها الصمت، وصوت طائر حاد ورفيع. قال أنطونيو مشيرا إلى دار من الدور:

– ندخل هذه!

فقال ابن فضة وهو يشير إلى غيرها:

– بل تلك!

اختلفا، ثم قبل أنطونيو باختيار ابن فضة الذى قادهم وتبعوه.

دفعوا البوابة فاستجابت بصوت كالأنين. دلفوا إلى ممر نصف معتم تئز

اخشابه المتآكلة لوقع خطواتهم عليها. انتقلوا من الممر إلى غرفه نصف معتمة تضيئها طاقة في أعلى الجدار. راحوا يتطلعون ويحدقون ويفتشون، كانت خالية تماما. انتقلوا إلى سواها، لم يجدوا سوى صندوق محطم، وفراش مهترئ. كانوا يمشون بحذر، يتطلعون إلى مواقع أقدامهم التى أفزعت الفئران فصارت تركض هنا وهناك. أما العناكب فلم تفزع، ولم تفزعهم، كانت مستقرة في بيوتها التى نسجتها في السقف والأركان والزوايا. دخلوا الغرفة الثالثة. كانت خالية، فخرجوا إلى الفناء. وجدوا شجرتين عاريتين تماما من الأوراق بدت فروعهما كأعواد الحطب. صاح على فجأة وهو يشير إلى زيتونة مورقة فى أقصى الفناء:

- انظروا!

ضحك ابن فضه بغيظ:

- شجرة عجفاء ستلحق بالأخريات ... ما الذى فيها لكى ننظر!

استحى على من ملحوظته، ولم يفهم لماذا صاح هكذا، ولماذا بدت له الشجرة المكتسية بالأوراق مفاجأة طيبة انتشلته للحظة من ثقل داخله وضيق.

جلسوا على حافة البئر يملؤهم الشعور بالخيبة. كانت الدار خرابا مقبضا ولا شيئ سوى ذلك، فأين المغامرة، وأين الكنوز؟!

قال ابن فضة

- فكرتك سخيفة يا أنطونيو!

فظل أنطونيو صامتا

صاح الولد الأصغر:

- البئر، لماذا نسينا البئر ؟!

قال ابن فضة في غيظ :

- مالها البئر ... انها جافة، ولو كان فيها ماء فهو عكر لا يصلح للشرب،

تحمّل عطشك حتى نخرج من هذا المكان.

قال الولد:

- أقصد ان الكنز قد يكون مخبأً في البئر.

قال أنطونيو:

- لن نجد شيئا، لنغادر المكان. غربت الشمس والطريق طويلة، وسيوبخنا أهلنا على هذا التأخير.

قال الولد بعناد:

- ولكن الخبايا قد تكون في البئر!

قال أنطونيو:

- ومن الذى سينزل البئر؟

تلعثم الصغير ثم قال:

- فيدريكو لأنه أكبرنا.

أجابه ابن فضة:

- لن أنزل!

قال على:

- أنا أنزل!

لفوا الحبل حول خاصرته وعقدوه، ثم جلس على على حافة البئر، ثم أنزل ساقيه وأتبعهما بجسمه كله. كان ابن فضة وأنطونيو يمسكان بالحبل، والصغير يحمل القنديل ويميل برأسه وجذعه على فتحة البئر رافعا القنديل بيمناه.

حاول على أن يهبط مستخدما قدميه ويديه فوجد الجدار الداخلى للبئر أملسا تماما فتشبث بيديه بالحبل وترك جسده يتدلى كالدلو ويهبط تدريجيا. أشاح بوجهه فجأة وصرخ فصرخوا ثم صاحوا عليه يسألونه عما حدث:

- هل نسحبك؟

- لا انه خفاش، ليس سوى خفاش!

بدت له البئر معتمة ثم تعودت عيناه على ضوئها الشحيح المتسرب من شعاع القنديل والسماء، ولكنه حين وصل إلى قاع البئر لم يكن الضوء كافيا للتحقق من أى شيئ، صاح:

- إسحبوا الحبل، واربطوا القنديل فيه، ودلوّه لي.

فك الحبل عن خاصرته فسحبوه وجلس ينتظر. ماذا يفعل لو ظهر له طيف واحد من أهل الدار؟ يقولون إن أطيافهم تحوّم في المكان، وإنهم مسجونون فيه، يرون خرابه ويتعذبون ولا يملكون ان يفعلوا شيئا. ماذا لو اشتد عذاب واحد منهم فكسر باب سجنه وأفرغ فيه غضبه ؟! سرت في بدنه قشعريرة. إن واجهه الطيف سيتحدث معه ويُفهمه أنه لا يقصد أذى، سيستمع لحكايته كما يستمع لحكايات جده نعيم ... وقد لا يكون الطيف مخيفا، ربما كانت هيئته غريبة كنعيم ولكنه طيب القلب وعطوف مثله.

أنزلوا له القنديل فأمسك به ورفعه بيمناه، وراح يتفحص المكان من حوله. رأى الخفاش الذى باغته وأخافه ملتصقا بجدار البئر وقد التف تماما بأحد جناحيه وتسربل به؛ ورأى فئرانا تركض، مشى خطوتين فلمح شيئا يلتمع. مال عليه ليتحقق فإذا بوجه يطالعه. صرخ صرخة عالية تردد صداها ورج الأولاد رجا فنادوا عليه: "على، يا على" فلم يسمعوا سوى رجع النداء.

لم يكن الشيئ اللامع سوى شقفة مرآة مصقولة، مد يده ليمسك بها. جرحته حافتها المسنَّنة. مسح الدم في ثيابه ومد يده ثانية، ويحرص حمل المرآة. تطلع فيها فتعرف على نفسه. خلع قميصه الداخلى ولفها به. صاح : "إسحبوا القنديل" سحبوه ثم انزلوا له الحبل، ربط به خاصرته، حمل المرآة الملفوفة بقميصه بين شفتيه ثم أمسك بالحبل فجذبوه. كانوا يحدثونه فلا يجيبهم، فيسمعهم يقولون:

- ما الذى حدث لعلى؟ لدغه عقرب؟ فقد وعيه؟

- ربما مات

– مات؟!

سمع نشيج الصغير وأنطونيو .

حين أخرجوه من البئر أمسك المرآة بيمينه وكشف لهم عنها وشرح صمته:

– كنت أمسكها بفمي

قال ابن فضة :

– قلت مات على فكيف أبلغ جدته بذلك. ننادى عليك ولا مجيب، وأنطونيو والصغير يبكيان، وأنا أقول لنفسى قرر أصحاب الدار معاقبتنا بما هو أقسى من طلوع أطيافهم علينا.

ثم استدار إلى أنطونيو وقال بحنق:

– فكرتك زفت، وأصل البلاء أبوك الجشع الذى لاهم له سوى التفكير في نهب أولاد العرب حتى بعد خراب بيوتهم!

– لا تسب أبى يا فيديريكو!

– سأسبه وأسبك فأنت كلب ابن ستين كلب!

ألقى أنطونيو بنفسه على ابن فضة فتشابكا بالأيدى، وحاول على والولد الصغير الفصل بينهما ولم يتمكنا من ذلك إلا بعد جهد. ساروا صامتين، وبدت طريق العودة موحشة وطويلة ثم افترقوا في ساحة سان سلفادور وذهب كل إلى داره.

ما إن رأت مريمة عليا حتى صاحت في فزع:

– ماذا حدث، ملابسك متربه ووجهك شاحب، هل سقطت عن شجرة؟

كان حسن ونعيم أيضا يتطلعان إليه في تساؤل قلق.

– نعم ياجدتى سقطت عن الشجرة ولكنى لم أصب بسوء.

كان قد قرر أنه لن يطلعهم على أسراره ماداموا لا يطلعونه على أسرارهم، حتى المرآة التى وجدها في قاع البئر لن يريها لهم!

-٧-

لم يكن قد سقط بعد ولكن قائمتيه الأماميتين انثنتا فمال هيكله، ومن ثقب أرجواني في صدره سال خيط من الدم . كان محاصرا بأسنّة الرماح المشرعة في أيدى الصيادين. يلتمع الظفر في عيونهم المتطلعة بزهو شرس. يعتمرون على رءوسهم قلانس يزينها ريش النعام، ويرتدون سترات مخملية مطرزة، وسراويل حريرية مشدودة على سيقانهم المفتولة القوية. كان كل شيئ ملونا ، قبعاتهم، والريش على قبعاتهم، وثيابهم، والأبواق التى ينفخ فيها مساعدوهم، والكلاب السلوقية التى تتدلى ألسنتها لاهثة بعد طول طراد، والأشجار المثمرة برتقالا وكرزا ورمانا، وزهور البنفسج، وزنبق الوادى، والنرجس، والورود.

حدقت مريمة في حفل الصيد المبسوط أمام عينيها لوحة بحجم الجدار، ثم توقفت عيناها عند الوعل الذى انحنى رأسه كأنما يثقله تاج قرونه الشجرية. بدا ساهما يتطلع في اللاشئ؛ وفي النظرة، رغم الحزن، عذوبة تضفى على الوجه ملامح الإنسان. طال تحديقها في الوعل ثم تشتت نظراتها بين تفاصيل اللوحة وإطارها الذهبى. ولم تنتبه لدخول الدُنيا بلانكا إلا حين سمعت صوتها فارتبكت، وتراجعت خطوتين، وحولت عينيها عن الصورة.

تحدثت إليها صاحبة البيت وهما واقفتان، أفهمتها أنها تقيم حفلا في دارها وتريد أن تضيف لقائمة طعامها صنوفا من الأكل العربى حددتها، وطلبت من مريمة إعدادها.

كانت الدُنيا بلانكا تشرح المطلوب وتتكلم في التفاصيل فتجيبها مريمة

بإيماءات من رأسها دون تفكير. لو لم تر اللوحة لردت طلب السيدة وشكرتها قائلة إنها لا تحسن سوى صنع الكعك إذ لم يكن من المناسب أن تصارحها بأنها وهى في هذا العمر لن تخدم في دور النبلاء. فالمصادفة وحدها دفعت بالدون بدرو إلى حيث تجلس في السوق فاشترى منها كعكا استطعمه، وطلب منها ان تخبز له قدرا منه كل أسبوع، في مقابل مبلغ مجز من المال. ولولا تلك المصادفة لما انتبهت الدُنيا بلانكا لوجودها، ولا أرسلت في طلبها ذلك اليوم لتدق باب قصر على رصيف حدرُه، مرت به آلاف المرات دون أن تفكر أنها ستدخله وتتحدث مع سيدته. فما الذى يأتى بامرأة عربية إلى دور أسياد غرناطة، مادامت ليست من خدم الدار ولا عبيدها ؟ ولكن فضة العبدة السوداء التى تخدم في قصر الدون بدرو جاءت إلى مريمة في غير موعدها الأسبوعى الذى تتسلم الكعك فيه، قالت:

– الدُنيا بلانكا تريد أن تراك ياخالة مريمه .

– ترانى أنا؟!

– نعم.

– وما الذى تريده منى؟

– لا أدرى!

– لم يطب لها الكعك؟ صنعته بنفس الطريقة التى أصنعه بها كل مرة.

تبعت فضة وهى حائرة، قلقة. وعندما دخلت البيت أدهشها إتساعه وفخامة أثاثه ولكنها لم تنصرف إلى ذلك سوى دقائق معدودة إذ رأت الصورة. كادت تقفز للوراء وقد بدا لها انها دخلت بلا وعى منها غابة صيد تزدحم بالصيادين والكلاب. لم تكن قد شاهدت صورة بهذا الحجم أبدا. يقولون إن في الكاتدرائية صورا كبيرة للسيدة مريم، وللسيد المسيح، ولقديسين آخرين، لكنها لم تدخل الكاتدرائية، والسمع غير الرؤية بالعين.

عادت إلى الدار فوجدت حسن ونعيم في انتظارها:

– ما الذى قالته لك الدُنيا بلانكا، ما الذى تريده منك؟

– تقيم وليمة، وتريد أن أعد لها طعاما عربيا!

قال نعيم:

– رفضت؟

قال حسن

– كيف ترفض؟ الدون بدرو يعمل في المستشارية، سيعتبر رفضها إساءة.

قالت مريمة:

– رأيت لوحة مصورة بعرض الجدار فيها وعلٌ جريح، وصيادون وكلاب!

– قبلت أو رفضت؟

لم تجب مريمة، تركتهما وانهمكت في لملمة الملابس المتسخة، وسخنت ماءً، وتربّعت أمام طستها النحاسى وراحت تدعك وتشطف وتعصر. هل تذهب إلى أم يوسف لتحكى لها عما رأته؟ الصورة صورة، ليست نجما له إشاراته المرصودة، ولا رؤيا يفسرها العارفون. ستسخر أم يوسف منها وتقول: "ليس الوعل الذى رأيته سوى تمثيل لمشهد صيد، كيف تخلطين بينه وبين رؤيا خصك الله بها في المنام؟" هل هو الوسواس يريد أن يتوهها فلا تميز بين الحقيقة والكذب، والصدق والأوهام؟ نشرت مريمة الغسيل وبقى قلبها ثقيلا ومتطيرا.

أعدت طعاما مناسبا لحرارة الطقس: خبز وزيتون ولبن رايب وخس. أكلوا، فرفعت ما تبقى من الطعام. جف الغسيل على الحبال فجمعته في سلة وجلست في الرواق. ليست الصورة مجرد مصادفة بل لعلها إشارة أن الله في علاه سيجعلهم يتمادون في جبروتهم حتى يظنوا أنهم تمكنوا، ثم تدور عليهم الدوائر ويصبح المغلوب غالبا كما سجل الله في لوحه المحفوظ، ورأيت بعينىّ في المنام.

– يا على، إذهب إلى دار الدون بدرو وقل لفضة أن جدتى سقطت في الطريق فانكسر ذراعها الأيمن، ولن تقدر على صنع الطعام المطلوب، ولا حتى الكعك المعتاد.

– لماذا ياجدتى؟

- إفعل ما أطلبه منك.

ذهب علي في مهمته وأحست مريمة، وهي جالسة في ظل الرواق ترتق ما يحتاج الرتق من الملابس المغسولة، بارتياح، فراحت تترنم بالغناء.

حملت الملابس المطوية، وأودعتها الخزانة والصندوق. ثم خرجت إلى الباحة وملأت الدلو من البئر وسكبت ماءه، ثم عادت وملأته وسكبت، ثم أمسكت بمقشتها وأخذت تنظف الأرض وهى تغنى.

لم تكن قد انتهت حين اندفع على عائدا من مهمته:

- جدتى، أصرت الخالة فضة أن تأتى معى للاطمئنان عليك. تركتها عند أول الحارة وجئت ركضا. ما العمل الآن؟ ستقول اننى كذّاب!

هرولت مريمة إلى حجرتها واستقرت على فراشها وعلى يواصل في اضطراب:

- تقولين إن الكذب عاقبته سيئه، وها نحن في العاقبة، ماذا نفعل؟!

سمعا فضة وهى تصفق بيديها وتقول : "يا أهل الدار"

- قل لها تفضلى، هنا في الغرفة.

دخلت فضة فوجدت مريمة متربعة على فرشتها، تسند ذراعها الأيمن على وسادتين وضعتهما واحدة فوق الأخرى.

- بعد الشر عنك ياخالة مريمة.

تأوهت مريمة:

- أمر الله!

- ما الذى حدث؟

- غادرتكم مسرورة بثقة الدُنيا بلانكا وتكليفها لى بإعداد الطعام لوليمتها. وكنت منهمكة في التفكير فيما يلزمنى لصنع الأصناف المطلوبة فزلت قدمى، قلت: آ ... ه! وسقطت على ذراعى الأيمن. وأى ألم يا فضـة، كأنها النار صُبَّت في ذراعى صبا. بقيت مكوَّمة على الأرض حتى استجمعت قوتى، واستعنت بيدى اليسرى، وتحاملت على نفسى وقمت واقفة، وواصلت طريقى.

– ولم تذهبى بعد إلى من يجبرٌ لك ذراعك؟

– سأذهب.

– قومى، سأذهب معك.

تنهدت مريمة:

– سيأخذنى أبو هشام إلى مجبر يثق فيه ويعرفه منذ زمن، في عين الدمع.

– عين الدمع ... بعيدة!

همست مريمة وهى تبتسم:

– أصرّ أبو هشام على ذلك. مازال، بعد كل هذه السنين ، يغار على. لن يقبل برجل غريب يرى ذراعى مكشوفة ويمسك بها.

ضحكت فضة فضحكت مريمة ثم تذكرت ألم ذراعها فتأوهت، ثم نادت علياً، وهمست في أذنه فركض الولد إلى المطبخ. وعاد حاملا صحنا فيه كعك، وكوب ماء بارد أضاف إليه، كما أوصت مريمة، نقطتين من ماء الورد.

كانت فضة امرأة سمراء من نسل عبيد متوارثين، وافرة القد، طويلة، لها وجه منحوت القسمات جميل يميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ووشم قديم على الشفة السفلى.

قالت مريمة لنفسها إن فضة طيبة القلب وعطوفه ، ولو كان الأمر يخصها لما كذبت عليها. اختلاق الوقائع على من يتوجس المرء منهم ويخشى أذاهم حلال وضرورى، أما الطيبون من أمثال فضة فلا داعى لكتمان الحقيقة عنهم لأن ذلك لا يضيره ولا يضيرهم. ليست فضة هى المقصودة بل سيدتها.

كانت مريمة قد تعرفت بفضة حين جاءتها لاستلام ما طلبه دون بدرو من الكعك. وبعد زيارتين أو ثلاث نمت الألفة بينهما فحكت لها فضة حكايتها. قالت:

"نحن في الأصل من بلاد السود جاء منها جدنا الأكبر، وكان صبيا في

العاشرة من عمره حين سرقه تجار العبيد، ونقلوه إلى غرناطة، وباعوه للملك من ملوكها، فعاش كما عاش أولاده من بعده في الحمراء يخدمون في قصورها. وللمخرج آخر ملوك المسلمين من غرناطة قال "لا غنى لى عن جمال" وجمال هذا هو جدى، وتقول جدتى انه سُمّى بهذا الإسم لأنه كان يفوق كل أترابه حسنا. كان بهى الوجه، له عود سمهرى، وصوت عذب، ويغنى. أخذه الملك مع من أخذهم من العبيد ساعة الرحيل أما جدتى وأمى - وكانت ابنة عامين - وخالى الذى ولد بعدها بثلاثة شهور فأصبحوا من الغنائم، وصاروا ملكا لعائلة دون بدرو إذ كان جده من الفرسان الذين شاركوا في الحرب . تزوجت ابن خالى وعشنا في أمان الله، ولم يكن دون بدرو يضن علينا بالطعام أو يضربنا أو يثقل علينا بما لا نطيق من العمل الشاق. ولكن ابن خالى كان معتدا بنفسه، يظل يكرر: "لا أريد حياة العبيد" أهدّئه وأقول: "لا نملك سوى هذه الحياة، قسمها الله لنا فلنعش ولنقبل بالمقدر لنا من النصيب" لم يقبل، تركنى وترك ابنه وهرب. انتظرت شهورا ثم أعواما لعله يعود أو يرسل لى بمن يخبرنى عن مكانه، ثم لم أعد انتظر. والحمد لله على أى حال، عندى فيديريكو ، والولد، يا خالة مريمة، نعمة من نعم الله على الإنسان. ودون بدرو أقل شراسة من غيره من الأسياد. تتلبد السماء بالغيوم أحيانا وتظلم، ولكنها أيضا تشرق في أحيان أخرى ... أليس كذلك ؟!

استعادت مريمة ما قالته فضة في ذلك الحديث الحميم الذى دار بينهما منذ شهور، وتطلعت إلى وجه المرأة الجالسة بجوارها فوجدته عذبا وقويا وخاليا من كل مرارة فتساءلت كيف؟!

- ٨ -

مّر بهم نعيم ذات يوم فألقى عليهم التحية. ردوا تحيته ودعوه لمشاركتهم جلستهم. كانوا يقاربونه في العمر، منهم من تجاوز السبعين مثله، ومنهم الأصغر قليلا، يلتقون يوميا حين تنكسر حدة الشمس فتميل إلى الغروب، يقرفصون في زاوية من ساحة سان سلفادور، يأتنسون بالحديث وبمتابعة حركة الرائحين والغادين.

حين تضيق بنعيم الجدران أو يتشاجر مع مريمة أو حسن يذهب إليهم، يقرفص بجوارهم صامتا، ينصت لكلامهم أو لا ينصت، يحشو غليونه بأوراق التبغ، وينفث منه الدخان.

في ذلك المساء، وعلى غير عادته، تحدث نعيم. كانوا يتكلمون عن القرار الجديد الذى يقضى بتسليم أى كتب لم يسبق الإبلاغ عنها. قال نعيم:

- أنا شاهدت حرق الكتب. كنت صبيا صغيرا أعمل عند أبى جعفر الورّاق، وكان أبو جعفر، رحمه الله، رجلا بلا مثيل، ربانى وعلمنى تغليف الكتب. كانوا يأتون له بالأوراق مفروطة قد تتطاير مع أول هبة ريح فيرتبها، ويخيط كعبها، ويصنع لها غلافا ينتقى خامته بحرص. يخرج الكتاب من بين يديه مغلفا بجلد ملمسه كالحرير، أخضر حشيشيا، أو قرمزيا أحمر، أو أزرق كصفحة البحر الكحلى الصريح، مزينا بنقش العنوان ومنمنمات الزخارف. ثم جمعوا الكتب وأحرقوها في باب الرملة. أحرقوا كتبا كثيرة، ولكن الوراقين عرفوا بالخبر قبلها

فأنقذوا الكثير من الكتب أيضا. هرّبنا الكتب في الصناديق والأجولة والسلال، نقلناها في السر إلى الأقبية، والكهوف، والمخابىء .

– قبل بضع سنوات اشترى رجل من القشتاليين بيتا قديما وشرع في هدمه لكى يبنى مكانه. وذات صباح والعمال يضربون بمعاولهم في جدار تساقطت مع الأحجار الكتب والأوراق. وجاء موظفو الديوان، وتحرزوا على الكتب، وقبضوا على بائع الدار فأنكر الرجل التهمة وقال إنه ولد بعد قرار منع الكتب بأكثر من عشرين عاما، وقد يكون جده أو أبوه، وكلاهما رحل منذ سنين، هو المسئول عن إخفاء الكتب.

– ما نفع الكتب الآن، لم يعد أحد يعرف العربية!

– أنزل الله القرآن باللغة العربية وسيحفظها لأنها لغة كتابه، وهذه الأيام الصعبة ...

لم يعد نعيم يتابع الكلام، شرد ذهنه ثم قام. قال:

– تصبحون على خير.

سار في اتجاه البيت ولكنه ما ان انعطف إلى مدخل الحارة حتى سمع من يناديه، التفت ، كان أحد الرجال الجالسين في الساحة قد لحق به.

– هل لى أن أقصدك في خدمة؟

– خدمة؟!

– لدى مخطوط أخشى عليه من التلف وأريد تجليده.

– إحضره لى فأغلفه لك.

– ولكن ...

– لا أريد منك أجرا

– ليس هذا ما أقصده. أرجو أن تراعى الكتمان فامتلاك مخطوط من هذا النوع قد يودى بصاحبه إلى التهلكة.

- اطمئن ، سأحفظ السر.

بات نعيم متوقدا بمهمته، منشغلا بما ينوى شراءه من مستلزمات: قطعة من الجلد، ومخراز ، وخيوط قوية ... وماذا أيضا؟

في الصباح حمل له الرجل المخطوط ملفوفا في ثوب قديم. ولما فتحه نعيم وفرّ الأوراق استغرب. لم يكن مخطوطا واحدا بل مخطوطات، بعضها لا يتجاوز ورقات معدودة، وتتفاوت في نوع الورق وحجمه والحبر المستخدم، ومنها المكتوب بخط جميل، ومنها المقروء بالكاد . قرر نعيم أن يؤجل عمله حتى يستجلى الأمر من صاحب الأوراق. في المساء خرج إلى الساحة وانتحى بالرجل جانبا وسأله، فقال:

- هذا كل ما أملكه من أوراق، بعضها ورثته عن أبى، وبعضها اشتريته، ومنها ما نسخته بيدى. حين أضمها جميعا في كتاب واحد يسهل على حفظها وإخفاؤها أو حملها معى لكى أشارك الآخرين في الاستفادة بما فيها.

عاد نعيم إلى الدار ورتب أوراق المخطوط. جعل الآيات القرآنية في الأول، تليها الأحاديث النبوية ، ثم الأوراق التى تحمل أسئلة وأجوبة في أمور الدين، وأخيرا الأدعية والابتهالات . خيّط الكعب، وقص الغلاف وثبته في الكتاب بلصقه، ثم أمسك بالريشة ليكتب العنوان. توقف وجلا. أحضر ورقة وجرّب خطه. لو كتبت العنوان بهذا الخط أفسد الغلاف الجميل الذى صنعته، ما العمل؟ قصد حسن:

- هل خرجت مريمة إلى السوق؟

- خرجت.

- والصغير في المدرسة؟

- في المدرسة.

أتى نعيم بالكتاب والريشة والمحبرة.

- أكتب لى عنوانا لهذا الكتاب

– كتاب ... من أين لك به؟

حكى له. فرّ حسن الأوراق ثم قال:

– سأكتب لك العنوان ولكن عليك بالحرص الشديد وأنت تعيده لصاحبه وإلا وقعت معه في شراك الديوان.

كتب حسن العنوان ثم حمل نعيم الكتاب ولفه بنفس الثوب القديم وأخفاه في ردائه ومشى إلى الساحة. نادى الرجل فقام من بين الرجال الجالسين ثم سارا مبتعدين. ولما تأكدا من خلو المكان أبرز نعيم الكتاب في زهو فأخذه الرجل وأخفاه، وقبل رأس نعيم وقال:

– لن أنسى هذا المعروف أبدا.

من الذى أفشى السر؟ لم يقل نعيم سوى لحسن، وحسن مقعد في الدار لا يغادرها. هل أخبر مريمة فوشت بالأمر لرجال الديوان؟! وكيف عرفت مريمة اسم الرجل وكيف حددته من بين الآخرين؟

ألقى رجال ديوان التحقيق القبض على صاحب الكتاب. فهل شاهده أحد وهو يسلم لنعيم المخطوط أو يتسلمه منه؟ فلماذا إذن لم يقبضوا إلا عليه. يذهب نعيم كل يوم إلى الساحة ويجلس بين الرجال، يسأل:

– هل من جديد؟

– لا جديد!

بعد شهرين أفرج الديوان عن الرجل. قال إنه لا يعرف اللغة العربية، وليس الكتاب سوى ذكرى من والديه يجهل المكتوب فيه. وشهد قس الناحية أن الرجل صالح، يحضر القداس بانتظام، ولا يبخل بالمال المطلوب لخدمة الرب. اكتفى محققو الديوان بمعاقبته بمائتى جلدة ثم أخلوا سبيله.

وصل الخبر إلى الساحة قبل أن يظهر الرجل ليشارك الرجال جلستهم. ثم رآه

نعيم بعدها بيومين يتوسط حلقة الرجال فأقبل عليه منشرحا، ومال عليه ليحتضنه مهنئا بالسلامة. ولكن صاحب الكتاب مدّ يده على امتدادها وصافح نعيم كأنه يقصد ألا يقترب منه أكثر. ما الذى جرى ، كفّ الرجال عن الضحك وعن الكلام وتحاشوا التقاء العيون؟!

تركهم نعيم وعاد إلى الدار، وما أن دلف من الباب حتى اندفع كالسهم إلى حسن.

– يعتقدون أننى أفشيت السر. خنتنى ياكلب فوشت مريمة لرجال الديوان. لعنة الله عليك وعلى مريمة وعلى اليوم الذى أقمت معكما فيه!

كان وجهه محتقنا، وعروقه نافرة، وصوته يهدر بالصياح. وقبل أن يفهم حسن ما الحكاية أو يتغلب على دهشته من سلوك نعيم فيتمكن من الكلام كان نعيم قد صرّ أغراضه القليلة في منديل وحمله وغادر الدار وهو يكرر بلا توقف "نعيم لا يخون!"

هل يعود إليهم ويفهمهم إنهم مخطئون. لن يذهب، لا يرغب في صحبتهم أو معرفتهم أو رؤيتهم. أهانوه بالشك فيه فكيف يذهب إليهم بقدميه؟! لعنة الله عليهم جميعا وعلى غرناطة. لماذا عاد، هذه مدينة غريبة لا يعرف أحدا فيها سوى رجل وامرأته، ومريمة أحقر من زوجها. ليسوا أهله. أهله هناك وراء البحر، يحبونه ولا يرتابون فيه. غدا يركب أول سفينه مغادرة ويعود إلى أرضه هناك. يجد مايا وأولاده وأهله الطيبين. يعيش بينهم، ويموت بينهم فيبكون عليه ويدفنونه بجوار مايا وابنه هلال. ما الذى أتى به ليعيش هنا غريبا بين الغرباء؟ سيسافر وعندما يصل سيجد امرأة تشبه مايا ويتزوجها فتنجب له صبية عديدين. وستحيك له امرأته ثيابا جديدة. بليت ثيابه وكثرت الرقع فيها ولكن ما العمل ... هل يخلعها ويسير عاريا كالمعتوهين؟! حين يتزوج ستفصل له زوجته ملابس مطابقة لثيابه، ملابس

جديدة. ما إن يطلع النهار حتى يغادر هذه المخروبة غرناطة ويمشى إلى مالقة أو المرّية ويركب السفينة. سيتدبر أمر النقود. يعمل في السفينة أو يسرق متجرا على الطريق ويدبر اللازم من النقود ليعود إلى مايا وابنه هلال.

وجدته مريمة نائما في ظل جدار قديم. صرته تحت رأسه ، وشمس الضحى تقدح في السماء. فتح عينيه فرآها:

– لماذا أفشيت السر يا مريمة؟

– أى سر يا نعيم؟

– سر الكتاب!

– أى كتاب؟!

– الم يخبرك حسن؟

– أخبرنى أنك بالأمس عدت غاضبا إلى الدار وحملت أغراضك وذهبت. قلنا يعود بعد المغرب، ثم قلنا يعود بعد العشاء، وتأخر الوقت ولم تعد ولما أصبح الصبح اشتد بنا القلق . سرت في اتجاه، وسار على في اتجاه غيره، وذهب ابن فضة إلى ناحية ثالثة نبحث عنك ...

– أنا أسألك عن الكتاب؟

– اللهم طوّلك يا روح ، أى كتاب يا نعيم؟

– هل تقسمين على المصحف؟

– لماذا أقسم على المصحف؟!

– لن أعود إلى الدار إلا إذا اقسمت إنك لا تعرفين شيئا عن الكتاب الذى غلفته.

سايرته فقبل أن يمشى معها عائدا إلى الدار. ولكن عندما وصلا توقف بالباب وأصرّ أن تأتى بالمصحف وتقسم قبل أن يدخل.

- وهل هذا يعقل يا نعيم ،. ماذا لو مرّ غريب فرأى بين أيدينا مصحفا ؟!

حرن كالبغال فدخلت مريمة وجاءت بمصحفها الأخضر مخبأ في ثوبها ... وضعت يدها عليه وأقسمت ثم دخلت إلى الدار فتبعها.

-٩-

استبدت الشمس بالمدينة فسلّطت عليها قيظا على قيظ، الطرقات كالنار، والدور خانقة تشربت جدرانها بالحرارة فأطبقت على الأنفاس. وكان حسن يشكو من آلام في صدره وقدرت مريمة أن هواء عين الدمع يفيده.

تركوا البيازين وفي نيتهم أن يقضوا أسبوعين أو ثلاثة في عين الدمع ولكن حسن، بعد يوم واحد من وصوله، قال إنه يريد العودة إلى البيازين.

- ولكننا تركناها بالأمس!

- أريد أن أموت في البيازين !

- يا أبا هشام ستشفى وتقوم معافيا وبألف خير. لم نعرف صيفا بهذه القسوة، أتعبتك شدة الحرارة، وهواء عين الدمع، إن شاء الله، يشفيك.

بكى حسن وقال:

- بالله عليك يا مريمة أعيدينى إلى البيازين.

- بعد يومين أو ثلاثة نتفق مع مكارى ينقلنا إلى هناك.

- أريد العودة اليوم.

- غدا إن شاء الله.

- أريد أن أشرب من ماء النبع.

- ماء البئر بارد ولا ملوحة فيه، لحظة وآتى لك بالجرة.

كان نعيم يقرفص في جانب من الحجرة. وكان صامتا حتى أن مريمة نسيت أنه موجود. فاجأها بالكلام:

- لماذا تقسين على زوجك يا مريمة. يشتهى ماء النبع فلنعطه ما يشتهيه. يا على ... تعال.

قام نعيم وأتى بجرة فارغة وناولها لعلى.

- خذ هذه الجرة واذهب إلى النبع وعد بسرعة، لا تتأخر يا على.

كان وجه حسن شاحبا وكذلك وجه نعيم. أخذ على الجرة وطار إلى العين. لم تكن قريبة. كانت الطريق، حين يجد على من يذهب معه من الصبية فيلعبون قليلا ويتراشقون بماء العين قليلا، تستغرق نصف نهار. ولكن على أطلق ساقيه وظل يركض حتى وصل إلى العين وملأ الجرة ثم استدار وعاد أدراجه في الحال. لم يكن بإمكانه أن يركض في طريق العودة خشية أن تسقط الجرة فتنكسر، أو ينسكب ما فيها من الماء. سار بخطى حثيثة. قبل أن يصل الدار وجد نعيم واقفا ينتظر. حمل عنه الجرة ودخل على حسن وعاونه على الشرب منها.

أمضى حسن ليلته يئن. تسأله مريمة.

- ما بك يا أبا هشام، ما الذى يؤلك، لماذا تئن؟

يقول:

- أفرِّج عن نفسى يا مريمة :

ظل نعيم مقرفصا في الزاوية، شاردا ولا يتحدث.

- قم يا نعيم لتنام.

- لا أريد أن أنام.

في الصباح حملتهم عربة إلى البيازين. سأل حسن الحوذى :

- هل تأخذنا إلى بالينسية ؟

أجابه :

- بالينسيه بعيدة، آخذكم إلى عين الدمع.

بكى حسن، وقال إنه يريد أن يرى بناته، ذكرته مريمة أن أربعا من بناته رحلن منذ سنين إلى فاس ولم يبق في بالنيسيه سوى واحدة. ولكن حسن واصل البكاء.

صاح نعيم في مريمة :

– إنه يرغب في رؤية بناته، لماذا تحرمينه منهن؟!

خاطب الحوذى :

– لا تذهب إلى البيازين، خذنا إلى بالينسيه.

حدقت مريمة في نعيم. هل كان ينقصها كلام هذا المجنون ... كيف يذهبون إلى بالينسيه ولا يحملون تصريحا بمغادرة غرناطة ؟! هذا الحوذى فطن، ظل صامتا ولم يجب على مالا يعقل من الكلام . تطلعت إلى حسن. كان واهنا ، شاحب الوجه، يستند إلى كتف نعيم الذى كان يحيطه بذراعيه، ذراعه الأيمن حول كتفه والأيسر على صدره. قال نعيم فجأة:

– تعالى ما مريمة إجلسى مكانى.

قام وبقى منحنيا على حسن ممسكا به حتى جلست مريمة مكانه وأحاطت زوجها بذراعيها مثلما كان يحيطه.

خطى نعيم ثلاث خطوات أوصلته إلى مؤخرة العربة. أعطاهم ظهره وراح يحدق في الطريق التى يخلفونها وراءهم ويتحدث مع شخص لا أثر له. بدأ الحديث هامسا ثم صار مسموعا . وكان على يتطلع وينصت فلا يرى سوى ظهر نعيم وجزءا جانبيا من وجهه. أما ما يقوله من كلام فلم يكن مترابطا ولا مفهوما . ثم بدأ نعيم يحرك ذراعيه كأنه يتعارك مع الفضاء أو يدفع عن نفسه طيورا جارحة تنقض عليه.

في الأسابيع التالية صار حسن يخلط بين مريمة وسليمة، ويسمى نعيما سعدا ، ويتطلع إلى على بنظرة حائرة متسائلة كأنه لا يعرفه ، ولم يره أبدا من قبل. ثم عاد لا يتعرف على أحد من أهل الدار، يوما ونصف يوم، ثم مات.

قالت مريمة لنعيم:

- ألن تودع صاحبك إلى قبره؟!

كان يقرفص تحت شجرة التين. جاء الرجال وغسلوا حسن وكفنّوه ونعيم منكمش في مكانه لا يتحرك .. كررت مريمة عليه السؤال. قال:

- لن أدفن أحدا من أهلى بعد اليوم.دفنت زوجتى، ودفنت ابنى، يكفى!

- وهل ماتت زوجتك يانعيم؟

قفز كالمسوس وعلا صوته:

- أقسم بالله أننى لم أر امرأة أكثر منك غباءً. اتركينى.

انهمرت دموع مريمة وأمسكت بيد على وخرجت خلف حسن لتودعه إلى مثواه الأخير.

لم تملك مريمة أن تحزن على موت زوجها في هدوء. كان نعيم موتورا وساخطا، كل ساعة يصيح ، وكل يوم يتشاجر ، هل تطرده من الدار؟ أين يذهب وهو شيخ مهدّم على مشارف الثمانين؟ ما العمل إذن ولم تعد تطيق الحزن وفوقه نعيم؟

لم تكن أربعون الحداد قد انقضت ولا صورة حسن غابت من حجرته ولا رواق الدار عندما انتبهت مريمة من نومها على صوت طفل رضيع. ترى ابن من من الجارات هذا الذى يبكى؟ كان الصوت قريبا كأنه يأتى من داخل الدار. حاولت مريمة أن تنام ولكن تواصل البكاء. من أين يأتى الصوت؟ خرجت إلى الباحة ثم دخلت غرفة نعيم.

- بسم الله الرحمن الرحيم، ما هذا يا نعيم؟

كان نعيم يحمل رضيعا يهزهزه، والصغير يبكى بحرقة على طريقة المواليد.

- ابن من هذا الوليد يا نعيم؟

- وجدته!

- أين وجدته؟

أشاح بيده ولم يجب على سؤالها.

انهمكت مريمة في العناية بالصغير. غلت له منقوع الكراوية وشرّبته له . ثم أتت بشرشف قديم ومزقته واستخدمت جزءا منه قماطا بدلا من القماط المبلل. ثم هدهدت الرضيع حتى نام.

- أين وجدته يانعيم؟

لا يجيب .

انتظرت مريمة طلوع النهار ثم خرجت لتستعلم من نساء الحى. كانت المرأة التى فقدت طفلها قد عادت إلى دارها مهدودة باكية بعد أن طافت بأزقة البيازين وخرج زوجها للسؤال في حوارى غرناطة ثم أستأجر مناديا دار في كل مكان يعلن ضياع طفل رضيع لعل أحدا ممن يسمعه، وجده أو رآه.

عادت مريمة مهرولة إلى الدار. لا حول ولا قوة إلا بالله. فقد نعيم عقله نهائياً وامتدت يده لسرقة طفل وليد. ما الذى تقوله لأمه، ولأهل الحى؟ الحقيقة، كيف؟ هل تفضح الرجل في آخر عمره، وتفضح نفسها؟

كان نعيم يغط في نوع عميق والصغير نائما بالقرب منه.

حملت مريمة الولد وعادت تهرول قاصدة بيت الأم.

- أين وجدته ياخالة مريمة؟

كان الأب هو الذى يسأل، أما الأم فكانت منهمكة في تحسس وليدها، وتفقد كل جزء فيه، والبكاء.

- نعيم أسعده الله، وجده يبكى على دكة حجرية في الطريق. وبالقرب منه رأى صبية يلعبون. سألهم "ابن من هذا يا صغار؟". قالوا: "لا ندرى" الأشقياء حملوه دون أن تنتبه أمه. وبخّهم نعيم وصاح فيهم فاعترف له صبى منهم انهم حملوا

الوليد ليداعبوه، وكانت أمه جالسه بالقرب منه تثرثر مع امرأة أخرى ... ساروا بالصغير مبتعدين فلم تنتبه ولا هم انتبهوا إلى أنهم ابتعدوا. ولما بكى الولد عادوا به إلى حيث كانت تجلس أمه فلم يجدوها. بحثوا عنها ثم ملوّا البحث فوضعوه على الدكة وانصرفوا إلى اللعب.

حمل نعيم الصغير وظل يسأل ، والولد بين يديه يبكى، ثم عاد به إلى البيت، وقال لى: «اطعميه يا مريمة وغيرى له أقمطته المبللة والصباح رباح» .

شكرها أهل الطفل ودعوا لنعيم بطول العمر والصحة والعافية والسعادة في الدارين لأن الله لا يضيّع أجر من أحسن عملا.

عادت مريمة إلى البيت منهكة راضية لأن الله ستر ولكن نعيم كان ينتظرها في باحة الدار متهيجا كالثور المذبوح. سبها وقال إنها سرّاقة، سرقت طفله هلال، ثم غادر البيت وهو يلعنها ، ويلعن غرناطة ، ويقول انه راحل إلى بلاده هناك حيث زوجته وأولاده.

قررت مريمة أن تأخذه إلى البيمارستان تقول للقائمين عليه إن الرجل مجنون، وإنها لم تعد قادرة على رعايته. ولكن نعيم عاد في المساء وكان هادئا يتحدث ويسلك كالعقلاء فقالت: لا يصح أن ألقى به في البيمارستان بين المجانين. كرامة لسعد أبقيه في الدار وأتحمله وأرعاه.

بعد أسبوعين مات نعيم. لم يمرض فلم تقم مريمة بتمريضه وإطعامه، ولا بتحميمه بالماء الدافئ وتبديل ملابسه كلما قضى حاجته في ثيابه، كما كانت تفعل لحسن.

كان الطقس على حاله خانقا وحارا. تناولوا عشاءهم زيتا وزيتونا وهم جالسون في باحة الدار. قام نعيم فجأة وخطا مبتعدا عن الحصيرة، مال بجذعه وأفرغ ما فى جوفه، ثم عاد وتمدد على الحصيرة بالقرب منهم وتمتم "يكفى ...يكفى!" قامت مريمة لتغلى له أوراق النعناع. ولما عادت وجدته نائما فلم توقظه.

أخذت تتحدث مع على بصوت خفيض، ثم غلبها النعاس. نادت على نعيم لينتقل إلى فراشه، لم يجب. هزته، ونادت بصوت أعلى ثم أطلقت صيحة ملوّعة.

توافد الجيران على الدار، وانهمكوا فيما يجب عمله. وانكمش على مقرفصا تحت شجرة التين يفكر في نعيم الذى مات أمام عينيه وهو نائم بالقرب منه، يرتدى نفس الملابس الغريبة العتيقة التى رآه فيها يوم جاء من السفر. ثياب رثة لا تنتهى مريمة من رتقها وترقيعها. تشترى له غيرها فيتعلل أنها واسعة أو ضيقة، أو صارخة اللون لا تليق برجل في عمره، أو قاتمة اللون تجثم على الأنفاس وتقبض القلب. ذهب نعيم بثيابه وغليونه ورائحة الدخان، وحكايته الطويلة الواحدة التى تتسلسل أجزاؤها المرة بعد المرة. لم يكن ما يقصه عليه نعيم يشبه حكايات مريمة. كان يقص حكايته منذ مد له رجل أزرق العينين، فارع الطول، يده، وسأله: "ما اسمك يا ولد؟" واصطحبه إلى داره وطلب من زوجته أن تحممه، واطعمه، وعلمه دباغة الجلد وتغليف الكتب. كان كل فصل من فصول حكايته يصور بشرا وأماكن ووقائع رأتها عيناه وعاش تفاصيلها. حدثه عن سعد الذى أتى من مالقة، وسليمة وهى تقرأ في الكتب وتداوى أوجاع الناس. حكى عن غرناطة العرب، وعن قرية على شاطئ بحر محيط مكسوة بأخضر نباتات كثيفة إن تقارن غرناطة بها تبدو لك غرناطة قاحلة جرداء، أمطارها وبلٌ وسيول تجمّع في اليوم الواحد ما يهطل على الأندلس على مدار العام. هناك في القرية، يقول نعيم : له زوجة وأطفال ثلاثة ولدوا في ليالى مقمرة فسمى أولهم هلالا والثانى بدرا والثالثة دعاها بقمر. "ولماذ تركت أولادك هناك ياجدى نعيم؟" "غدا أحكى لك" ولكنه في اليوم التالى يحدثه عن فصل آخر من فصول الحكاية.

-١٠-

عرض إرناندو بن عامر على مريمة أن يُشغل حفيدها في متجره ويدرّبه على الحرفة مع إبنه خوسيه. وقال إنه لا يرى ضرورة في استمرار على في المدرسة الإرسالية: "صار الولد في الثالثة عشرة من عمره وحان الوقت الذى يعولك فيه بدلا من أن تعوليه." ثم قال وهو يستعد للإنصراف:

– إطمأنى يا أم هشام سأرعى عليا رعايتى لإبنى.

شكرته ورافقته إلى الباب ثم حسمت أمرها وقالت:

– هل أطمع في مزيد من كرمك يا أبا خوسيه؟

– أستغفر الله يا أم هشام، انتم أصل الكرم وجميلكم أسبق.

– لى صديقة اسمها فضة تخدم في بيت الدون بدرو المتنفذ في مستشارية غرناطة، ولها إبن يكبر عليا بعامين وهى تبحث له عن عمل.

– ليأت مع على فأراه وأقرر إن كان يصلح للعمل عندى.

شكرته مريمة مرة أخرى وودعته وهى تدعو له بطول العمر، وموفور الصحة، والبركة في المال والعيال. وكانت دعاواتها له من قلب القلب إذ كان الرجل يقدم مع كل يوم دليلا جديدا على كرم أخلاقه، ولم ينس بعد كل هذه السنين أن سليمة، في يوم بعيد من الأيام، شفت أمه من مرض هدد حياتها. فلما قامت معافاة امتدت أواصر الودّ بين دار بن عامر ودار أبى جعفر، وحفظ إرناندو، بعد موت أبيه وأمه العهد فلم يقصر يوما في فرح أو أحزان، يزورهم في الأعياد والمواسم، ويقدم واجب التهنئة والعزاء كلما توجب هذا أو ذاك.

أعطاه الله بقدر صفاء نيّته ، وأنعم وتفضّل. ورث إرناندو عن أبيه ثروة ضاعفها فصار من أثرياء البيازين، يملك فضلا عن الدار التي يسكنها ثلاث دور أخرى وطاحونتين وأربعة متاجر، ثلاثة منها في السقاطين وواحد في الصنادقية يدير منه عمله وتجارته. وكان من بين قلة من العرب القادرين على الاحتفاظ بخدم في بيوتهم. كانت داره بخدمها الأربعة، وكرمتها الغناء، والحصانين الأصيلين اللذين يستبدل ركوبهما ، شاهدة على يسره ومكانته.

قالت مريمة لعلى:

– مبروك يا على. غدا تذهب إلى العمل وتخطو أول خطواتك على طريق الرجال.

قال:

– أحب أبا خوسيه ولكنى لا أطيق خوسيه، إنه مقرف وثقيل الظل.

– ستقربكما رفقة العمل فتأتلفان وتتصادقان.

حين أصبح الصبح خرج على قاصدا عمله الجديد. لم يتجه يسارا ليخرج من الحارة بل مشى في الاتجاه المعاكس حيث دار إرناندو بن عامر. رفع ذراعه وأمسك بالسقاطة وطرق بها الباب، وانتظر آملا أن تفتح له وردة فيصطبح بوجهها، ويتبادل معها ولو كلمات قليلة عابرة. فتح خادم الباب فسأل على عن خوسيه ، ولم ينُبه سوى صحبة ثقيل الظل حتى وصلا إلى رصيف حدرُه حيث دار الدون بدرو. طرق على الباب الجانبى الصغير الذى يفتح على مسكن الخدم فخرج إليهم ابن فضة، فتوجهوا إلى السوق.

كان متجر إرناندو بن عامر يقع في حومة من الحومات المتفرعة من سوق الحرير بالقيصرية، حارة ضيِّقة تصطف على جوانبها حوانيت المصنوعات الخشبية والصناديق المعروضة لا تترك للسائرين في الحارة سوى ما يسمح بمرور شخصين متكاتفين.

قابلهم إرناندو في الحانوت، ثم انفرد بابن فضة يسأله ويتحدث معه، ثم قاد ثلاثتهم عبر باب خلفى إلى فناء مربع واسع يعمل فيه النجارون، ينشرون ويخرطون ويدقون أو يحفرون على الخشب أو يطعمونه بالصدف أو العاج. أسلمهم إرناندو إلى كهل أسمر قال إن اسمه صدِّيق وانه سيباشر تعليمهم.

في ذلك اليوم الأول علمهم صدِّيق تمييز أنواع الخشب، خشب الجوز، والبلوط، والصنوبر، والأرز والزان، وما يختص به كل نوع من الصفات والمزايا، كما سمح لهم بأن يعمل كل منهم المنشار في قطعة من الخشب، وأن يدق بعض المسامير موجها للطريقة المثلى التى تحول دون انثناء المسمار أو سقوط المطرقة على الأصابع.

أقبل على على الذهاب إلى عمله، وواظب على المرور بخوسيه كل صباح لعله يرى ورده. يمر يومان وثلاثة وأحيانا أربعة دون أن يراها، ثم تفتح الباب فتتعلق عيناه بوجهها، وتتسمر قدماه في الأرض، وينعقد لسانه. كانت هى أيضا قد كبرت وبقى وجهها وضاءً وعيناها سوداوان يعلو هما حاجبان ثقيلان سوادهما من سواد شعرها المموج الكثيف. ابتسامتها ترد الروح، ولكنها كالحلم الجميل تختفى في لمحة عين ، تقول : "صباح الخير يا على، كيف حال جدتك، سأنادى خوسيه" وتذهب ركضا. لماذا تذهب ركضا؟! ويلازمه خوسيه من الصبح حتى المساء فيتناساه حتى ينساه. يتحدث مع صدِّيق أو ابن فضة، وينهمك في حرفته الجديدة، ويكتشف مع كل يوم المدهش والمثير. ليس خرط الخشب وتثبيته بالمسامير أو الغراء بل العمل الدقيق المنمنم الذى يراقبه بعينيه وكأنما تركزت فيهما حواسه الخمس. يتحرق أن يسمح له صدِّيق بأن يقوم بمثله: الزخرفة بالحفر حفرا مائلا أو مشطوفا فتتشكل على الخشب فروع أو خطوط أو رسم نخلة أو أسد أو طيران متقابلان.

أحب على عمله، ثم احبه أكثر لمنزلة هبطت عليه ذات يوم، مصادفة.

كان صدِّيق قد تلقى رسالة من ابن عم له في تونس، أمسكها وأخذ يقلبها ويلعن الزمان الذى جعله يجهل لغة أجداده، قال:

- لا أحد منا يقرأ العربية ولا حتى إرناندو!

قال له على:

- هاتها أقرأها لك.

حدق فيه مصعوقا.

- وهل تقرأ العربية؟!

- أقرأها.

- ومن علمها لك وأين ومتى؟

- علمها لى جدى أبو هشام رحمه الله.

سرى الخبر همسا في الحانوت، ثم في حارة الصنادقية فعلم به بعض تجار القيصرية العرب فصاروا يطلبون منه أن يكتب لهم رسالة لقريب في فاس، أو ابنة في تطوان، أو صديق في تونس. وأحيانا يدعوه أحدهم إلى داره ليطلعه على كتاب قديم، أو حجة أرض أو عقار، أو أوراق ورثها عن أبيه أو جده ويعرف في الغالب مضمونها ويحفظه حفظا ولكنه يريد أن يتيقن أن الذاكرة بخير لا تخون.

يذهب على إلى عمله ويعود منه فيرى قبل أن يصل البيت الورد الدمشقى متفتحا نضرا، يُزين حافة النافذة المطلة على الحارة. ووراء الورد وجه جدته، متغضنا، وساهما، وينتظر. يشاركها العشاء، ويحكى لها بعض تفاصيل يومه، ثم يدخل لينام فيحلم بوردة فيخرج في الصباح آملا في لقائها. يراها فينشرح صدره أو لا يراها فيمضى كسير الخاطر. ولكن التلة تراوده بمتعة الركض في المنحنى، وتلجِّم خطوته هيبته الجديدة. مادام فتى أوشك على إتمام عامه الرابع عشر، يسعى سعى الرجال ويعول جدته، ويكتسب مع كل يوم مهارات جديدة تجعل صدِّيق يثنى عليه، ويشيد بفطنته ودقته.

بعد عام واحد من التحاقه بالعمل عاش على فرحة أول صندوق صنعه بيديه. صندوق خشبى صغير لا يزيد ارتفاعه عن شبر صنعه من خشب الجوز وزين غطاءه وجوانبه بكسوة من رقائق النحاس المفرغة بأشكال نباتية.

قص شرائط من رقائق النحاس المطروق، لا يزيد عرض كل شريط منها عن عقلتي الأصبع وتتفاوت أطوالها بطول الصندوق وعرضه وارتفاعه. وانهمك أياما في تفريغ النحاس بزخرف نباتي وحفر قليل، وعندما انتهى من ذلك ثبت الشرائط لتصبح إطارا لغطاء الصندوق وواجهته. وزين مستطيل الخشب داخل كل إطار بثلاث وحدات كالورد، قوام كل وحدة منها خمسة مسامير نحاسية تتجاور رءوسها مُقببّة مدورة ، ومن المسامير نفسها صنع إفريزا مستقيما ينثني على شريط النحاس ويفصل بينه وبين مستطيل الخشب. أنجز ذلك على غطاء الصندوق ثم كرره على واجهته.

حين انتهى من عمله قفز في الهواء كالممسوس ثم ضحك، ثم تأمل الصندوق ، هل هو فعلا جميل؟ أربكه السؤال لحظة، اضطرب، ثم صاح: إنه جميل! وحمله وطار به ليفرج كل من يعملون في المكان. صحيح إنه قلد صندوقا آخر أكبر حجما في المتجر، واستعان بصدِّيق كلما واجهته مشكلة، ولكن الصندوق كان من صنع يديه بالكامل منذ كان قطعة من الخشب المصمت، ورقيقة من نحاس ومسامير مفروطة، إلى ذلك الشيئ البهيج الذى لا يمل تأمله أو التحدث عنه.

ولما وضع إرناندو الصندوق على قطعة من المخمل الأخضر وعرضه في مدخل المتجر امتلأ على زهوا وانتشاء وألحت عليه الرغبة في ان يطير بالصندوق ليريه لجدته ولوردة ولأنطونيو وأيضا للجيران. أراد أن يطلب ذلك من إرناندو ولكنه استحى.

-١١-

لم يرصد على بوادر العاصفة ولا التقط علامة تمهد، حتى في ذلك اليوم الأول من العام الجديد حين شق موكب القضاة المدينة يسبقهم قارعو الطبول، ونافخو المزامير، وحاملو الأعلام القشتالية. أذاعوا المرسوم على الناس وعلقوه في ساحة باب الرملة. وكان المرسوم يقضى بحظر استخدام اللغة العربية في الكتابة والتخاطب، في المحافل والبيوت، ويمنع الاحتفاظ بالألقاب العربية، واللباس العربى، والحمامات العامة، والرقص والغناء، وكل العادات المرتبطة بأبناء العرب. ويقضى بترك أبواب الدور مفتوحة في أيام الأعياد والخميس والجمعة ضمانا لالتزام الناس بنبذ المحظورات.

بدا لعلى أن القانون مجرد محاولة لتجديد القوانين القديمة التى كثيرا ما كان يشير لها جده وجدته والتى لم يعد أحد يلتزم بها. ولكن المرسوم آثار بين تجار الصنادقية والعاملين بها قلقا وتوجسا، واضطربت مريمة اضطرابا شديدا عند سماعها به، وراحت تسأل على عن تفاصيله وتعلن عن استيائها ثم تعود تستفسر: "كيف يقول المرسوم أن على نساء غرناطة أن يكشفن وجوههن؟! نساء المدينة سافرات منذ أجيال، حتى جدتى لم تكن تغطى وجهها، ونساء القرى محجبات فأى أذى يلحقه حجابهن بالملك؟!" "الثوب الحرير لا يبلى في عام واحد والثوب الصوفى يدوم عامين وثلاثة وأحيانا أربعة، ولى ملف صوفى استخدمه من عشر سنين. فكيف لا يسمح لنا المرسوم إلا بعام واحد لاستخدام أثوابنا الحريرية، وعامين

للأثواب الصوفية؟!" "أنت تتقن القتشالية ولكنى لا أتقنها وحين أتحدث بها أشعر انني بنصف لسان، فكيف أتحدث معك هنا في دارى بلغة غير لغتى؟!" "ما الذى نفعله في رمضان هل نغلق الباب علينا، رغم الحظر ساعة الإفطار، أم نؤجل إفطارنا إلى ما بعد العشاء ونتناوله سرا بعد أن نغلق أبواب الدار ساعة النوم؟!"

لا تتوقف مريمة عن الاسئلة، ويضرب إرناندو بن عامر كفا بكف وهو يعيد على العاملين معه ما قاله أوروتسكو راعى كنيسة سان سلفادور حين دعى أعيان غرناطة والبيازين: "طلب منا أن نقنع الأهالى بضرورة الطاعة لأن الملك يريد ذلك، ولأن العصيان ليس من صالحهم. وقال إن قيامنا بهذه المهمة يكسبنا لدى الملك حظوة. وألمح إلى ما قد يغدقه البلاط علينا من مناصب وتشريفات إن قمنا بالمطلوب. فقلنا له إن أحداً منا لا يجرؤ على ذلك فالأهالى غاضبون وسيرجمون بالحجارة كل من يدافع عن هذا المرسوم".

يضرب إرناندو بن عامر كفا بكف ويسب أوروتسكو وملوك الروم، وملوك المسلمين، والزمن الجائر الذى ولى هؤلاء وأولئك. ولكنه بعد يومين دخل المتجر وبدا مستبشرا، وقال إن الوجهاء قد كلفوا مولاى فرا نسيسكو نونييز بالتظلم باسم الأهالى لرئيس المحكمة العليا، وإن الرجل كتب رسالة بليغة ستقنع السلطات وتحل المشكلة.

شاع أمر الرسالة في الصنادقية والقيصرية والسقاطين والأسواق المجاورة، ثم عرفت تفاصيلها من صديق مقرب من فرانسيسكو نونيين، قرأها بنفسه مرتين، فنقلها عنه الناس ثم تناقلوها.

بشر على جدته وقال لها إن كل من في السوق من أولاد العرب مستبشرون خيرا بمسعى الرجل ورسالته.

– قل لى ما الذى كتبه الرجل في رسالته.

– قال إن الملابس التى ترتديها نساء العرب ملابس شعبية شاعت بينهن ليس لأنهن مسلمات بل لأنها محلية ترتبط بالأرياف والمناطق التى يعشن فيها.

– وما الذى يعنيه هذا الكلام؟

– يعنى أن نساء العرب تعودن على هذه الملابس وان ارتداءها جزء من طريقتهن في الحياة.

– صحيح، وماذا أيضا؟

– وقال إن نساءنا يحتفظن بثيابهن من العام للعام وأحيانا لسنوات متصلة ولا يملكن شراء ملابس جديدة.

– هذا ما قلته لك، ألم أقل لك هذا الكلام ؟!

– وقال أيضا إن ترك أبواب الدور مفتوحة قرار جائر لأنه يشجع اللصوص والمتطفلين. وإن كان الهدف هو منع الأهالى من ممارسة عاداتهم العربية فهذا القرار لا يجدى لأن بالأمكان فعل ذلك أثناء الليل.

– هذا الرجل محترم، وكلامه حكيم! ماذا قال غير ذلك؟

– قال إن قرار إغلاق الحمامات خطأ فهى مكان للاغتسال يستفيد من وجوده العرب وغير العرب. وإن الطبل والزمر وليالى السمر لا ترتبط بالاسلام تحديدا ولا تتنافى مع المسيحية. وقال إن إلغاء الألقاب العربية أمر غريب لأن الناس تعرف أصولها بألقابها التى توارثتها ولم تخترها.

– لم يقل شيئا عن حظر الكلام باللغة العربية؟

– قال يا جدتى، قال: كيف نحرم الأهالى من اللغة التى ولدوا وتربوا عليها؟! وقال إن أهالى القرى والجبال لم يسمعوا أحداً يتحدث بالأعجمية التى يجهلونها تماما لأنه حتى القسس في تلك الأماكن النائية يتحدثون العربية. ثم ان هناك في المدن أيضا من المسنين من لا يعرف سوى العربية ولا يستطيع في هذه العمر أن يتعلم لغة جديدة.

كانت مريمة تهز رأسها موافقة على الكلام، متأثرة بهذا الجزء الأخير منه كأن الرجل لم ينسها فقصد أن يشير إليها بالتحديد.

– أما نهاية الرسالة يا جدتى فهى قوية للغاية حتى أن الشباب في الصنادقية صفقوا وهتفوا وهم يستمعون إليها. قال إن هذا القرار فيه خرابنا، وإن الأهالى لايستطيعون تحمله، وإن فرضه عليهم سيجعلهم يشردون إلى الجبال ويشقون عصا الطاعة ويتمردون ويشعلون نار الفتنة.

– ما اسم الرجل الذى كتب الرسالة؟

– مولاى فرانسيسكو نونيين

– إسمه غريب، ولكنه منا أليس كذلك؟

– طبعا يا جدتى

كررت مريمة الإسم على نفسها حتى حفظته وصارت تدعو للرجل الطيب كل صباح ومساء، وانشغلت بأمر الرسالة وعوّلت عليها حتى انها كانت تسأل حفيدها ما إن يدخل الدار عائدا من عمله:

– ما الأخبار يا على؟

فيجيبها:

– لا جديد يا جدتى!

لم يخبر على جدته أن فرانسيسكو نونيير فشل في مسعاه، كان يراها تطعن في السن وتزداد وهنا فأشفق عليها من وقع الخبر. وكان أيضا ينتظر، مثل غيره، نتائج مساع أخرى لعل واحداً منها ينجح في حل المشكلة فيحمل لها، بدلا من الغمّ، البشارة.

كان إرناندو بن عامر يأتى كل يوم بالجديد، يدخل عليهم وقد أضاء وجهه الأسمر المكتنز، وتألقت عيناه الصغيرتان وانفرجت أساريره. فيقول: "قبل رجل من القشتاليين بمصاحبة اثنين من أعيان العرب، أحدهما من غرناطة والثانى من

وادى آش ، إلى مدريد لمقابلة الكاردنيال والتشكّى للملك مباشرة". بعد أيام يجلس متكدرا، شاحب الوجه، زائغ العينين، يقول: "عادوا بخفى حنين" يقول: "فوضنا جماعة منا لمقابلة حاكم غرناطة، ومطالبته بكتابه مذكرة إلى الملك تشرح له الوضع الذى يهدد بإثارة الفتنة" ثم يعلن: "لا حياة لمن تنادى" ويظل رغم ذلك متشبثا بذلك الدولاب الذى يرفعه لحظة، ثم يهبط به في اللحظة التالية. يراه صدِّيق ويسمعه فيهمس: "لا فائدة من وراء هذه المساعى فكيف ينصفك عدوك، وكيف تتوقع أن يجيرك من المصائب من سببها لك، فيقول ابن فضة بصوت عال" "وما الحل؟!" فيضع صدِّيق يده على فمه ثم يعود يهمس "ليس الآن، لدينا عمل" فيخشى على أن يبشر جدته بالجديد الذى يصبح بعد أيام مقبضاً يثقل القلب. يتذكر كلمات صدِّيق فلا يرغب أن يُركب جدته ذلك الدولاب العجيب الذى يبهجها وهو يرفعها في العالى لكى يسقط بها فجأة إلى القاع. انها تقارب الثمانين ولن تحتمل.

حجب على عن جدته الأخبار المتداولة في السوق فلم ينقل إليها خبر القبض على أكثر من مائة من وجهاء غرناطة وتفتيش بعض الدور بحثا عن السلاح، ولا قال لها عن مهاجمة بعض العرب لعدد من الجنود والموظفين الرسميين.

يذهب على إلى عمله كل صباح، لا يمر بدار إرناندو بن عامر لأن وردة لم تعد تفتح الباب، ولأنه لم يعد يطيق صحبة خوسيه. يهبط التلة إلى عمله ثم يصعدها عائدا إلى داره وفي الحالتين يرى الحمراء، قلعة حكام البلد ومعقل جندهم ومخزن السلاح والبارود، كما يرى الجبال الممتدة من ورائها، تشرف عليها وتنيف، غائمة تغطى قممها الثلوج وتتلون مع الساعات والمواسم بألوان الصباح والمساء.

ما الذى حدث لكى يطوق الجند البيازين؟ في طريقه إلى عمله رأى الحراس المسلحين، لم يفهم فمر بابن فضة وسأله، لم يكن لديه جواب فقررا أن يستطلعا الأمر قبل ذهابهما إلى السوق. صعدا التلة وسارا في انحاء الحى. كان الجنود قد انتشروا عند أبوابه وأسواره وساحاته، والبعض منهم وقف على أسطح الدور

يراقب. وفي ساحة باب البنود عسكر حشد كبير منهم. لم يقتربا من الساحة بل استدارا وهبطا في اتجاه السوق. كان الخبر قد سبقهم إليه والسؤال أيضا فلا أحد يعرف لماذا طوّق الجند البيازين. وهمهم صديّق: "لابد أن أحداً أخبرهم!"، "أخبرهم بماذا يا صديّق؟" تلعثم ثم قال في ضيق: "أخبرهم بما يعتمل في دواخلنا!"

ظل السؤال معلقا أياما حتى عرف السبب فتوارى القلق والخوف والضيق وراء فرحة عارمة عمت الأهالى، وتجلت في زهو العيون، والجذع المشدود، والضحكة المجلجلة.

لم يكن الوقت ربيعا بل شتاء قارسا، وانحدرت رغم ذلك أخبار الثورة كما الجداول والغدران والسقايا من جبال الثلج إلى المدينة فطار على إلى جدته يُبشرها:"اشتعلت الثورة في البشرّات يا جدتى، واختار الثوار لنا ملكا بسطوا تحت قدميه أعلاما تزينها الأهلة، فولى وجهه شطر بيت الله الحرام وصلّى واستعاد إسمه القديم". "بعض تجار السوق يعرفونه يا جدتى، اسمه ارناندو دى قرطبة إى بالور. شاب في الثانية والعشرين من عمره كان يسكن هنا في البيازين. أصبح إسمه محمد بن أميه يا جدتى، وهو الآن يقود جيش الثوار في الجبل، وأهل القرى معه. اليوم في السوق عُرف الخبر فعم الأهالى الفرح، ووزع التجار الحلوى والصدقات."

-١٢-

ترحّمت مريمة على أم يوسف، وقرأت على روحها الفاتحة، وقالت: "ظلمتها".
كانت مريمة قد انتظرت شهرا بعد شهر، وسنة وراء سنة حتى أقبل العام السابع فوافق الأول من محرم يوم سبت تماما كما قالت أم يوسف، فصارت تحسب إنتظارها بالأيام والساعات، فما جد شئ سوى ذلك المرسوم الجائر الذى جنّن العباد. ولكنها رغم ذلك قالت لعل المرسوم يكون ذروة طغيانهم فترتد سهامهم إلى صدورهم، وتدور على الباغى الدوائر. حمل لها على خبر رسالة فرانسيسكو نونيين، ولم يحمل لها ردهم على الرسالة. تسأله كل يوم "ما الجديد يا على؟" فيقول "لا جديد يا جدتى!" أو يقول: "الصبر يا جدتى فهذه الأمور تستغرق وقتا طويلا، والرجل يفاوض الحكومة، والحكومة ليست شخصا واحدا بل ملك وكاردينال وبلاط ونبلاء ومتنفذين" فعرفت أن الولد يحجب الحقيقة عنها، ويراوغها في الإجابة فاستعلمت من جاراتها اللائى استعلمن من أزواجهن واخوتهن. فعرفت أنه لا رسالة نونييز ولا غيرها من الرسائل التى حملت إلى الحكام ضيق العباد قد نفعت في شئ. و"المحصول؟" سألت مريمة امرأة من الجيران لها إخوة مزارعون، فقالت المرأة: "المحصول شحيح هذا العام يا أم هشام، والمزارعون في ضيق، وتجار الحرير في أزمة." فتذكرت مريمة الوعل المحاصر برماح الصيادين، ولامت نفسها لأنها تشبثت بتفسير أم يوسف لحلمها رغم أنها رأت بأم عينيها تفسيرا وتفصيلا لتلك الرؤيا. لم يكن النجم الكبير في السماء سوى طالع سوء ينذر بمصائب أكبر وأشد.

قالت مريمة لنفسها: عشت في الوهم سبع سنين، زرعت بستانا وزهورا، وعشمت روحي بعودة الغائبين ولم الشمل وحسن الختام ، وما كان ذلك سوى وهم. البنات لن يعدن ، والولد الشارد في الجبال لن يأتي إلا لزيارة عابرة كل عامين أو ثلاثة فيكسر قلبي بالحضور كما يكسره بالغياب.

لم تعد مريمة تنتظر إلا الموت. تقضي ساعات النهار جالسة في الرواق، ساهمة في اللاشئ، وبعد العصر تتحامل على نفسها وتقوم لتعد لقمة تقيم بها أود الصبي الذي يشقى في عمله طوال اليوم، ولا يعود إلا قرب المساء.

بدا لها أنها زاهدة في كل شئ وان قلبها قد أغلق بابه في وجه الفرح والغضب والانهماك، ولكن الإنسان مخلوق عجيب. عرفت ذلك وتأكدت منه لأنها حين سمعت من جارة لها بأمر بث الجند في البيازين وتطويق الحي، تحرك قلبها بالسخط، وراحت تلعن وتسب، وقالت للمرأة: "أريد أن أرى ذلك بعيني". حاولت جارتها أن تثنيها ولم تفلح إذ أتت مريمة بعصاتها وقالت إنها ستذهب في الحالتين، معها أو بدونها ، فصاحبتها الجارة. رأت مريمة بعينيها الجنود في كل مكان، واستبد بها الغضب حتى أنها رفعت عصاتها وكادت أن تهوى بها على رأس واحد منهم لولا جارتها التي جذبتها بعيدا، وحالت بينها وبين ضرب الرجل. وعندما عادت إلى البيت لم تقدر على الجلوس ساكنة فملأت الدلو وسكبت ماءه في الباحة، مرة واثنتين وثلاثا، وامسكت بالمقشة وراحت تكنس الفناء بهمة كأنما تقش الجنود مع التراب والوسخ المتراكم.

ثم أتى علي بأخبار اندلاع الثورة في البشرّات وتولية محمد بن أمية ملكا على الأندلس فاستمعت إليه ودمع عينيها يفيض، وتمتمت: صدقت أم يوسف، اختلط حساب السنوات عليها، ولكنها أصابت.

نوت الصيام وصامت الأيام المتبقية من شهر شعبان ودعت لله، وتشفعت

بمحمد خاتم المرسلين، وعيسى النبى الذى أوقدت له شموعا في الكنيسة يوم القدّاس أن يتمم الأمر على خير.

لم تعد تقضى يومها جالسة في الرواق بل صارت تحكم ملفها الصوفى حول جسمها، وتمسك بعصاتها، وتخرج إلى الحارة تزور الجارات، وتتبادل معهن الجديد من الأخبار من جهة الثورة والثوار.

كان يوما شتائيا باردا، ولم تكن قد قامت من فراشها بعد حين سمعت طرقا على الباب لم يعقبه صوت أى من نساء الجيران يعلمها كالمعتاد بالزائرة. فقامت وتدثرت بملفها، ومشت ببطء إلى الباب وصوتها يسبقها: "من الطارق؟" لم يأتها على سؤالها رد بل سمعت جلبة وأصواتا لا تعرفها. حركت المزلاج، وفتحت الباب، فدخل عليها ثلاثة جنود مسلحين. جنود في دارها؟! سألوها بالقشتالية إن كان هناك غيرها في الدار فأجابتهم بأنها وحدها وأنه لا يصح وهم أغراب أن يدخلوا الدار عليها وهى وحدها، ضحكوا وتجاوزوها إلى الرواق فالغرف. لحقت بهم وهى تصيح ان للدور حرمات، ولكنهم لا يعرفون لشئ حرمة ثم انتبهت انها تكلمهم بالعربية فحاولت أن تعيد الكلام بالقشتالية فبدا لها غريبا والمعنى غير المعنى.

فتشوا الخزائن وتحت الفراش، فتحوا صندوقها ونثروا ما فيه من ملابس، ورأت واحدا منهم يضع خلسة في جيبه المكحلتين: الصغيرة المصنوعة من الذهب الخالص والأكبر المصنوعة من الفضة. فعلا صوتها:

– هل انتم لصوص ... هات المكحلتين. لقد ورثتهما عن أمى عن جدتى، هات!

ضحكوا، وأزاحها واحد منهم بعيدا فكادت تتعثر وتسقط على الأرض. خرجوا إلى الباحة، بحثت عن عصاتها وخرجت بها إليهم. لم يكونوا في الباحة ... هل ذهبوا؟! فتحت الباب، كانت الحارة خالية، أغلقت الباب. خرجوا إليها من المطبخ، ما الذى يبحثون عنه في المطبخ؟! رفعت عصاتها عليهم ولكنهم دفعوها جانبا فسقطت هذه المرة على الأرض. رأتهم يغادرون الدار وهم يضحكون. سبتهم

ولعنتهم قالت إنهم لصوص وأولاد حرام وان الله سيعلقهم من رموشهم في جهنم يوم الحساب.

ظلت جالسة على أرض الفناء. ما الذى حدث؟ هل هم مجرد لصوص أم كانوا يبحثون في الدار عن شئ؟! ما الذى كانوا يبحثون عنه؟ هل يقصدون عليا؟ هل يظنون أنه على علاقة بثوار الجبل؟ هل له علاقة بثوار الجبل؟ كانت دقات قلبها تعلو وتتسارع، والعرق يتفصد على جبينها رغم برد الشتاء. لابد أن تذهب إلى على لتطمئن عليه وتحذِّره إن كان يحتاج تحذيرا. ولكن كيف تهبط التلة، هل تستطيع؟! يعينها الله.

قامت وأمسكت بعصاتها، وربطت رأسها بمنديل صوفى وخرجت إلى الحارة ثم إلى الطريق الهابطة إلى رصيف حدره ... تمشى ثم تجلس لتستريح ثم تمشى ثم لا تقدر على المواصلة فتعود تجلس.

رآها إرناندو بن عامر وهى تقترب من متجره فهب واقفا وخرج لملاقاتها.

– مرحبا بأم هشام، ما كنت أظن أنك تنزلين إلى السوق. ولكن لِمَ لا ما دمت تقدرين. أدام الله عليك الصحة والعافية. تفضلى، تفضلى.

أجلسها وطلب لها مشروبا ساخنا يضيِّفها به. ولم ينتبه إلى اضطرابها إلا عندما جلس أمامها. سألها فحكت له فنادى عليا، وقبل أن يعيد عليه ما سمعه من مريمة أو يسمح لها بأن تقص عليه ما حدث سأله بصرامة:

– هل لك علاقة بثوار الجبل؟

لم يكن على قد أفاق من دهشته من زيارة جدته عندما فاجأه إرناندو بالسؤال وبالنظرة المرتابة، قال:

– لا، ليس لي علاقة بثوار الجبل إلا ما أسمعه عنهم هنا في السوق.

– هل تكذب؟!

- لا أكذب!

قالها على بحدة وقد ضاق بأسلوب إرناندو في الحديث ، قال:

- ما الذى حدث يا أبا خوسيه، ما الذى حدث يا جدتى، لا أفهم شيئا؟!

- جاء الجند، ودخلوا على جدتك الدار، وفتشوها.

- فتشوا دارنا، لماذا؟!

قال إرناندو بنفس الصرامة.

- عد إلى عملك!

ولما استأذنت مريمة في الإنصراف أصرّ إرناندو أن يرافقها إلى ساحة باب الرملة حيث اكترى لها حمارا دفع أجره للمكارى فحملها عائدة إلى البيازين.

ما إن أوصلها المكارى إلى ساحة كنيسة سان سلفادور حتى رأت جمعا من المعارف والجيران ، فنزلت. كانوا جميعا يتحدثون عن تفتيش بيوتهم. كل منهم يحكى تفاصيل ما حدث له. وفي الحارة سمعت من جاراتها الشئ نفسه. قالت إحدى الجارات:

- لقد فتشوا بيوت الحارة العليا والحارة السفلى ومنطقة الكنيسة.

- عن ماذا كانوا يبحثون؟

- عن السلاح!

- السلاح؟!

- لقد سرقوا منى مكحلتين، واحدة منهما من الذهب الخالص.

- وأخذوا منى جرة زيت.

- وأنا كنت قد عدت لتوى من الفرن أحمل سمكا شويته فيه فأخذوه.

- بالسم الهارى!

- يقولون أنهم قبضوا على بعض الرجال في القصبة القديمة.

- لماذا، هل وجدوا في بيوتهم سلاحا؟!

– لا أحد يدرى!

نقلت مريمة لعلى، حين عاد في المساء، ما سمعته من الأخبار، ونقل لها ما وصله في السوق، ثم قال:

– لا تخافى يا جدتى.

أجابته وهى تبتسم:

– وممّ أخاف يا ولدى. انهم يفتشون الدور، وغدا يفعلون ما هو أسوأ لأن الثورة في البشرّات توجعهم وكلما أوجعتهم أكثر تزعزعوا وهاجوا كالثور الذبيح.

ولم تكن مريمة تصطنع كلاما تطمئن به حفيدها إذ كانت تعرف أن لكل شئ ثمناً ، وكلما كان المطلوب عزيزا وغاليا إرتفع ثمنه وظل رغم ذلك زهيدا. وعندما حمل لها على، بعد أسابيع قليلة، خبر مقتل وجهاء البيازين الذين كانوا قد سجنوا قبل عام قالت :

– مرادنا غال يا على ولكل شئ ثمنه.

فقال:

– إنهم أكثر من مائه يا جدتى ... قتلوهم غيلة في ظلام سجنهم فأنخربت بيوتهم وترملت نساؤهم وتيتم الصغار، وحُرمنا نحن ممن كانوا يتحدثون باسمنا مع السلطات ويقولون نعم ولا نيابة عنا. إنها مصيبة يا جدتى.

ظلت مريمة صامته.

– عندما وصلنا الخبر في السوق بكى الرجال، انتحبوا بالصوت المسموع ولم يقدر إرناندو بن عامر على الوقوف فجلس وأخفى وجهه بكفيه وانخرط في النشيج فداهمنا الفزع ولم نعد نعرف أى مصير ينتظرنا.

فكررت مريمة ما قالته في بداية الحديث:

– مرادنا غال يا ولدى، ولكل شئ ثمنه، لكل شئ ثمنه!

-١٣-

كان الطقس ربيعيا لطيفا تسرى في نسماته رائحة العشب المبلل، وزهور اللوز والمشمش، فغادر على البيت وهو منشرح الصدر لانقضاء الشتاء وتخففه من الملف الصوفى. مشى إلى السبيل القريب من كنيسة سان سلفادور فوجد ابن فضة في انتظاره فاتجها معا إلى بيت أنطونيو. وكانوا قد قرروا أن يقضوا يوم عطلتهم معا، يُشرِّقون إلى التلال أو يهبطون إلى شاطئ شانيل.

كان أنطونيو يسكن مع أهله في الطابق الثانى لبناية في القصبة القديمة. لم يدقا الباب بل ناديا بصوت عال على صاحبهما. أطل أبوه من النافذة.

– ليس هنا!

– ولكنه اتفق معنا أن نمر عليه، أين ذهب؟!

– لا أدرى أين ذهب!

– سننتظره حتى يعود!

– لا تنتظرا، لا أريدكما هنا، ولا أريد لابنى مصاحبتكما، إذهبا!

قال ابن فضة وهو يتطلع إليه ويبتسم:

– سننتظره!

كان الرجل محتقن الوجه، عبوسا، وكانا قد تعودا منه غلظة المعاملة. كانا يعرفان أن أنطونيو في الدار وأن اباه ينكره فراحا يناديان عليه بأعلى صوتهما ...

إبن فضة هو الذى لمح الدلو في يدى أبى أنطونيو فقفز إلى الوراء وهو يصيح

محذرا عليا. أفلتا من الماء القذر الذى كان يُسكب عليهما من الطابق الثانى، وركضا مبتعدين يلاحقهما سباب أبى أنطونيو "كلاب، عرب، حقراء"

انتظرا صاحبهما في زقاق متفرع من الحارة ، وكانا يعرفان أن أنطونيو سيلحق بهما ما أن يغادر أبوه الدار. شاهدا الأب وهو يمضى ثم جاء أنطونيو. قال له ابن فضة:

– أبوك كلب، إبن كلب!

– لا تقل هذا عن أبى!

– لقد سبنى، وسكب على ماء قذرا فلم لا أسبه وألعن دينه؟!

– لأنك تسبنى حين تسبه ولم أسبك يا فديريكو ولم أسئ إليك!

تدخل على لفض الاشتباك:

– هل نبدأ يوم عطلتنا بالشجار. أبو أنطونيو هو أبو أنطونيو لا نملك تغييره ولا يملك هو تغييره. إلى أين نذهب؟

ناقشوا الأمر ثم استقر رأيهم على النزول إلى ساحة باب الرملة للفرجة على موكب الأمير خوان دى استوريا إذ قال أنطونيو إنه أخو الملك، وإن استقباله سيكون حافلا.

وافق على على الاقتراح وإن عبر عن قلقه من أن يحول الزحام بينهم وبين رؤية الموكب:

– ونُضيِّع بعضنا في الزحام ويضيع علينا يوم العطلة.

– حين يقترب الموكب يمسك كل منا بيد صاحبه ونحنى رءوسنا قليلا وندفعها للأمام كالثيران فنخترق الصفوف ونضمن لأنفسنا مكانا أماميا يتيح لنا المشاهدة.

قطعوا الطريق إلى باب الرملة بين ركض وهرولة، اخترقوا الصفوف في خفة

ومهارة دون الحاجة إلى خطة الثور التى اقترحها ابن فضة، وزرعوا أنفسهم في موقع يمكنهم من متابعة الموكب بكل تفاصيله.

كان حملة البيارق والأعلام والطبول والمزامير يتتابعون أمامهم راكبين أو راجلين، والحشود من حولهم صاخبة. والبعض يهتف بحياة الملك وأخيه الأمير، .قال أنطونيو:

– قال أبى إن الأمير خوان دي استوريا ليس سوى أخ غير شرعى للملك فيليب الثانى. ولما سألت أمى عن معنى ذلك قالت وهى تشير بعلامة الصليب: "ليحفظنا الرب من كل خطيئة. هذا الأمير ثمرة علاقة الأمبراطور كارلوس الخامس بامرأة لم يتزوجها"

بعد طول انتظار ظهر الأمير ممتطيا جوادا شديد السواد، عالى المتن، يتهادى في خفة، ويقترب. كان صدر الأمير مدرّعا بالحديد حتي العنق فلا يبدو من قميصه سوى ياقة عاليه بيضاء منشاة تغطى رقبته. كان وجهه عريضا واضح القسمات، وعيناه واسعتين لوزيتين يعلوهما حاجبان ثقيلان، وأنفه بارزا ذا قصبة طويلة وأرنبة كبيرة. يعلو فمه شاربان كثان مفتولان لأعلى من طرفهما ، ولحيته مدببة صغيرة. هل يبتسم؟ تساءل على وهو يحدق فيه ليستنطق تلك النظرة الغامضة في عينيه. كان على فمه ما يشبه الابتسام، ولكن عينيه بدتا شاردتين وبهما رغم ذلك لمعة وعيد بارد قاطع كنصل السكين. كان مربوعا قوى البنية، يُحلى صدره المدرّع بقلادة ثقيلة من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة. وكان مستقرا على ظهر حصانه، وظهره مشدود يضفى عليه شيئا كالشموخ، أو ربما غطرسة وكبر.

ظلت عينا على معلقتين بوجه الأمير كأن عليه أن يقرأ المخفى فيه. وكلما تمعن في الوجه سرت في جسمه قشعريرة، وشد على يد ابن فضة.

– ما الذى دهاك يا على، لماذا تضغط على يدى؟!

لم يجب على سؤاله وعندما انتهى الموكب عادوا إلى رصيف حدرُة ومشوا بحذاء الشاطئ، عبروا من قنطرة حمام التاج إلى الضفة الأخرى للنهر، ثم جلسوا لتناول طعامهم في بقعة معشوشبة بين الأشجار. كان أنطونيو وابن فضة يأكلان، ويعلقان على الموكب، ويثرثران، ولكن عليا بقى صامتا يلوك اللقمة في فمه ولا يقدر على ابتلاعها إلا بصعوبة.

– ما بك يا على، هل انت مريض؟!

– لم أكن مريضا ... أشعر ببعض التعب. سأعود إلى الدار.

قال على لنفسه إن وجه الأمير، مهما بدا أو كان، لا يدعو إلى التطير. ولكنه كان متطيرا بل ومفزوعا. ولما استلقى على فراشه لينام سرت في بدنه برودة وأصابته رجفة فطلب من جدته أغطية إضافية لم تذهب شعوره بالبرد. لام نفسه وقال لها إنه لا يصح، وهو فتى يوشك على إتمام عامه الخامس عشر، أن يسلم نفسه لمخاوف لا أساس لها، ولفزع لا يوجد ما يبرره. وظل على لأسابيع وشهورا تالية يؤكد لنفسه انه واهم حتى أتى الصيف بأخبار المعارك الخاسرة.

كان دون لويس دى ريكسنس قد أتى من ايطاليا في قوة عسكرية قوامها أربع وعشرين سفينة، ووصل قائد فرنسى على رأس أسطول من ثمانى عشر سفينة حربية. وفتح باب التطوع لكل القادرين والراغبين من كافة أنحاء البلاد وللجنود الفرنسيين. ودارت عجلة الحرب أشرس وأسرع، يتناقل أخبارها تجار السوق وأهل البيازين، كل يوم وكل ساعة. كان الثوار يواصلون يحققون نصرا صغيرا هنا وهناك تتبعه هزيمة ماحقة، أو مجزرة، أو أسر جماعى، أو تشريد، أو كلها مجتمعة.

رأى على أسرى البشرّات يباعون على خشبة المزاد في ساحة باب الرملة. النساء عرايا أو شبه عرايا شاردات العيون، حرائر تتطفل علي عريهن عيون البائع

والمشترى وعابر السبيل. ورأى الرجال مكبلين بالقيود، تحجرت وجوههم سوى العيون مترقرقة بدمع لا يسيل. لم تطق نفسه أن يرى المزيد فغض الطرف ومضى مبتعدا.

لم ينقل لجدته ما رآه ولكنه سألها:

– هل يمكن يا جدتى أن يحدس القلب بشئ قبل وقوعه أو تعرُّف العقل عليه أو حتى التفكير فيه.

فتطلعت إليه مريمة مستوضحة، فقال:

– حين رأيت دون خوان دى أستوريا قبل شهور شعرت بالفزع، وكأن قلبى عرف أن خرابنا سيأتى على يديه. لم أفكر في ذلك، ولا مرت الفكرة مرورا بخاطرى، ولم أكن حتى أعرف أنه جاء لغرناطة ليقود الجيوش ضد الثوار في الجبل. ولكن قلبى ارتجف فزعا كأنه عرف.

فقالت له مريمة:

– يسبق القلب العقل أحيانا ولكن من قال لك إن خوان دى أستوريا سينتصر. مازالت الثورة مشتعلة في الجبال، ومازال أهلنا هناك يواصلون جهادهم. الملك، وأخوه الأمير، وقادة جيوشهم لهم المُلك والعتاد، ولكن الله فوق كل جبار عنيد. ونحن أقوى لأننا أصحاب حق والله معنا.

ولكن عليًا، حين آوى إلى فراشه، رأى دون خوان دى أستوريا واضحا وكاملا كأنه يقف أمامه، عريض الوجه، واضح القسمات، تضيئ ملامحه تلك الابتسامة الغامضة، ونظرة العينين الموزعة بين الشرود وازدراء متغطرس يقصدك بالوعيد.

أخفى على وجهه بكفيه وانتحب.

-١٤-

قضت مريمة ثلاثة أيام لا تغادر الفراش. يدخل عليها على في الصباح حاملا لها إفطارها، ويلح عليها لتأكل، ثم يذهب إلى عمله. ولا تأتى الجارات إلا قرب الضحى، يجالسنها قليلا ثم يذهبن فتبقى وحدها تغفو، وتصحو وتنتظر. لا تملك أن تجلس،كما اعتادت منذ مطلع الربيع بباب الدار لترى الرائح والغادى، وتسمع الجديد من الأخبار، وتتبادل بعض كلمات مع هذه الجارة وهى خارجة من بيتها، ومع تلك وهى عائدة، ومع ثالثة وجدت متسعا من الوقت للوقوف بالنافذة والحديث معها فتنقضى الساعات التى لا تنقضى.ما عادت مريمة تطيق البقاء وحدها في البيت لأن الوحشة تطبق على الأنفاس. قديما كان البيت صاخبا بحياة الكبار والصغار ثم رحلوا جميعا، الكبار إلى القبر والصغار إلى المدن البعيدة حيث لا تطولهم. ذهبوا جميعا سوى على فلماذا لا تزوجه؟ بدا لها الولد هذا الصباح حزينا كأنه يحمل هموم الدنيا على ظهره. ستبحث له عن عروس تملأ قلبه بالفرح والدار بالعيال.

غفت مريمة وهى تستعرض بنات الحى لتنتقى لحفيدها العروس، ولما تنبهت وجدت فضة جالسة بجوارها:

– متى أتيت يا فضة، لم أسمعك وأنت تدخلين؟

– وجدتك غافية يا أم هشام فانتظرت.

تطلعت مريمة إلى فضة فرأت وجهها شاحبا وبعينيها آثار دموع:

- ما بك يا ابنتى؟

انفجرت فضة في البكاء:

- هرب فيديريكو!

- ليلحق بالثوار في البشرّات؟!

- لا أدرى، ولكنه منذ علم بقرار الترحيل قال لن أرحل معهم فماذا لو اتضح انهم ينقلوننا من غرناطة لنصبح عبيدا يسوقوننا إلى خشبة المزاد؟ قلت له: صبرا يا ولدى لعلنا نفلح في الحصول على تصريح ببقائك. وحدثت دون بدرو فوعدنى خيرا، وقال لى أبو خوسيه حين طلبت عونه: سأحاول. ولكن الولد ...

قاطعتها مريمة:

- لا أدرى ما الذى دهانى، هل امتد الوهن لعقلى؟! لم أفهم مما قلتيه شيئا. قلت: ترحيل فأى ترحيل؟! وقلت: تصريح فما هو تصريح البقاء؟! وما علاقة هذا وذاك بهروب الولد؟!

قالت فضة:

- ألم يخبرك على؟

- يخبرنى بماذا؟

- صدر قرار بترحيل رجال البيازين، كل من يزيد عمره عن الأربعة عشر عاما ويقل عن الستين، ولا يبقى منهم إلا من ترى السلطات مصلحة في بقائه، أو من يحصل على تصريح منها بذلك.

- يرحلون إلى أين، ولماذا؟

- لا أدرى إلى أين يا أم هشام، ولكنهم يقولون إن السلطة تخشى أن يتمرد الرجال فيعززوا بتمردهم ثوار الجبل، فقرروا إبعادهم عن غرناطة.

- كل الشباب؟!

- باستثناء من يحملون تصريحا.

– ويأخذون عليا؟!

– قال لى أبو خوسيه إنه نجح في استخراج تصريحات لنفسه ولابنه ولعلى، وقال إنه سيعمل على استخراج تصريح لفيديريكو ولكن الولد لم يصبر. استيقظت هذا الصباح فلم أجده .

لم تجد مريمة ما تقوله، فما الذى يخفف حرقة قلب الأم على فراق الولد. بكت فضة ، فبكت مريمة لبكائها، وتجددت أحزانها فبكت أكثر. ثم حبست الدموع وتحاملت على نفسها وقالت:

– لعل في هروب الولد النجاة. ربما ينوون بيعهم أو إلحاق ضرر آخر بهم. هرب من أذاهم يافضة وعندما تهدأ الأمور يعود. إن شاء الله يعود.

ساد صمت ثقيل قطعته مريمة بعد حين:

– قومى يا فضة وأعدى لنا لقمة نأكلها.

– لا رغبة لى في الطعام.

– ولكنى لن آكل إلا لو شاركتنى

قامت فضة لتعد المطلوب ولم تكن مريمة جائعة أو تفكر في طعام ولكنها أرادت أن تشغل فضة بغير حزنها والبكاء.

ترى أين ذهب الولد ... هل لحق بالثوار في الجبل وكيف، والناس يقولون إن الطريق محروسة بالعسكر والجيوش؟ هل غرّب في اتجاه اشبيلية واين يسكن وكيف يعيش؟ لابد أنه أسَرّ لعلى بوجهته.

– يا فضة ... تعالى يا فضة.

جاءت فضة فقالت لها مريمة:

– فيديريكو وعلى صديقان متلازمان معظم ساعات النهار فلابد انه قال لعلى أين يذهب.

– لم يدر ذلك بخاطرى يا أم هشام

– سأسأل عليا، سيخفف من حزنك أن تعرفى مكانه.

– ليت علياً يعرف.

عادت فضة إلى المطبخ. ومريمة إلى التفكير: ولعل علياً أشار على صاحبه بالمكان الذى يذهب إليه، وربما أعانه على الاختباء في مكان قريب في التلال، في عين الدمع، أو هنا في البيازين.

– يا فضة ... يا فضة ... تعالى.

أتت فضة تحمل خبزا وجبنا وزيتونا، وضعتها بجوار مريمة، وجلست فقالت مريمة :

– الا يمكن أن يكون فيديريكو مختفيا هنا في البيازين؟

– هنا في البيازين، كيف؟!

– الأولاد يعرفون كل صغيرة وكبيرة في الحى، وربما دبّر على وأنطونيو مكانا لصاحبهما يختبئ فيه، يحملان له طعامه، ويؤنسانه بزيارة كل حين حتى تهدأ الأمور. في المساء استعلم من على فيتضح لنا الأمر. كلى يا فضة، كلى.

أمسكت فضة باللقمة ولم ترفعها إلى فمها أما مريمة فظلت تلوك لقمتها في بطء ثم ابتلعتها بصعوبة ولم تُثنّى.

حين عاد على في المساء سألته مريمة:

– لماذا تخفى عنى الأخبار يا على؟

– أية أخبار يا جدتى؟

– ترحيل الشباب

– من أخبرك؟

– فضة

– وحكت لك عن هروب فيديريكو؟

– حكت

- الاخبار سيئة يا جدتى، لا يأتى يوم إلا بالموجع من الأخبار.

- وهل رحل اين فضة من غرناطة حقا؟

- رحل يا جدتى

- هل قال لك إلى أين يذهب؟

- لم يقل لأنه لم يكن يعرف. قال سأذهب إلى حيث تحملنى قدماى. وبلاد الله واسعة.

- ألم يختبئ في كهف من الكهوف، في عين الدمع، أو هنا في البيازين؟

- لا يا جدتى فالجنود يطوقون المكان. كان فيديريكو خائفا وغاضبا وقال انه سيترك مملكة غرناطة كلها.

- هل ذهب إلى الجبل ليلحق بالثوار؟

- لم يشر لذلك يا جدتى، لا أدرى.

- ما الذى أقوله لأمه، إنها تبكى بلا توقف؟!

لم يجب على سؤالها بل قام وعاد بعد لحظات يحمل عشاء.

- كلى يا جدتى

- أكلت مع فضة

صارت مريمة تلح على حفيدها أن ينقل إليها الجديد من الأخبار فيتحدث إليها باقتضاب، لماذا يتحدث الولد باقتضاب؟!

لم تطق البقاء في الفراش فتحاملت على نفسها وعادت إلى جلستها المعتادة أمام باب الدار، تقضى نهارها تتسقط الأنباء.

نزلت الحى بعض أرامل قادمات من البشرّات يحملن معهن صغارا وحكايات شاعت في البيازين فتناقل الناس تفاصيل المجازر، وحرق المزروعات، وقتل الماشية، وخراب القرى. تتابع مريمة كل تفصيلة منها وتسأل وتستعلم، وتجاهد

ذلك الصوت في داخلها وهو يعلو ملحًا بأن الثمن المطلوب صار باهظا بما لا يُطاق. ثم سمعت مريمة بخبر مقتل محمد بن أمية.

- قُتل، كيف؟!

- قتله حراسه!

- حراسه؟!

- تظاهروا بالوفاء وكانوا خائنين. عيّن الثوار ملكا يخلفه أسموه مولاى عبد الله.

لم تستمع مريمة لذلك الخبر الأخير إذ انهمكت في الإمساك بعصاتها ومحاولة القيام . دخلت الدار وأغلقت الباب وراءها. جلست في الرواق وكشفت رأسها وتطلعت إلى السماء وتحدثت بالصوت المسموع:

"ما عدنا نطيق، والله ما عدنا نطيق فلماذا تبلونا بكل هذا البلاء؟ هل طلبنا منك الكثير؟ لم أطلب جاها ولا مالا. ما طلبت سوى أن أكحِّل قبل الموت عينى برؤية الصغار، وأن أدفن بعد الموت، بما شرّعته من غُسل وكفن وايات من آياتك تقرأ في العلن عليّ. فلماذا تضن وأنت الكريم، ولماذا تستبد وتقهر وتتجبر، وأنت الرحمن الرحيم؟!"

أجهدت مريمة عقلها لتجد مسلكا تسلكه بين سبب ونتيجة، يعجز عقلها فيداهمها شعور بأنها ضيعت طريق الفهم. فلا شئ يعقل ولا شئ مفهوم. وتصدّرت أمام عينيها صورة النساء والأطفال الهاربين من المجزرة إلى ستر الكهوف فأضرم الجنود النار في المداخل فاحترقوا وهم يتمتمون بالشهادة وما حفظوه من الآيات. "هل أتى أجدادنا جرما تعاقبنا نحن عليه، أم أنك خلقت الكون للبشر بخيرهم وشرهم يسيِّرونه على هواهم كيفما يكون؟ ولماذا تتركهم ما دمت تعرف أن هواهم هكذا، شرس ولعين؟

أنا مريمة ابنة أبى ابراهيم منشد سيرة نبيك ومصطفاك وصحابته الأكرمين، ولدت يوم كان القشتاليون على أبواب غرناطة يحكمون الطوق عليها، والناس جوعى، والزاد شحيح، ولكن أبى كان رجلا صالحا، لم يقل هذه الوليدة تحمل لى نحسا، ضمنى وأنشأنى في ظله الضافى. ولما دخلت دار أبى جعفر فرض القشتاليون على العباد تغيير دينهم. فلم تقل أم جعفر دخلت علينا العروس والمصائب في أذيالها. حملت وهنا على وهن كباقى النساء وربيت الصغار وكبرتهم. ما سرقت يوما، ما خنت أمانة، ما كذبت قاصدة شرا بأحد من العباد. فلماذا تلوح لى بنصرة في المنام أتعلق بها وتطلق الأمل من صدرى ليحلق عاليا ثم تسقطه فأعيش بدلا من الحسرة الواحدة حسرتين؟! الولد الجميل ولىّ وجهه شطر قبلتك، واستعاد إسم مصطفاك، وجاهد كما عينت في شرعك وكتابك، فلماذا تأخذه وسماؤك عامرة بأنبيائك وملائكتك والقديسين؟! لماذا، قل لى لماذا تمنح خصومنا فرحة الزهو بالانتصار؟! هل هجرتنى ... هل هجرتنا؟! » .

-١٥-

تطلع على إلى جدته، كانت واهنة نحيلة العود، خف شعرها الفضى ودقت جديلتاها، خيطان يؤطران وجهها المتغضن وعينيها الشاردتين.

– سنذهب يا جدتى.

– إلى أين يا على؟

– يعلم الله يا جدتى، يقولون إلى قرطبة.

– أبى رحمه الله كان يحلم برؤية قرطبة

– إذن نذهب يا جدتى لعلنا نراها

– لن أترك البيازين!

لم يكن هناك بد من الرحيل وقد صدر قرار النفى الجديد وأذيع مرسومه، وتعين على كافة الأهالى أن يتجمعوا في ساحات الكنائس الأقرب إلى مساكنهم.

عندما نامت مريمة قام على بإعداد كل شئ، أخرج قدور الزيت والزيتون واكياس الطحين والسكر إلى خارج الدار ليأخذها من يرغب من عابرى السبيل. واستخرج من ثياب جدته وثيابه ما يفى بالحاجة، وطواها وصرّها في حرام قديم. ثم أتى بحصيرة وثلاثة أحرمة صوفية ثقيلة ولفها لفا وربطها. ثم تذكر الصندوق. كان في طفولته يختبئ فيه، تبحث عنه جدته وتنادى وتكرر النداء فيرفع الغطاء ويضحك قائلا: "أنا هنا يا جدتى!" واصلا اللعبة شهورا حتى عندما صارت تعرف أنه يختفى داخله، ويعرف أنها تعرف. صندوق زيتونى عتيق، سطحه مزخرف برسم طيور وعصافير ملونة .

رفع على غطاء الصندوق ففاحت منه رائحة زهر الخزامى. كان بداخله مصحف أخضر الغلاف، وقنينة بها سائل رقراق كالماء، وحجر وردى، وجلالات مخملية، وأوراق مطوية.

قرّب الأوراق من القنديل ليتعرف على مضمونها. كانت عقود زواج الأجداد، وأيضا عقد أبيه على أمه، وصكوك ملكية دار عين الدمع ودار البيازين، وشهادات ميلاد وأخرى تثبت التعميد. ثم ثلاثة أوراق مثبتة معا بها قائمة باسماء كتب.

لم يأخذ من الصندوق سوى المصحف الصغير وما يخصه ويخص جدته من الأوراق . أودعها كيسا قماشيا علقه على صدره تحت الثياب.

جلس متربعا ينتظر طلوع الفجر، وعندما تلونت السماء بخيوطه الأولى حمل صرّة الملابس والحصيرة والأحرمة إلى ساحة كنيسة سان سلفادرو. ثم عاد إلى الدار وأيقظ جدته.أقنعها انهما سيذهبان لكى يراها المسئولون فيقتنعوا أنها لا تقوى على المشى فيسمحوا لها بالبقاء.

أطعمها وعاونها على ارتداء ملابس ثقيلة، وربط سبّاطها على قدميها بخرقتى صوف لفهما لفا على ساقيها حتى أسفل الركبتين. ثم وضع كل ما يملكه من نقود في جيبه، وصرّ منديلا على زوادة من الخبز والزيتون واللوز والتين المجفف.

أمسك الزوادة بيسراه، وأسلم ذراعه الأيمن لجدته وخرجا من الدار. أغلق البوابة بالمفتاح وعلقه حول رقبته مع الكيس والسلسلة الذهبية التى أهداها له أنطونيو. ثم سارا ببطء تواكب خطواته خطوة جدته الواهنة.

كانت الساحة المتاخمة للكنيسة مكتظة بالبشر، وكان الرجال أقل عددا بسبب ترحيل أعداد كبيرة منهم في الصيف السابق، أما النساء والشيوخ والعجائز والأطفال فكانوا كثيرين. وقف منهم من وقف، وجلس من جلس بالقرب من أمتعته. كان مسئول يصيح بأسماء يقرؤها من دفتر مفتوح أمامه. فيتقدم من يسمع إسمه، ويشق طريقه بين البشر والأمتعة حتى يصل المسئول ويعلمه بوجوده.

أتى على بالصرة والحصيرة والأحرمة وبحث لجدته عن حيِّز تجلس فيه. فرش لها الحصيرة على الأرض وأجلسها ووضع حراما على ركبتيها. لم يكن الشتاء قد توغل بعد ولكن الساحة كانت باردة، تصفر فيها رياح نوفمبر، وكان على متوجسا من مرض يصيب جدته فيزداد السفر تعقيدا. جلس بجوارها فقالت له:

– لماذا لا تأخذنى الآن إلى المسئول فيرانى فيتركنا نعود إلى الدار؟

– عندما ينادى علينا أذهب إليه وأخبره بحالتك.

انتظر حتى نودى على اسميهما فقام وهمت جدته بالقيام لتتبعه فقال لها إنه لا داع لذلك. ذهب ثم عاد. سألته:

– هل قلت له؟

– قلت.

– بإمكاننا أن نعود إلى الدار، أليس كذلك؟

– لا يا جدتى، كل هؤلاء الناس سيرحلون، عليهم أن يرحلوا!

– ولكنى لا أريد الرحيل.

قالتها وبكت. ضاق ببكائها وقال:

– ولا أنا أريد الرحيل، ولا أى واحد من هؤلاء الناس يريد ترك داره، وكلنا سنرحل. جميعا سنرحل!

تركها تبكى ومضى مبتعدا. بدا له المكان قابضا وخانقا، في اليوم السابق كان عليه أن يودع إرناندو بن عامر الذى لم يشمله قرار الترحيل كما لم يشمل عددا من كبار الحرفيين، وأن يودع زملاءه في السوق لأن أحدا لم يكن يعرف إن كانوا سيرحلون في نفس القافلة. تحايل لرؤية وردة فلم يفلح فعرف أن الله قدرّ له أن يترك غرناطة دون أن يتملى وجهها أو يقول لها "وداعا". وكان لقاؤه بأنطونيو الأكثر إيلاما لأن صاحبه بكى طويلا فخفف عنه بترداد ما تقوله السلطات: "هذا

ترحيل مؤقت ولن يطول". وعندما حانت لحظة الفراق قال أنطونيو متلعثما وهو يخلع عن رقبته سلسلة ذهبية دقيقة تنتهى بصليب صغير:

– لا أدرى إن كانت هذه الهدية مناسبة ولكنها الشئ الثمين الوحيد الذى أملكه. لقد منحتها لى أمى وأنا طفل صغير.

علق على الصليب الذهبى في عنقه، وتعانقا وافترقا.

تحركت القافلة مع الخيوط الأولى لفجر اليوم التالى. سارت جموع الأهالى في حراسة جند مسلحين يعتلون الخيل. بعضهم يسبق لحراسة المقدمة، والبعض الآخر يتبع في المؤخرة، والبعض يكمل الطوق من اليسار واليمين. وخلفهم كانت العربات التى تجرها الثيران القوية تحمل المؤن والمسموح به من الأمتعة.

شقت القافلة طريقها ببطء إلى شمال الحى الذى غادرته من باب فحص اللوز. وعندها ارتبكت الصفوف، وبكت النساء، وعلا صوت امرأة بكلمات نادبة ومسح الشيوخ دموعهم في صمت ، وواصلوا المشى.

قبل الضحى كانت غرناطة قد ابتعدت، وكانوا قد قطعوا عدة ساعات سيرا على الأقدام. أوقفوهم وسمحوا لهم بالجلوس للراحة وقضاء الحاجة، ووزعوا على كل فرد شريحة خبز أسمر، وعلى كل عشرة قالبا من دهن الخنزير. أكلوا الخبز وتركوا الدهن. لم تأكل مريمة، وتشاغل على عن ضيقه بإحصاء الحراس، كانوا مئتين. حاول عد الراحلين فلم يفلح، ولكنه قدر أنهم بين ألف وألفين.

مَر اليوم الأول بسلام. كان الطقس على برودته محتملا. وكانت مريمة تمشى بوهن وبطء متكئة على عصاتها وذراعه، ولكنها كانت تمشى . لم يعاملهم الحراس بفظاظة بل على العكس من ذلك، وكانوا يؤكدون أن هذا الترحيل مؤقت، وأن الملك قرره إشفاقا على الأهالى من المجاعة بعد أن تسببت الحرب في حرق المحاصيل. قال الحراس إنهم ينقلون الأهالى إلى قرطبة، يقيمون فيها عاما واحدا يعودون بعده إلى غرناطة.

عند غروب الشمس أوقفوهم وقالوا: هنا نقضى الليلة. وزعوا وجبة المساء. رفضت مريمة الطعام فألح عليها على فأكلت حبتين من التين.

رأى على الرجال يفرشون الحصر والأبسطة الصوفية ويوقدون نارا ليتدفأوا ففعل مثلهم. كانت السماء صافية تلتمع فيها نجوم كثيرة، والقمر كنصف برتقالة، بين هلال وبدر. إرتفع صوت امرأة بمطلع موّال. خيمّ الصمت على السامعين توجسا، ولكن الحراس لم يفعلوا شيئا. تشجعت أخريات وعلت في الفضاء أصوات مفردة تكمل بعضها بعضا وتتجاوب بمواويل شاكية. ثم سرت عدوى الغناء فصار جماعيا، ولما صار جماعيا تبدل الإيقاع والنغم. صفقوا وتمايلوا وهم في أماكنهم جالسين، وواصلوا الغناء حتى هدهم التعب فناموا.

مضى اليوم الثانى كالأول، وفي اليوم الثالث لم تقدر مريمة على المشى فحملها على على ظهره. لم يكن وحده الذى يحمل إذ كان العديد من النساء يحملن صغارهن. وكان بعض الصغار قد أصيب بالقيئ والاسهال فدّب الوهن في أجسامهم ولم يعودوا قادرين على المشى. وكان شاب يحمل أباه الشيخ على ظهره وآخر يحمل فتى في ساقيه علة.

لم يتضايق على من حمل جدته وإن أثقله بكاؤها المتصل. لا يسمعه ولا يراه ولكنه يشعر بقطرات الدمع ساخنة على عنقه، تنفذ إلى ظهره فتسرى قشعريرة في بدنه.

– لماذا تبكين يا جدتى، ألا تكفين عن هذا البكاء؟!

لا تجيب، تواصل سكب الدموع.

في الليلة الرابعة أصابتها حمى أبقتها مستيقظة تئن. دثرها بالأحرمة الثلاثة وسهر بجوارها حتى الفجر. وعندما تحركت القافلة لم يحملها على ظهره بل حملها بين ذراعيه. يتطلع إلى وجهها فيختنق بالرغبة في البكاء فيحدق بعيدا في جبل أجرد مشرف على الطريق.

في المساء سهر بجوارها ثلاث من نساء القافلة، ألحن عليه أن يتركها في رعايتهن وينام. ولما استؤنف السير فجرا حملها بين ذراعيه. رآها في ضوء النهار شمعية وساكنة. مال برأسه على وجهها فلم يشعر بأنفاسها. هل ماتت؟ دفع الفكرة بعيدا. ضم جدته إلى صدره وانغلق ذراعاه أكثر على جسدها الملفلف بالصوف، وواصل السير. ولكن جسدها كان ثقيلا بين يديه لا يختلج بأية علامة من علامات الحياة. ماتت جدتك يا على ... ماتت مريمة في العراء.واصل المشى كأن شيئا لم يحدث ثم فجأة توقف. تمسمرت قدماه في الأرض وصاح بأعلى صوته: "ماتت جدتي!".

تفاوضت النساء مع الحراس بشأن الماء. اعطوهن ما طلبنه على أن يُحسب من نصيب القافلة. ملأن الجرار والتففن حول مريمة في دائرة مغلقة. وسرت في القافلة همهمات وتمتمات ونتف من بكائيات، وآيات من الكتاب المحرّم.

حفر على مع بعض الرجال قبرا، ثم حمل جدته إلى الشق الغائر في الأرض. مال بها ووسّدها التراب، وكان شيخ رخيم الصوت يردد بصوت خافت: "يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى، وادخلى جنتى". صعد ثم أهالوا على الجسد التراب.

والرحلة لا تنتهى، يمشون ويتوقفون ثم يمشون. ذهبت برودة الطقس المحتملة، وهبت الرياح الشتائية القارصة، وتفشى المرض بين الصغار والكبار. يبكون من تقلصات بطونهم، يستفرغون ما في جوفهم بالقيئ والاسهال. تمشى القافلة ثم ترتبك الصفوف، تتوقف لدفن موتاها، ثم تعود تمشى. ولا يشغل على سوى طريقة للهرب فيحصى اللحظات ويترصد الفرص.

في ظلام الليل حارس. أوقد زملاؤه نارا وجلسوا حولها يستدفئون ويتسامرون. بعيدا عنهم كان الحارس يعتلى حصانه، يتهادى به، يروح ويجيئ. بإمكان على أن

يتسلل إليه، أن يقفز خلفه على الحصان، أن يباغته، وقبل أن يصيح مستنجدا، يكتم فمه بخرقة صوفية، يقيد يديه، ينزله عنوة من على متن حصانه، ويعتلي هو الحصان ويطير.

لف علي حراما صوفيا على منكبيه وتسلل بخفه إلى أن وصل الحصان وقفز عليه. وقبل أن يلتفت الحارس أو يستغيث قيدّ فمه. قفز الحارس من فوق الحصان وركض. قفز علي وراءه وأمسك بإحدى ساقيه وأوقعه على الأرض. تصارعا، ثم رأى علي الخنجر في الظلام يلتمع. اختطفه وطعن به الحارس. لم ير دماء ولكنه شعر بسخونة السائل على كفيه.قيدّ يدى الحارس وقدميه واعتلى الحصان ولكزه بقوة فطار.

لم يتوقف عدو الحصان إلا وخيوط الشمس تلوِّن زرقة الفجر، ومنابت شعره مبللة بالعرق وكذلك متن الحصان. تطلع إلى المكان من حوله. كان في واد تحيط به جبال حجرية جرداء. ترجّل وجلس على حجر فرأى الحصان في وجه النهار: كان أشهب يمتزج أسوده بأبيضه ويزيد، عالي المتن، واسع الظهر، ومدمجا ومفتولا.

قام واقترب من الحصان ولمس جبهته وناصيته وربت على قوس العنق. فانتصبت أذنيه إلى الأمام وحمحم كأنه استأنس باللمسة الرفيقة. ترى ما اسمه؟ سأله علي بصوت خفيض: "ما اسمك يا حصان؟" عاد يربت على ناصية الحصان فانتبه إلى أثر الدماء المتخلفة على يديه. اعتلى الحصان ومضى يبحث عن الماء.

وكأن جدته كانت تحرسه بالدعاء. لم تطل به الطريق بين الصخور الموحشة إذ فاجأه مع انعطافه في الجبل جدول ماء، وأرض معشوشبة خضراء. غسل وجهه ويديه، وشرب، ثم جلس يرقب الحصان وهو يرعى.

لم يعرف الخيل عن قرب فلم يتح له ركوبها ولا معاشرتها. ولكن جدته حكت له وهو طفل حكايتها . قالت له: "عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل أمر بريح الجنوب فأتته تسبّح فقبض الله قبضة وأطلقها حصانا وقال: خلقتك عربيا

تطير بلا جناح والخير معقود بنواصيك، فأنت للطلب وأنت للهرب، تعز صاحبك فيعطف عليك ويتعلق بك قلبه أكثر من تعلقه بماله وعياله" . وحكت جدته: "لما خلق الله آدم عليه السلام خيره بين دابتين: البراق والفرس، فاختار آدم الفرس. فقال له الله: يا آدم اخترت عزك وعز أولادك، خالدا ما خلدوا باقيا ما بقوا".

لابد أن جدته كانت تحفظه بالدعاء، وان الله استجاب لدعائها فأعطاه هذا الحصان ، سيسميه وردا. تأمل الإسم ثم بّدله بزاد المسافر، ثم تطلع إلى الحصان، وظل يراقبه، ثم حسم أمره: إسمه "حجاب". أعجبه الإسم فتدثر بحرامه الصوفي ونام.

استيقظ من نومه فزعا، نظر حوله فلم يجد سوى الحصان. تمتم "لقد قتلت نفسا يا حصان" ترقرقت في عينيه الدموع، وثقل عليه الكلام، ولكنه واصل الحديث مع صاحبه: "لم أقصد قتله يا حجاب، كنت أريد الهرب، وكنت خائفاً، وجدتي ماتت في العراء". قام وخطى مقتربا من الحصان، ربت على عرفه المسترسل، ثم اسند رأسه إلى عنقه، ثم همس: "ربما لم يمت صاحبك يا حجاب، ربما لم أتسبب إلا في جرحه، ربما يكون على قيد الحياة ..."

تطلع إلى وجه الحصان فتطلع إليه الحصان. كانت عيناه صافيتين كحلاوتين واسعتين. سأله علي بصوت خفيض: "هل كان صاحبك رجلا طيباً يا حصان؟! »

- ١٦ -

هرب على من القافلة فقال إنه الأكثر حظا، فلما طالت رحلته بين خوانق الجبال، وهده الجوع، قال: ليتنى ما هربت.

رأى تلك البيوت المنقورة في صخر الجبال فزاد اضطرابه، وتحير هل يلكز حصانه، ويشد على خطمه اللجام ليركض مبتعدا عن المكان أم يقصد الكهوف، ويستجير بأهلها فيجيرونه؟ وماذا يحدث لو وجد نفسه أمام نفر منهم، هل يقطعون عليه طريقه، ويجردونه من حجاب والمال القليل الذى يحمله أم ينصتون إلى حكايته ويكونون له أهلا؟ وما الذى دفع أباه إلى هجرة ألفة داره في البيازين ليسكن تلك الشقوق الغائرة في الوعر الموحش؟!

لم يره سوى مرات معدودة، في المرة الأولى كان يلبس قلنسوة حمراء ويربط عنقه بمنديل صغير، حمله وضمه إلى صدره وأودع في يده كيسا من النقود. كلما جاء يعطيه كيس نقود فيسأل جدته: "من هذا الرجل يا جدتى، ولماذا يعطينى نقودا" فتبكى ولا تجيب.

كانت مريضة تلزم فراشها يوم اطلعته على السر.

- ذلك الرجل الذى يأتى لزيارتنا ويعطيك نقودا وتلح في السؤال، من يكون ...

- الرجل المربوع الأعرج؟

- إنه ابنى هشام

- أبى هشام؟!

حكت له جدته الحكاية كلها فعرف ان أباه هجر البيت إلى الجبال، وأنه منفى مطارد وقاطع طريق. وكانوا قد حجبوا عنه انه كباقى الصغار له أب على قيد الحياة ولما أُعلم بالحقيقة اكتملت المعرفة بما يؤرِّق ويخجل ويصم. اشتعل بالسخط، وكاد يفلت منه صراخ يهد أركان الدار عليها. بدا له انه لن يغفر لها أبدا إساءتها إليه بالكتمان. تركها ومضى ولما عاد وجدها أكثر هزالا وشحوبا مما تركها. كانت تبكى في صمت فعطف عليها وأشفق، وراح يهوِّن عليها همها.

فهل يسكن أبوه في هذا الجبل من دون كل جبال الأندلس، وهل ينقض عليه الآن مهاجما ويقتله ثم يتفرس فى وجهه فيتعرف عليه، فيعوى عواء مفجوعا، تردده الأرض والسماء؟!

لكز على حصانه فاضطرم عدوه، وظل يعدو حتى هدهما التعب، وتصبب العرق الغزير على وجهه، وعلى عرف الحصان. ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى واد يشقه جدول. ترجّل وافترش الأرض على حافة الماء، وبكى. كان يريد العودة إلى غرناطة، وكانت غرناطة بعيدة وتبتعد . لابد من مكان يذهب اليه، قرية عربية تستر وجوده في وجودها، أو مدينة كبيرة يذوب كالملح فيها، أو بالينسيه يبحث عن سبيل للوصول إليها فيجد عمته فتساعده هي واولادها على تدبير أمره.

ركب الحصان وواصل طريقه. كان يصعد طريقا ملتوية فإذا بالمعجزة أمام عينيه تتجلى. قال: سراب. قال : انهكنى الجوع فاضطرب العقل، وثقلت موازين الخيال، ولكنه وحجاب كانا يقتربان رويدا رويدا، وعلى مهل، من الخضرة اليانعة، تخفى ولا تخفى ثمار ليمون وبرتقال وتفاح وطيف امرأة ناهضة. قال: حورية يا حصان ثم قال: ليس في هذا البر بحر، والحورية لا تطلع إلا من فورة الزبد. وللحورية عود كغصن البان أو كقضيب الخيرزان، وهذه المرأة ممتلئة وافرة البدن، وما أرخى سدوله ليس ليلا بل شعر على النحر يموج.

كان للمرأة كوخ وبستان. فتحت له بابها فدخل. أوقدت نارا ورفعت عليه قدرها

وسوّت حساء تشاركا فيه . على فراشها في الليل بكى فأمسكته، ولم ترخه حتى هدأ ونام.

لم تنبهه ولكن نبهه النهار فخرج إلى البستان. كان مزروعا بالسرو السامق والأرز وشجر فاكهة غام أخضرها في ضباب شتائى ناعم، وتبلل بالندى. وكان في البستان بئر ماؤها عذب رقراق.

أقبل على حجاب فانتصبت أذناه، وتحركتا للأمام، ربت على جبهته، وناصيته، وظهره، فحمحم. حمل له ماء ليشرب وأطعمه. انفلت إليه من الكوخ صوت المرأة تغنى فرأى حبات البرتقال، رغم الغيم، تتقد برتقالية، والتفاح ناضجا يثقل الفروع، وأصفر الليمون يرواغ كأنما حياء فيلوح ويختفى بين خضرة الأوراق.

دخل عليها فناولته قدر عسل، مدّ يده فيه، ففاحت منه رائحة زهر البرتقال، ذاق من شهده واستطعم ثم خرج إلى التلال يتقافز بين شعابها كالظباء.

وعندما توغل الشتاء وهبطت الثلوج على المرتفعات المشرفة، ظل البستان كالمعجزة أخضر، والكوخ دافئا وضاويا بنار يشعلانها كل يوم في الصباح وفي المساء.

لم تسأله عن الذى كان ولا سألها عن حكايتها، إختزلا الكلام. سكن إليها وسكنت إليه، يعلو صوتها بالغناء في النهار، ينتشر فوق البستان، بستان على بستان. وفي الليل أيضا تغنى غناء خافتا يمتزج بطقطقة الأخشاب المشتعلة فيها النار، يتواصلان بلغة غير لغة الكلام.

عندما زقزقت عصافير الربيع على الشجر نوى الرحيل فبكت:

– ستنسانى!

– كيف أنساك؟!

منحته قدر عسل فودعها . أمسك بلجام حجاب وسار بجواره مخلفا وراءه البستان.

- ١٧ -

تطلع إلى عمائر غرناطة وبكى ثم ضحك. كان يقف على تلة تشرف على المدينه فيراها كاملة تمتد أمامه، يطيل النظر إليها فيملكها بالعينين قبل أن يأتى المساء فيدخلها خلسة في الظلام، يخطو في حواريها ويتوغل في المكان الأليف، يرافق التلة فيصعد، ينحنى مع المنحنى، يتوقف عند السبيل ليشرب أو ليتوارى عن عين الغريب. ولكن قبل اللقاء بالتفاصيل كانت غرناطة تطالعه بكلها المكتمل في ضوء النهار: السبيكة والبيازين، وبين التلتين حدرُه يجرى بينهما دقيقا يتمايل قليلا هنا وهناك. هل صحيح ان قاع هذا النهر الصغير من التبر الخالص كما حكت مريمة؟ وهناك إلى يساره شانيل تماما كما وصفته في حكايتها يحيط بذراعه كتف غرناطة ويصاحبها. يراه في المدى يشق طريقه إلى الفحص المزروع. يعود بعينيه إلى البيازين. بيوت بيضاء صابحة كالحليب تتراكب على التلة وتتكاتف، يعلو بينها السرو والصنوبر والتين يواجه التلة المقابلة تمتد عليها قصور الحمراء بأبراجها وأسوارها والبساتين. ذهبت جدتى، وذهب الحصان ولكننى عدت.

مال على نبتة صبار وقطف منها ثمرة. أخرج سكينا من جيبه وقطع طرفها ثم حز قشرتها حزا طوليا وبطرف السكين استخلص الثمرة ورفعها إلى فمه. يذكره الصبار برويرتو البطل يتدرع بغلاف من الشوك ويبدو قاسيا وهو حلو.

أوصله روبرتو حتى مشارف غرناطة وقضى الطريق يحذره ويفطنه: "لم تعد المدينة لنا، ليست كبالينسية ولا حتى كمرسية فلم يعد فيها سوى أقليات تشطت.

غرناطة العرب صارت كالغانية ترقص وتتعهر إرضاءً لأسيادها لأنها خائفة. لا تأمن الآخرين يا علي، إحذر القشتاليين ولكن إحذر العرب أكثر ... لماذا تريد العودة إلى غرناطة؟! لماذا لا تبقى معي؟! إبق معي ... ولكنك تريد غرناطة، لا فائدة من محاولة ردك عنها. استودعك الله إذن، في أمان الله ...في أمان الله"

أدار روبرتو البطل رأسه قبل أن يستدير بالفرس وقال دون أن يلتفت: "أودعت جعبتك بعض نقود قد تفيدك في شئ"

تابع علي عدو الأصيلة وهي ترجم الأرض رجما بحوافرها، تسبق الريح، والشمس تكاد لا تقدر على رسمها ظلا على الأرض، وروبرتو على متن الأصيلة مائلا للأمام يبتعد، تتطاير من حوله بردته السوداء.

أغمض علي عينيه واستحضر لقاءهما الأول. لم يكن قد رآه ولا استشعر اقترابه عندما انتبه لحمحمة حجاب وحركة أذنيه وقوادمه ثم سمع وقع حوافر تقترب. كاد يقفز على حجاب ويهرب، ولم يفعل . ليكن القادم من يكون، صديقا أو عدوا فهو إنسان يرى فيه بعد شهور من الوحشة والعزلة وجها آدميا يبتسم أو يضحك، يكفهر أو يغضب. بقي ساكنا في مكانه ينتظر حتى رأى الرجل يقترب. كان يعتلي فرسا سوداء، ويعتمر عمامة، وعلى كتفيه بُردة. كان عربيا. صاح:

– سلام عليكم

أجاب الرجل :

– سلام ورحمة الله.

أوقف الرجل فرسه ثم ترجَل. كان له وجه أسمر نحيل به استطالة،وعينان حادتان نافذتان كعيني صقر، و لحيه وشارب اختلط الأبيض فيهما بالأسود وزاد.

حدق الرجل في علي بنظرة متسائلة لا تخلو من صرامة.

– من أنت يا ولد، وما الذى أتى بك إلى هذه الجهات؟

- إسمى على وأنا من غرناطة. هربت من قافلة الترحيل وجئت لألحق بالثوار ولكنى لم أجد أحدا في هذه الجبال.

بدا الرجل أكثر صرامة، وقال موبخا:

- هل أنت أبله يا ولد؟! كيف تُسِرّ لغريب بحقيقتك؟! لا تأمن غريبا يا ولد!

قال على مدافعا عن نفسه:

- عرفت من ملامح وجهك وثيابك أنك عربى.

- الحذر واجب، وليس كل عربى مؤتمن ... ألا يمكن أن أكون جاسوسا فتفقد حياتك ثمنا لثرثرة اللسان؟!

لم يجد على ما يقوله فظل صامتا. قال الرجل:

- هل تقيم وحدك؟

- نعم

- في هذه القرية العربية القريبة؟

- نعم، ولكنها مهجورة تماما، لا يقيم فيها سواى.

- سآتى لزيارتك، أنا روبرتو البطل، هكذا يسمّينى الآخرين، وأسمّى نفسى أيضا.

ركب روبرتو فرسه وسبقه على على حجاب، تتسارع دقات قلبه بفرح منتش. كان قد جاءه ضيف كأنه منّ وسلوى هبطت عليه من السماء. سيؤنس وحشته ويقيم معه يوما أو أياما وربما أسابيع، وقد يجد له مخرجا فيأخذه معه إلى حيث يعيش البشر متكاتفين مؤتلفين.

التقاه مصادفة ذات يوم فصاحبه عامين يتبعه كظله، يطرح عليه أسئلته وهمومه، يحتمل فورات غضبه، ويستدرجه إلى لحظات صفاء بالحديث فيما تستعذبه نفسه.

– حصانك جميل يا روبرتو!

– إنها فرس ، وإسمها الأصيلة، أدللها أحيانا بالعنود، وأحيانا بعتيق. اشتريتها ذات يوم بكل ما معى من مال، وكان لى زوجة حمقاء فلم تفهم. قالت: "هل تدفع كل مالك في حصان؟!" قلت لها: "ولم لا، الا يدفع الرجل كل ماله مهرا لامرأة ... والحصان أغلى على قلب الرجل!" أغضبها الكلام فقلت: "لتغضب!"

– أين زوجتك يا روبرتو؟

– تركتها!

– ماتت؟!

– لم تمت فمثلها لا يموتون، أعدتها إلى أهلها.

– هل كانت سيئة معك يا روبرتو؟

– كانت ثقيلة الظل، لماذا يجلس المرء تحت شجرة؟

– ليستريح، وتظله، ويأكل من ثمارها.

– زوجتى لم تثمر، وكان ظلها يسقط على ثقيلا وخانقا، أعدتها إلى دار أبيها، وأخذت الأصيلة وذهبت.

تربع على بجوار شجيرات الصبار ينتظر حلول الظلام لكى يتسلل تسللا إلى المدينة. تشاغل عن بطء الساعات بحساب السنين.

حين ودع المرأة ذات البستان كان يريد اللحاق بالثوار في البشرات، يريد سترهم وستر الجبال وقد ذهبت جدته وذهبت غرناطة فلم يعد له من أهل سواهم. حمله حجاب وشرّق، وواصل به العدو إلى الجنوب، ثم صعد به المرتقى العسير. وكان على يتوقف ليجيل النظر في المكان من حوله والفضاء المفتوح على أرض الله الواسعة. تتموج فيها قمم الجبال وتتلون سفوحها بأخضر الشجر أو بحليب الغيوم.

ثم استوقفته تلك الصخرة فوقف مشدوها يحدق فيها. كانت صخرة هائلة الحجم، قائمة بذاتها مكتملة، وترتكز- كيف ترتكز؟ - على قمة الجبل، كان جزء من قاعدتها مستقرا على القمة المدببة، والباقي كأنه يحمل نفسه أو يحمله الفضاء. تأملها، بدت له ثابتة، كيف لم تسقطها الريح العاتية والسيول؟ هل تزحزحها العاصفة ثم تأتي عاصفة أخرى فتزحزحها أكثر ثم تهوى مع العاصفة الثالثة، تحدث دويا هائلا وهى تتدحرج بقوة مندفعة إلى القرار؟ أم تبقى في مكانها رغم الزوابع والأعاصير لأن الله يريدها معجزة، يحدق الخلق فيها مشدوهين وهم يتمتمون: "سبحان الله!"

واصل طريقه حتى دخل قرية تتكاتف بيوتها البيضاء وتتراكب على سفح المنحدر. كانت العصافير تغرد على صيف الشجر، والفروع مثقلة بالثمار. ولكن المكان كان مهجورا كأن الله لم يخلق العباد بعد. لا إنسان، لا صوت، لا دخان يشي بامرأة تعد الطعام لرجلها والصغار.

ترجل عن الحصان، ثم سارا معا في أزقة القرية، ثم أوقف الحصان بباب دار من الدور. دفع الباب ودخل فوجد سلما عن يساره، وحجرة مفروشة بالأبسطة إلى الجهة اليمين. صعد السلم. تسع درجات حجرية ملتفة أوصلته إلى الطابق العلوى. وجد حجرة صغيرة بها ثلاث فرشات متجاورة، وحجرة أكبر بها فرشة كبيرة تتوسط المكان، ولصق الحائط خزانة خشبية وصندوق، وفي الجهة المقابلة صندوق آخر، وفي الحائط المواجه لمدخل الحجرة باب، فتحه. كان يفضى إلى شرفة مفتوحة على الجبال. اقترب من بابها الخشبى وأطل تحته مباشرة فرأى أسقف البيوت بيضاء تتوهج في ضوء الشمس. تطلع أمامه: كانت الجبال تمتد على مدى البصر، سلاسل متماوجة تميل خطوطها تنحدر إلى الوديان أو تصعد مع السفوح إلى القمم الغائمة.

استدار، نزل الدرج إلى غرفة الجلوس. رأى بابا منخفضا،انحنى ليمر منه فأفضى به إلى غرفة أخرى فسيحة قدر انها للطهى وللخزين. في جانب منها وجد قدورا نحاسية، وأخرى من فخّار، ومَغارف وصحوناً، وغربالا كبيرا وآخر صغيرا. وفي جانب كانت أكياس طحين وسكر وعدس وفول، وجرة زيت، وأخرى بها زيتون. وفي الزاوية، فأس تستند يدها إلى الجدار، ومطرقة، ودلو بها آثار الشيد البيضاء، وكيس من الشيد، وفرشاة.

قضى على ليلته في البيت وعندما طلع النهار حمل الفأ س وقلّب أرض بستانها الصغير وروى الشجر والزهور. وفي اليوم الثانى أخذ قدرا من الشيد الذى وجده وخلطه في الدلو ببعض الماء. قرر أن يعيد طلاء الجدران.

يغمس الفرشاة في الدلو ويُعملها في واجهة الدار. ترى من صاحبك يا دار؟ ما اسمه وما عمر زوجته، كيف تبدو، بدينة وطيبة القلب أم حسناء ويغار عليها من عيون الجيران؟ هل الحجرة الصغيرة لصغارهم، صبية يا ترى أم بنات؟ أم أن الحجرة للضيوف، أم ان رب البيت وربته كريمان يأتيهما الضيف فينامان في الحجرة الصغيرة ويتركان له المكان الأوسع والفراش الكبير؟ هل كان الرجل مزارعا أم حرفيا، والفأس لزوم العمل في البستان؟ يغمس على الفرشاة في الشيد ويحركها على سطح الجدار يتساءل كيف هاجر الرجل، هل حمل زوجته وصغاره تحسبا من الحرب القادمة أم شارك في الحرب وقتلوه؟ أين صاحبك يا دار ومتى يعود، هل يعود؟

لا ينطق الحجر لأن الله جعله على غير البشر معقود اللسان. ولكنه يعرف لأنه رأى كل شئ وكان شاهدا ساعة الرحيل.

انتهى على من طلاء الدار في أيام معدودة فصار يتجول في القرية، ثم صار يركب حصانه ويمضى إلى الجبال باحثا،عن أى شىء ؟! لا يجد بشرا يتحدث معهم فيجالس زهور البر ينتقى من بينها جميعا شقائق النعمان، يحدثها ويشرك

في الحديث حجابا. يعود قبل الغروب، يعد طعاما ويأكل ثم يخرج إلى الشرفة ليرى القمر سارحا في السماء من منزل إلى سواه فتأتيه الأسئلة: ما الأرض وما السماء وما الحياة المعلقة بينهما؟ وكيف بدأت الحكاية، وما الذى حدث ليصير ذلك الذى صار؟ هل هو شر لا يحكمه منطق سوى الأذى أم أن الأسباب مستغلقة عليه؟ ذبحوا الثوار في البشرات ورحّلوا الأهالى من غرناطة فتوزعوا بين مدن البلاد وقراها فما الذى يحدث بعد ذلك؟ .. الله في علاه يعرف الغيب فهو مكتوب ومسجل في اللوح المحفوظ ... ترى ما المكتوب في اللوح، نصر أم هلاك؟

وفي يوم توغل في شعاب الجبل فوجد منحدرا كالدرج، ترجّل ونزل ليستطلع المكان فإذا به في مهبط كالكهف في باطن الجبل، لم يكن كهفا، كان مفتوحاً على السماء تبين زرقتها وتختفى بين فروع أشجار سامقة نابتة من حوله. كانت الأرض مبللة وزلِقة تتفاوت ألوان حجارتها بين الأحمر الداكن والوردى والرملى الأصفر. تضرب في الأحجار جذور قوية ومتشعبة، تختفى في باطن الأرض ثم تشقها وتطلع ظاهرة للعين. وجذوع الأشجار قوية، بُنيها أسود وخشبها مشقق عتيق.

من أين يأتى هذا الخرير المتصل الخافت؟ توغل أكثر فرأى الماء ينحدر مندفعا من أعلى في مجرى عمودى يلتمع كالفضة السائلة تخالطها حُمرة. يسقط الماء ويسرى في مسارب الأرض ويشطف الحجارة ويمضى تاركا فيهاقدرا من لونه الأحمر.

كان المكان ظليلاً ورطبا وملونا ينبت من بين شقوق حجارته العشب وزهور البر، صفراء ووردية وحمراء، هتف على : يا الله! فتردد الصدى عاليا في المكان. كرر النداء : يا الله! فعلى بعد صوته الصوت. صاح: "يا جدتى"، نادى "يا مريمة" ثم علا صوته أكثر وهو ينادى: "يا غرناطة". ينادى ثم يسمع صوته يتردد في رجع النداء. ثم جلس منهكا وسالت دموعه ثم علا صوته بالنشيج.

ساعتها بدت غرناطة مستحيلة، ولكن ها هو يعود. تطلع على من حوله فرأى المساء يهبط على المدينة فحمل جعبته وقام. غذ السير نحوها وهو يترنم بالأغنية القشتالية الشائعة:

يا ابن عمّار، يا ابن عمّار

يا بن العرب الساكن في الحى العربى

أية قصور هذه المشرفة

في فضاء المدينة؟

لم يكن دون خوان الملك أتاها فاتحا يستعلم عن معالمها ولكنه واصل الغناء:

أيتها المدينة

قلبى على كفى إليك أحمله

وقرطبة وأشبيلية

لك مهر في العرس أدفعه

وأزيد عليهما طوقا من لؤلؤ المحار

فتجيبه غرناطة:

احفظ هداياك

يا ملك ليون العظيم

تزوجت منذ زمان

ومنحنى زوجى أطفالا

وصان عهدى.

-١٨-

- خوسيه!

- علي؟

كان خوسيه يرتدى ملابس النبلاء وأثرياء القشتاليين، يعتمر قلنسوة من المخمل القرمزى، وسترة مطرزة بخيوط الفضة، وسروالا ينتفخ حول البطن والردفين قليلا، ويضيق على الفخذين لينتهى عند الركبتين مسلما الساقين لجوربين حريرين ينتهيان داخل زوج من الأحذية لامعا مصقولا كالمرايا. ولكن علي تعرف عليه في الحال.أصبح خوسيه أكثر شبها بوالده. له نفس الوجه المكتنز والجبهة العريضة واللحية الكثة، كستنائية اللون على احمرار، حتى مشيته كانت كمشية إرناندو بطيئة متثاقلة.

- إذن أنت علي؟ ما الذى حدث، ما الذى أصابك؟!

لم يفهم علي سؤاله وهو مأخوذ مازال بحقيقة انه قد وجد وجها أليفا في البيازين. كان قد سعى إلى غرناطة كأن لا حياة له إلا فيها فلما وصلها بعد خمس سنين لم يجد فيها صاحبا ولا رفيقا . كان أنطونيو قد رحل عنها، إلى أين لا يدرى، وابن فضة لم يعد بعد هروبه، والحارات مقفرة من الوجوه التى ألفها في الصغر. كانت الدور والحوارى هى نفسها ولكن البيازين ما عادت البيازين. في اليوم الثالث لوصوله جلس على ضفة شانيل وبكى، وتذكر روبرتو، وقال: نصحنى روبرتو بالبقاء معه، ياليتنى بقيت.

دعاه خوسيه إلى بيته فتبعه وجلا، خائفا من لحظة ظل يؤجلها منذ وصوله، أن يرى بعينيه الدار والباب المغلق والنافذة التى اعتادت جدته الجلوس بالقرب منها تنتظره.

دخلا الحارة. كان خوسيه يواصل الكلام، وعلى غائب لا يفهم من كلامه شيئا. رأى جزءا من الفروع المورقة لشجرة التين المزروعة في فناء الدار. ثم مَرّ بالباب لا يفصله عنه سوى ذراع. تحسس المفتاح في جيبه، ثم رفع عينيه فالتقت بالنافذة في نفس موضعها بمشرفيتها الحديدية تتعرج قضبانها كالغصون. كان ساترها الخشبى مغلقاً، والورد الدمشقى غائبا، والتربة في حوض الزهور شقراء يابسة.

في نهاية الحارة كانت دار إرناندو بن عامر قائمة كما كانت. والفناء أيضا على حاله، النخلة إلى يساره وشجرتا الفستق والكستناء إلى يمينه. تحت شجرة الكستناء كان يركع على ركبتيه ويميل برأسه وجذعه، يرسم بعود على التراب رسمات تعجب وردة ويحاول خوسيه تقليدها. يقول لأبيه: "انظر ما رسمته" فيقول له أبوه: "على يفوقك في الرسم، يفوقك كثيرا" فيجيب خوسيه نفس الإجابة كل مرة: "لأنه يكبرنى بسنة" فتقول وردة "أنا أكبر منه بسنة ولكننى لا أتقن الرسم مثله!"

جلسا وضيّفه خادم أتى بطعام وشراب. قال خوسيه:

– إحك، متى عدت إلى غرناطة وكيف وما الذى فعلته في هذه السنين؟!

– إحك أنت لى أولا، هل الوالد والوالدة بخير؟

– توفى الوالد منذ عامين والوالدة بصحة جيدة ولكنها دائمة الشكوى، تقول أقفرت الحارة من الأحباب والمعارف.

– وإخوتك الصغار، ووردة؟

– الصغار صاروا رجالا، ووردة تزوجت.

لم يجد على ما يقوله. واصل خوسيه:

- تزوجت وردة فارسا قشتاليا ذا نفوذ وجاه وهى تعيش الآن في رغد الأميرات. ولقد أكرمها الله بالولد والثانى على الطريق. جاء دورك لتحكى لى ... إين ذهبت ومن أين جئت وما الذى فعلته؟

حكى على عن أشياء دون أشياء. ثم قال له إنه بلا أوراق، وبلا عمل، ويسكن مؤقتا في بيت مهجور في أطراف الحى.

قال خوسيه:

- إمهلنى أسبوعا واحدا، وإن شاء الله تكون لدى أخبار طيبة.

قام على مستأذنا في الإنصراف فقال له خوسيه وهو يمد له يده ببعض النقود:

- شكلك لا يسر، اشتر لنفسك ملابس لائقة.

كاد على يرد الاهانة بلكمة يسددها إلى وجه خوسيه ولكنه لجم غضبه وقال:

- معى نقود، معى ما يكفى ويزيد!

أعاد خوسيه النقود إلى جيبه وقال وهو يبتسم بعادية كأن شيئا لم يحدث:

- مادام معك نقود يا أخى ارتدى ملابس مناسبة. إنهم يسيئون إلينا، ويتحرشون بنا، ويتعالون علينا ويقولون بازدراء: "أولاد عرب!" ولكن الواحد منا إذ يبدو عليه الثراء، ويمشى في الأرض مختالا كالنبلاء لا يجرءون على الاساءة إليه، ولا التحرش به. علينا أن نبدو كالأسياد وأن نتصرف مثلهم!

بعد أسبوع ذهب على إلى خوسيه في الصنادقية. وجده جالسا في المتجر، يحيط به ثلاثة يماثلونه فيما يرتدون من ثياب تشى بالجاه والأهمية. لمحه خوسيه فحياه بيده وأشار إشارة فهم على منها أن عليه الانتظار.

كان خوسيه قد حل محل أبيه في المتجر ووسعه بضم متجرين ملاصقين. كان عمله رائجا وبدا ذلك واضحا من كم المعروضات وعدد العاملين.

طال انتظار على، وأثقل عليه شعوره بأنه صاحب حاجة فتشاغل عن ضيقه بتأمل الصناديق وتفحص الفروق في الصنعة. ثم عاد يتطلع إلى خوسيه الذى كان يتحدث بالقشتالية ويضحك بصوت عال مع مجالسيه، قدّر انهم قشتاليون، ثم تشكك في تقديره إذ كانوا يشبهون خوسيه شكلا وملبسا وفي لغة الكلام. قاموا وودعهم خوسيه ثم أقبل عليه مبتسما. قال:

– أبشر أمورك حلت، استخرجت لك الأوراق اللازمة مضافا إليها ورقة تفيد بأنك تعمل عندى هنا في المتجر.

تلعثم على ثم قال بصوت خافت:

– جميلك على رأسى يا خوسيه

– لم تبق سوى مشكلة السكن. يا ادواردو ... تعال.

اقترب منهما كهل نحيل له عينان خضراوان:

– نعم يا سيدى.

– هذا على، سيعمل معنا في المتجر وسيسكن معك في دارك بشكل مؤقت حتى نجد له دارا مناسبة.

– أمرك يا سيدى.

قال خوسيه وهو يضحك في غبطة:

– انتهينا من كل المشاكل ... وها أوراقك الجديدة. بالمناسبة يا على، هل بعتم دار عين الدمع قبل رحيلكم؟

– لا لم نبعها، لماذا تسأل؟!

– قد ... قد ... لست متأكدا بعد، ولكنى قد أقوم بترتيب يمكنك من العودة للإقامة في داركم في البيازين. إذهب الآن واشترى لنفسك ثيابا جديدة، الم أقل لك إن هذه الثياب التى عليك لا تصلح!

لم يتوقف على أمام عبارات خوسيه الأخيرة ولم تمسه بسوء إذ باغته الكلام عن إمكانية استرداده لبيت البيازين فاستغرق فيه.

صافح خوسيه وغادر الصنادقية والسوق كله ثم جلس تحت أول شجرة صادفته. من يكون خوسيه ومن أين له كل هذا النفوذ؟ استخرج له أوراقا تفيد بأنه لم يرحل أصلا من غرناطة، وقال "أعيدك إلى دارك" والدار مصادرة تملكها الدولة؟! هل أصبح خوسيه صديقا شخصيا للملك؟! لحاكم غرناطة؟! للكاردينال؟! أم يستمد نفوذه من نفوذ زوج أخته الذى قال إنه نبيل من النبلاء، فارس ذو سطوة وجاه؟! وهل تدور الدوائر بما يجعل الرجل الذى تزوج وردة يذلل له العقبات ويجعل من إقامته في غرناطة إقامة مشروعة وميسورة؟!

يدور رأسه بالأسئلة، وترجّه فكرة استرجاعه لبيت البيازين وتزيده اضطرابا على اضطراب.

اشترى لنفسه ملابس جديدة، وفي الصباح التالى بكر في النزول إلى الصنادقية.لم يكن خوسيه قد وصل بعد ولكن العاملين في الفناء الخلفى للمتجر كانوا قد بدءوا يومهم فراحوا ينشرون ويدقون ويحفرون ويُطعِّمون. أمسك على بمنشار وراح يعمله في قطعة من الخشب فبدا له وهو منهمك في عمله أن السنوات التى مرت لم تمر فمن قال إنه غادر غرناطة؟ من قال انه طعن رجلا لا يكرهه ولا يحبه ولا يدرى عنه شيئا؟ من قال إن الجوع والوحشة والتعب كادت تقتله وهو ضائع بين خوانق الجبال؟! حتى المرأة ذات البستان وكوخها وقِدر العسل، وروبرتو البطل والأصيلة وحجاب تباعدت كومضات وهم في منام. من قال إن جدته ماتت؟! الآن الآن بعد أن ينتهى من عمله يغادر الصنادقية عائدا إلى البيازين، يصعد إلى كنيسة سان سلفادور، وينحنى يسارا إلى حارة تقوده إلى حارة فيدخلها فيلمح وجه مريمة يتطلع عبر مشرفية تزين حافتها الورود.

– وحد الله يا على، لا تضيق إلا وتفرج، لا يصح أن تسيل دمعتك وأنت تعمل بين الرجال!

تطلع على، كان إدواردو يميل عليه بجذعه ويتحدث إليه همسا. كان يتحدث بالعربية، كان عربيا مثله .

عض على باسنانه على شفته وانهمرت رغم ذلك من عينيه الدموع.

داوم على الذهاب إلى عمله ، ولم يكن يرى خوسيه إلا لماما عندما يمر على العاملين في الفناء الخلفى، يلقى بتعليماته على عامل ويوبخ آخر. ولكنه في ذلك اليوم قصده مباشرة ، قال:

– على، مّر على هذا المساء في الدار.

في المساء ذهب. قال خوسيه:

– سأسدى لك خدمة قد لا تنساها ما حييت.

عرف على انه يقصد بيت البيازين. قال خوسيه:

– ستعود إلى بيت البيازين، إن أردت!

– إن أردت؟! أريد ذلك جدا يا خو .... يا دون خوسيه

– إسمعنى جيدا إذن: البيت مصادر ، ويتوجب لإستعادته دفع مبلغ كبير من المال، والتوسط لدى أصحاب النفوذ. حاولت ذلك وأفلحت. وما أعرضه عليك هو التالى:

توقع لى على صك بيع يؤرخ بما قبل الرحيل لبيت عين الدمع وبيت البيازين. الأول آخذه مقابل ما بذلته من مال وجهد، والثانى آخذه لكى تسكن أنت فيه. ماذا تقول؟

– لا أفهم!

أعاد خوسيه عرضه. فقال على:

– ستأخذ بيت عين الدمع في مقابل إعادتى لبيت البيازين فلماذا تأخذ منى صكا بملكية بيت البيازين؟!

– كلامك غريب يا على، اننى أعرض عليك أن تعود إلى دارك القديمة بأجر زهيد. وبدون هذا العرض تبقى في هذا الجحر المظلم مع إدواردو. أنت لا تملك البيتين أصلا، أقصد لم تعد تملكهما فلماذ تتحفظ في التوقيع على صك بيعهما؟!

وجم على.

– ماذا تقول؟

لم يقل شيئا فقام خوسيه وأحضر الصكوك وقلما ودواة .

قال:

– وقع، هذه فرصة عمرك.

ثم قال :

– لا تكن أحمق. أعرض عليك أن تعود إلى دارك وها أنت تتردد، هذا ما لم يخطر لى ببال قط!

– إعطنى شربة ماء يا خوسيه.

قام خوسيه ليأتى بجرة الماء ، وشعر على بحلقه يزداد جفافا وبالعرق يتصبب من جسمه وبدوار يلف رأسه.

شرب ثم ناوله خوسيه القلم فغمسه في الدواة. تذكر كتب جده في عين الدمع، قال:

– لى كتب في عين الدمع خلفها لى جدى أبو هشام؛ أريد الكتب.

– سأعطيها لك

كان القلم مشرعا في يد على. قال خوسيه:

– مادمنا قد اتفقنا وقع

غمس على القلم في الدواة مرة أخرى ووقع على الصك الأول ببيع بيت عين الدمع وعروق الزيتون والأرض المحيطة به. ثم وقع على الصك الثانى.

حين سأله إدوارد عن سبب وجومه لم يجبه وحين دعاه لمشاركته العشاء لم

يأكل. أكل إدواردو ثم نام وتوغل الليل فتحدد اضطراب على غضبا. خوسيه كلب، حقير، نذل، يمتص دمنا ليزداد على سمنته سمنة، يغتنى بخرابنا. بدا لعلى انه لو رأى خوسيه أمامه لألقى بنفسه فوقه وانهال عليه ضربا وركلا ولا يتركه إلا وهو جثة هامدة. ولكنه لم يجد خوسيه أمامه. كان هناك في داره آمنا منعما ينام ملء جفنيه. ما الذى يفعله الآن، ما الذى يفعله؟ لماذا وقع لذلك الكلب على صك لا حق له فيه؟!

قفز إدواردو من فرشته وأمسك بعلى بقوة وهو يصيح فيه :

– ما الذى تفعله بنفسك، وحد الله يا رجل؟!

كان على يجأر بصوت عال ويضرب رأسه في الحائط ، ودمه يسيل.

ـ ١٩ ـ

أدار المفتاح في الباب ودفعه، خطى خطوتين ثم توقف. راحت عيناه تمرّان ببطء على مألوفاتهما القديمة: التينة عن يمينه، يحملها جذعها قويا ومتغضّنا، ويطلق غصونها المورقة في دائرة تتجاوز السياج الحجرى تلقى على الأرض مساحة دكناء من الظلال.

الفناء، على غير الشجرة، يحكى هجره ، تراكمت عليه الأتربة، والأوراق الجافة وفضلات العصافير. تسكنه السحالى، والفئران، والخنافس تحجبها عن عينيه الأوراق ولكن يسمع خشخشتها .

في عصارى الصيف كانت مريمة تقش الفناء، ترطبه بماء البئر، تملأ الدلو منها ، وتسكب ثم تملؤه من جديد وتسكب مرة أخرى. وحوض مزروعاتها؟ تطلع على إلى الجهة المقابلة فلم ير سوى شجرتى اللوز والمشمش عاريتين من الأوراق، والأرض من تحتهما يابسة مشققة.كانت جدته تقول: "بستانى". ولم يكن سوى حوض مستطيل تقلبّ طينه وتغرس الشتلات فيه، وتقلمٌ وتروى. أحاطته بإطار من حصى اللبان، وزرعته بالورد الدمشقى والريحان والخزامى، تسرى رائحتها في ليالى الصيف.

الزرع كالبشر، يموت أما الأحجار فتقوى وعمرها يطول. انتقل بعينيه من حوض الزهور إلى مبنى الدار. تملى الأقواس الثلاثة والأعمدة الأربعة التى تحملها والرواق. وفي الزاوية الحجرة ذات المشـــرفية، تجلس جدته وراءها تنتظر، فيراها ما إن يدخل الحارة وهو عائد من عمله في المساء.

والبئر؟ اقترب منها. انحنى وحدّق، بها ماء ، إبحث عن الدلو، أنزله فيها ثم جذبه، خلع ملابسه وسكب الماء على رأسه دفعه واحدة. شهق ثم ضحك ثم أعاد الكرّة. بإمكان المرء أن يبدأ من جديد، بإمكانى ان أبدأ من جديد.سيبدأ بتنظيف الدار، يكنس الحجرات والفناء ويقشها بالماء ويشترى فراشا وأغطية، وزيتا وزيتونا، وشتلات يغرسها في البستان.

في اليوم التالى لوصوله اشترى سمادا للأرض وبذورا وشتلات. حمل الفأس القديمة وقلب الأرض وسمدها وزرع بستان مريمة بنفس الزهور: الورد البلدى والخزامى والريحان. ثم أضاف إليه شتلتى ليمون وبرتقال. بعدها كنس الباحة، وشطفها ثلاث مرات بالماء.

اشترى طلاء وألواحا خشبية، ومطرقة جديدة، ومنشارا ومسامير. بيّض الجدران، وجدد خشب النوافذ والأبواب وأعاد طلاءها، ونجرّ خزانة كبيرة نقل إليها الكتب المحفوظة في عين الدمع. مسح الغبار عن الكتب وصفها في الخزانة ثم اغلقها بمفتاح صغير حمله في جيبه مع مفتاح الدار.

كان محظوظا بشروق مبكر فينشط في العمل ساعتين ثم ينزل إلى الصنادقية يشتغل في متجر خوسيه، وعندما يعود، يواصل ما بدأه في الصباح حتى تغرب الشمس ويهبط المساء فيستلقى على فرشته منهكا وينام. تأتيه مريمة في الحلم كثيرا، وفي بعض الأحيان يرى المرأة ذات البستان والنار الموقدة في كوخها، يمد يده إلى قدر العسل، يشهق ويصحو ومذاق الشهد لاذع حلو لم يتبدد.

لم يكن يحلم بروبرتو البطل ولكنه كان يستحضره وهو يعمل في تعمير الدار فيطول بينهما الحديث. لم يفهم روبرتو أبدا لماذا تلح عليه غرناطة إلى هذا الحد، ولا رغبته في العودة إلى بيت البيازين. هـو أيضا لم يفهم منطق روبرتو في تفسير الأمور:

- قاطع طريق يا روبرتو، هذا حرام!

- ليس حراما بل عين الحلال!

- تنقض على المسافرين في أمان الله وتسرقهم وتضربهم إن قاوموك، وتقول حلال؟!

- أنت حمار يا ولد!

قالها وضحك، ولكنه في يوم آخر قالها بغضب وقد احتد بينهما الحديث. ارتفع صوته زاجرا وموبخاً:

- هل تظننا لصوصا؟! لست لصا يا ولد، وأمقت كل خسيس وجبان. هل نقطع الطريق على أهلنا؟! على المستضعفين؟! على من لا حول لهم ولا قوة؟! حكام البلاد يسمون من يهاجم الشواطئ أو سفنهم قراصنة، أما نحن فنسميهم مجاهدين. لماذا؟! افهم يا ولد. لأنهم مهاجرون من أهل الأندلس وأنصار من الجزائر يركبون البحر، ويضربون عدوهم، ويثأرون لأنفسهم ويستنقذون - كلما تمكنوا - بعض أهلهم من أيدى المتجبرين. ليسوا لصوصا ولا قراصنة.

- ولكنك لا تنقذ أحداً يا روبرتو. تسرق مال هذا المسافر أو ذاك وتمضى.

غضب، وخاصم عليا يوماً وبعض يوم لم يبادله حرفا، وعندما هدأ لم يعاود أى منهما الحديث في الموضوع، يسأله عن الثورة في البشرات فيحكى، ويسهب في الكلام عن الذى حدث يوم كذا ويوم كذا، وعن محمد بن أميه وابن عبو ثم ينهى كلامه كل مرة بنفس العبارة:

- المشكلة يا ولد أن قادتنا كانوا أصغر منا، كنا أكبر وأعفى وأقدر ولكنهم كانوا القادة، انكسروا فانكسرنا!

أخذه روبرتو ليقيم معه بين قطاع الطرق في الجبال. قال:

- لا يملك أحد أن يغصبك على شئ. احرس كهوفنا، وارع أغنامنا فتكون ذا نفع للآخرين.

تبعه وبقى معه عاما ونصف عام ولكنه لم يألف المكان. قال:

– سأعود إلى غرناطة

– إن تذهب يقبضون عليك

– أعود وليكن ما يكون!

لو صاحبه روبرتو لحظة دخوله البيت، لو رآه وهو يبيض الجدران وينجّر خشب النوافذ ويلونها ويزرع بستان مريمة، لو أن روبرتو معه الآن لفهم كل شيئ بلا طول شرح أو كلام.

بعد ثلاثة شهور من العمل اليومى أصبحت الدار ضاوية كالعروس. بستان مريمة بستان، ومشرفيتها المطلة على الحارة مطلى حديدها بالأخضر، ومزينة بحوض ورود دمشقية تتكاثف أوراقها حمراء ووردية وصفراء. ما رأيك يا مريمة؟

في الليلة التى انتهى فيها تماما من تجديد الدار واستلقى على فرشته قرير العين بما أنجز استعصى عليه النوم وأرّقته الصكوك التى وقعها. نسيها أم أجّل التفكير فيها ليتفرغ للعمل ويتمه؟ هل تمر فعلة خوسيه دون انتقام؟ كان قد حكى لادواردو عن تلك الصكوك فقال له: "ليس في سلوكه جديد. هذا هو خوسيه. ومع ذلك، ورغم انحطاطه، فقد خدمك. كانت الدار مفقودة لا أملَ في استرجاعها فمكنك منها"

فهل خدمه خوسيه أم سرقه لانه لص مبتذل وحقير؟! لن يهدأ قبل أن يرد لخوسيه الصاع صاعين، والأيام بينهما.

- ٢٠ -

لمحها عن بعد وسط زحام السوق. امرأة في طولها، مشدودة الجذع مثلها، ولها كفلان ثقيلان يتحركان مع مشيتها الوئيدة. غذ الخطو في اتجاهها حتى وصلها وتجاوزها ثم استدار، تقابل الوجه بالوجه. هتف على:

- خالتي فضة !

تطلعت، مرت لحظة صمت، بدا له انها لم تتعرف عليه ثم انتبه انها لم تكن تحدق فيه تساؤلا. كان وجهها الأسمر يغيم ويشرق وعلى الشفتين رجفة معلقة بين ابتسام وأسى.

- متى عدت؟

- منذ شهور.

- ولم تأت للسؤال عني، وعن صاحبك؟

- سألت عنه فعرفت انه لم يعد.

- هل عدت مع جدتك؟

- جدتي؟!

- عدت وحدك؟!

- ماتت

لم تعلق، شردت عيناها وطال شرودهما كأنها نسيت انه يقف أمامها. قطع الصمت بالسؤال:

- هل جاءتك أخبار من فيديريكو؟

- قبل عامين جاءتنى منه رسالة. تركها لى شخص غريب لم يكلف نفسه عناء انتظار عودتى إلى الدار، تركها مع خادمة من رفيقاتى. أطلعت عليها الدون بدرو ليقرأها فقال إنها مكتوبة باللغة العربية ... فبحثت عن شخص يعرف القراءة بها، بحثت أسابيع متصلة حتى وجدت من يقرأها لى.

يقول فيديريكو إنه بخير ووجد عملا، ولكنه لم يذكر شيئا عن المكان الذى يقيم فيه، ولا نوع العمل الذى يقوم به. ومازلت بانتظار مكتوب آخر يطمئننى عليه ويخبرنى بالتفاصيل.

- هل معك المكتوب؟

- احتفظ به في البيت

- اطلعينى عليه فاقرأه لك.

- وهل تقرأ العربية؟

- أقرأها

كاد يدعوها إلى زيارته في داره ثم انتبه إلى أنه يقيم وحده وأن ذلك لا يجوز. قال :

- نلتقى يوم الأحد بعد القدّاس في ساحة كنيسة سان سلفادور.

- مادمت تقرأ العربية سآتى لك بالرسالة هذا المساء ... أين تنزل؟

- عدت إلى دارنا في البيازين.

ورغم قلقه من زيارة قد تثير فضول الجيران أو تقولاتهم إلا أنه توقف بعد انتهائه من عمله ليشترى ما يُضيّفها به. وكان مبتهجا بفكرة الزيارة التى تحمل معها شيئا من ألفة الدار القديمة يتردد عليها معارف جدته من الجارات والصديقات.

سمعها وهى تدفع باب الدار فركض إليها مرحبا بصوت جهورى:

- نورت الدار ياخالة فضة، تفضلى ... أهلا وسهلا، أهلا ...

اصطحبها إلى داخل البيت وانتظر حتى جلست ثم سارع إلى إحضار الفطائر والفواكه المجففة ثم جلس أمامها . قرر أنه لن يبادئها بالسؤال عن مكتوب فيديريكو. قد تعطيه الرسالة فيقرأها ثم تذهب، لم يكن يريد أن تذهب. ولكنها مدت يدها إلى صدرها وأخرجت قماشة مخملية مطوية، فتحتها بعناية وناولته الرسالة:

تناولها وراح يقرأ. لم يصدق عينيه فأعاد القراءة. كيف يتحكم في صفحة الوجه فلا يفضح ما باغتته به الكلمات؟ ما الذى يقوله لها وما الذى يفعله الآن؟

– ما بك يا سى على، لما لا تقرأ المكتوب، الم تقل انك تتقن القراءة بالعربية؟!

ابتلع لعابه وقال دون أن يتطلع إليها :

– الخط رديئ ياخالة فضة. أملى فيديريكو خطابه لشخص لا يتقن الكتابة. على أن أتملى الحروف حرفا حرفا حتى استبينها وأتأكد من معناها.

عليه أن يقرر، استجمع شجاعته وحسم أمره ، قال:

– "إلى والدتى الغالية فضة، أدامها الله في صحة وعافية وسرور،

أعلمك اننى بخير وقد وصلت إلى مالقة وأقمت فيها ووجدت عملا. وصاحب العمل رجل طيب، وهو يحسن معاملتى وينصفنى فيما يدفعه لى من أجر .

بلغى سلامى لعلى وأنطونيو ولأبى خوسيه. وكذلك لكل المعارف والجيران.

أقبل يديك، إبنك البار فيديريكو"

تعجب على حين انتهى من كلامه كيف انطلق لسانه فقال الذى قاله بيسر وسهولة كأنه مكتوب بين يديه.

وكانت فضة تتطلع إليه، وقد تعلقت عيناها بوجهه وتحددت على شفتيها ابتسامة فبدا وجهها عذبا وناعما وحزينا رغم الابتسام.

– أعد على ما قرأته يا سى على

أعاد عليها الكلام مرة ثانية ثم ثالثة. قالت وهى تقوم استعدادا للذهاب:

- ذلك الرجل الذى قرأ لى الرسالة، سامحه الله، لم ينقل لى ربع ما جاء فيها. ربى يحميك يا سى على، بفضلك صرت أعرف كل كلمة وردت فيها واحفظها عن ظهر قلب. بإمكانى أن أنشر الورقة أمامى وأعيد لنفسى الكلام فأقرأها على طريقتى، سأقرأها كل يوم.

مدت يدها لتسترد منه الخطاب .. كيف يستبقيه؟ لم يسعفه عقله.أخذت فضة الرسالة وطوتها ووضعتها بعناية في القماشة المخملية الزرقاء ولفتها وأعادتها إلى صدرها.

- وما العجلة في الذهاب يا خالة فضة، إجلسى لنتحدث؟

- شكرا يا سى على، بارك الله فيك وحفظك.

أوصلها إلى باب الدار وظل واقفا يتطلع إليها وهى تبتعد ثم أغلق الباب واستند إلى الجدار.

كانت الرسالة من شخص تعرف على فيديريكو في مركب تجارى مبحر من مالقة إلى تونس. وكان يقول في رسالته ان فيديريكو مات في عرض البحر متأثرا بحمى أصابته. وأنه أوصاه قبل موته أن يخبر أمه إن وافته المنيّة.

لو كانت هذه الرسالة قد وصلت فضة للتو، لو كان أول من يقرأها لها لواتته الشجاعة في نقل مضمونها ... ولكنها كانت تحملها منذ عامين، تقول ابنى بخير في مكان ما أجهله ولكنه بخير. تروح وتأتي، تمشى في الأسواق، تصحو وتنام وهى تحمل في صدرها، دون أن تعلم، خبر موت ابنها.

قضى على ليلته لم تغمض له عين، يلازمه طيف فيديريكو ووجه فضة.

-٢١-

ما الذى حدث؟ أهل غرناطة الجدد من النصارى الأصلاء مشدودون كالوتر، يقال إنهم خائفون ولكن خوفهم لا يظهر خوفا بل تحرُّشا وشراسة. تتردد أنباء أن السلطات ستسمح لأهل غرناطة العرب بالعودة إلى ديارهم من منافيهم في قرطبة وأشبيلية وجيّان، يعودون إلى دورهم كيف ... وأين يذهب من سكنوا هذه الدور؟!

تمشى فتُحدق بك العيون، متربصة بالأذى، تسمع بأذنك عبارات "عربى قذر" "كلب موريسكى" فتمضى كأنك لم تسمع شيئا، مرة ومرتين وثلاثة، ثم تمسك بتلابيب القائل فتضربه ويضربك، ويسيل دمه أو دمك.

وفى الصنادقية لا يدور كلام إلا عن ما وقع من شجار، وعن وساطات يقوم بها بعض المتنفذين من وجهاء العرب لإعادة المهاجرين إلى دورهم.

عندما جاء رجال الشرطة وألقوا القبض عليه قدر على أن الرجل الذى تشاجر معه قبل يومين قد تقدم بشكوى ضده. سيحققون معه ثم يخلون سبيله فليست مشاجرته سوى واحدة من آلاف مثلها تشهدها شوارع غرناطة كل يوم.

لم يسأله المحقق عن ذلك بل سأله عن اسمه، ومكان ولادته، وسكنه، ومحل عمله. إذن يتشككون في أنه عاد متسللا إلى غرناطة بعد طرده منها. لم يضطرب؛ إذ كانت معه الأوراق التى استخرجها له خوسيه، وهى تثبت أنه لم يُرحّل من غرناطة بل سُمح له بالبقاء فيها لأنه كان يعمل خبازًا، ولم يكن المرسوم يشمل الخبّازين ، أبرز الأوراق .

في اليوم التالى مَثُل مرة أخرى أمام المحقق. سأله:

– ما اسم والدك؟

أسقط في يده فلم يكن يعرف له اسما سوى هشام فماذا عن اسم التعميد؟!

– ألفاريز

– هذا اسم العائلة، ما اسمه الأول؟

تلعثم

– لا أعرف

– كيف؟

– لأننى تربيت يتيما في كنف جدى وجدتى. ولما كان أبى هو ابنهما الوحيد الذى لم يمنحا من الذكور سواه فقد كانا يشيران له بكلمة "ابنى" وأحيانا يقولان: "أبو على"

– أنت تكذب!

– ولماذا أكذب؟!

– أبوك هشام ألفاريز قاطع طريق خطر يهدد كل العابرين في جبال مالقة وله اتصال بالمغاربة وبقراصنة البحر.

– هل تقصد أنه على قيد الحياة؟!

– ألا تعرف أنه على قيد الحياة؟!

– لم أره في حياتى قط. قيل لى إنه مات قبل ولادتى بأسابيع.

– ولا تعرف عماتك أيضا ؟!

كان هذا آخر ما يتوقع. ردد مأخوذا:

– عماتى؟!

– نعم عماتك !

– لى خمس عمات تزوجن جميعا في بالينسية قبل ولادتى بسنين. لم أر أيا منهن في حياتى، ولكننى أعرف من جدتى أن أربعا منهن رحلن إلى فاس منذ زمن، أما الخامسة فكانت في بالينسيه، ولا أدرى هل بقيت فيها أم لحقت بأخواتها.

– إذن أنت تعرف أنه لك عمة وزوج عمة وأولاد عمة في بالينسية.

– أعرف يا سيدى المحقق. ترى الآن أننى لا أكذب، ما أعرفه أقوله، وما لا أعرفه أقول لا أعرفه.

– زوج عمتك وأبناؤها في بالينسيه أودعوا السجن وهم متهمون بالاتصال بأعداء البلاد من الاتراك والبروتستانت الفرنسيين. كانوا يجمعون المال والسلاح ويبعثون الرسائل إلى أعدائنا لينسقوا بين هجوم الأعداء من البحر وتمرد موريسكى في الداخل.

– لم ألتق بعمتى ولا بزوجها ولا بأبنائها طيلة حياتى. وها أنا أسمع منك عنهم أخبارا لا أملك تاكيدها أو تكذيبها لأننى لا أعرفهم!

– لقد تتبعنا سلوكك وتقصينا عنك فعرفنا أنك تعمل في متجر خوسيه بن عامر وتستأجر دارا يملكها في البيازين. لم نجد في سلوكك ما يثير الشكوك.

واصل المحقق

– نرجح أنك تقول الصدق، ولا شأن لك بهشام ألفارين، ولا بالمتآمرين في بالينسية.

– تطلقون سراحى إذن يا سيدى؟

– سنطلق سراحك ولكن ليس الآن. لن نقدمك لمحاكمة فليس أمامنا ما نحاكمك عليه. سنحتجزك بعض الوقت، مجرد إجراء احتياطى.

"بعض الوقت" فسرها على وهو واقف أمام المحقق بأنها عدة أيام أو أسبوع أو

ربما أسبوعان. وبدا له "بعض الوقت" هذا ثمنا معقولا وربما بخسا لاكتشاف خبايا عائلته. كان أبوه وزوج عمته وأبناء عمته يقلقون السلطات ويهددون أمنها. "بعض الوقت" ليس بالكثير الذى يدفعه مقابل معرفة هذه الخبايا الثمينة.

لماذا دفع بأبيه هكذا في زاوية منسية من عقله فكاد يُسقط أنه موجود. هل كان يخجل منه أم كان يغضبه انه تركه وترك بيته في البيازين ليعيش بين قطاع الطرق في الجبال؟ ولكن أباه – هكذا قال المحقق – يهددأمن البلاد. ابتسم على ثم ضحك ثم راح يتأمل صورة أغفلها ولكنه لم ينسها رغم السنين: الوجه المدبوغ، والجسم المربوع، والمنديل الأحمر المربوط حول العنق، والكيس المخملى الصغير، يودعه في يده ويضمه ثم يمضى فيتابع مشيته الوئيدة وساقه العرجاء.

لم يحك لروبرتو البطل أبدا عن أبيه، هل نسى أم قصد النسيان؟ قال المحقق إن هشام ألفاريز يتصل بمجاهدى البحر، وروبرتو أيضا كان – وهو قاطع الطريق – من بين الثوار. التقى بمحمد بن أمية وحكي له تفصيلا عن لقائه به. قال له روبرتو: "عندما اندلعت الثورة ركبت الأصيلة وذهبت إلى محمد بن أمية. وجدته فتى يافعا وسيما ومهذبا. قلت هذا الولد المُنعَّم لا يصلح. ولكنى مددت له يدى وأعطيته صندوقا به ألف قطعة من العملات الذهبية جمعها رجالى من أجله. قلت له: "سأتى لك بمائتى رجل من الأشداء، مدربين على الكرّ والفرّ" فسألنى: "من أى عائلة أنت ومن أى بلد، وهل من تأتى بهم من أبناء عشيرتك أم من أهل الحرفة؟" قلت له: "نحن قطاع طرق في الجبال، لا عشيرة لنا ولا بلد" جفل وبدا عليه الاضطراب. كدت أمضى غاضبا ولكنى بقيت. ثم حبست مخاوفى وأحضرت رجالى.. وخضنا الحرب تحت لوائه. ليست الحرب نزهة يا على بل تطلب قلبا كالحجر. لم يفهم كان صغيرا مثلك، أخضر العمر والتجربة، قلبه أيضا كان أخضر. اعترض على شراستنا. ضيق علينا فضيقوا هم عليه ثم قتلوه ... ومن

جاءوا بعده راودهم الاستسلام. خافوا، وفقدوا العزم، ولما فقدوا العزم صاروا يتراجعون، ولما صاروا يتراجعون أخذ القشتاليون يتقدمون يحرقون وينهبون ويسبون ويقتلون".

تذكر كلام روبرتو البطل، وتمنى وجـــوده لكي يحكي له عن أبيه وما قاله المحقق عن زوج عمته وأولادها. ولكنه كان في السجن لا يملك أن يذهب إليـــه حتى إن أراد.

في البداية لم يبد له السجن ثقيلا فكان يمازح من معه، يتحدث كثيرا ويضحك كثيرا. ولما طالت الأيام وأصبح "بعض الوقت" شهوراً، أصبح السجن بحجارة جدرانه، وحديد قضبانه، ووقع خطى الحراس فيه، ووجوه من معه في الزنزانة وأصواتهم تكدّره وتثقل عليه فلا يطيق المكان ولا نفسه.

يكره صاحب النبوءات في الزنزانة الذى لا يكف عن إعلان رؤاه فيسخر منه البعض وينصت له البعض الآخر في وجل. كان الرجل ستينيا سقطت أسنانه إلا القليل، نحيل كالعود، غائر العينين، بارز عظمات الوجه، له صوت عال كالنفير. يغفوا ثم يفاجئهم بالقيام. ينزرع وسط الزنزانة مزمجرا: "ويل للأمة الخاطئة والشعب الثقيل الإثم نسل فاعلى الشر أولاد المفسدين. قشتالة يهلكها الله بريح صرصر عاتية يسخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" يعلو صوته مدمدما كالرعد: "ادخل يا عربى إلى الصخرة، اختبئ في التراب حتى تأتى عليهم العاصفة ويبين غصن الرب بهاءً ومجدا وثمرة في الأرض وزينة للناجين."

يجلس ساكنا وتأخذه سنة من النوم ثم يفيق صارخا: "رأيتها الآن، شاهدتها بأم عيني وهي تلقى في الموانئ مراسيها. هاهم الرجال يغادرونها إلى البر، السيوف تلتمع في أياديهم التماعا، يجتاحون، يصيحون الله أكبر، والله في علاه يبارك خطوتهم. افرحوا وتهللوا فالوقت جاء ... الوقت جاء."

يكررها ويضحك، ويكررها ويبكى، ويكررها ويحكى عن الطفل اليتيم الذى ولد بستة أصابع في اليد الواحدة فسجد له حيوان الصحراء، والذئاب، وبنات النعام، وجعل في البريّه الماء أنهارا "هذا الطفل بشير وعلامة أن الله سكب من رحمته على غرناطة ظلا يبارك ذريتها فتنبت مثل العشب، مثل الصفصاف على ضفاف حدرّه وشانيل" يهدر بنبوءاته ثم يهدأ باقى اليوم أو عدة أيام يعود بعدها للصياح من جديد.

في ذلك اليوم لم يهدأ منذ مطلع النهار حتى هبوط الليل.كان مشتعلا بالرؤى يعلنها صياحا يخترق الآذان "اخفض صوتك قليلا، ارحمنا" ولكن الجن في داخله كان متمكنا وجامحا، لا سبيل للتحكم فيه. جلس على منكمشا في زاوية بعيدة يغالب رغبة تلح في أن ينقضّ على الرجل ويسكته عنوة. الصوت يضرب في رأسه ضربا يكاد يحيله للجنون،كتم فمه برسغ يده لكى لا يصرخ، يكتمه أكثر ولكن الصرخة تنفلت منه فيسمعها، يصيح وينتبه حين ينبهه الآخرون أن أسنانه مغروسة في رسغه، وأنه جرح نفسه جرحا غائرا وأن دمه يسيل.

تتشابه أيام السجن، تتعاقب كابية وخانقة سوى أيام تهب عليه نسمة شرقية. يفتح السجان الباب ويعطيه لفافة ويقول: "تركتها لك العبدة السوداء التى تأتى للسؤال عنك". تحضر إليه فضة في ظلام سجنه، متألقة ودافئة، ومضات حلم ناعم يرى فيها وجهها الأبنوسى العريض، وتلك الرجفة المعلقة على الشفتين بين أسى وابتسام، والنظرة الشاردة. كانت فضة تأتى للسؤال عنه، تحمل له في كل مرة طعاما هو رسالتها المنتظمة إليه، يقرؤها فيهدأ.

- ٢٢ -

غادر على بوابة السجن وقد انقضى "بعض الوقت" الذى قرروه له، وكان قد أمضى في الحبس ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة أيام.

تطلع فأخذت عيناه بالضوء، لم تكن الشمس مشرقة، ولكن الفضاء كان مضيئا بضوء نهار شتائى تكسوه الثلوج. أسرع الخطو إلى بيته لكى يوقد نارا يتدفأ بها، ويسخن ماء ليتحمم، ويقص شعره ولحيته ويذهب إلى دار دون بدرو ليعلم فضة بخروجه.

وجد الباب مغلقا بقفل جديد عليه، ثم انتبه إلى اللوح الرخامى المثبت يمين الباب، كان اسم خوسيه بن عامر محفورا عليه بخط قوطى مزخرف. تسلق السور وقفز إلى داخل الفناء وأوقد نارا وتحمم ونام نوما عميقا.

قام من نومه جائعا فلم يجد ما يأكله، ارتدى ملفّه الصوفى وغادر الدار قفزا من على السور. مشى إلى الساحة القريبة، واشترى طعاما، وأكل، ثم هبط إلى رصيف حدّره ومنه إلى السوق قاصدا حارة الصنادقية.

رفع خوسيه حاجبيه دهشة ثم ابتسم:

- حمد الله على السلامة!

- رأيت القفل على الباب!

تنحنح خوسيه ثم قال:

- اسمع يا على: ساعدتك، وذللت لك صعابا ما كنت تملك التغلب عليها بدونى. الآن، ليس بإمكانى مساعدتك، أنت خارج من السجن، ولا أريد لنفسى الشبهات.

– وهذا يعنى؟!

– إذهب للعمل في أى مكان آخر.

– والبيت؟

– البيت صار لى، وهو مسجل في البلدية باسمى.

– ليس بإمكانى الإقامة في البيت؟

– لا!

– نلتقى لاحقا، إذن، يا خوسيه!

لم يكن منفعلا ولا غاضبا ذلك الغضب الذى تشتعل في الصدر ناره فيتفزز البدن بالرغبة في الصياح أو السباب. مشى مبتعدا في هدوء وقد حسم أمره وقرر.

عاد إلى البيازين، ودخل البيت بنفس الطريقة التى دخله بها في اليوم السابق، تشاغل بتنظيف الفناء وترتيب الحجرات حتى غربت الشمس.

نزل إلى رصيف حدرّه، انتظر بين الأشجار. كان المارة قليلين والثلوج تغطى الرصيف. رآه مقبلا يمشى بخطواته الوئيدة، ولما صار على بعد خطوات منه قفز خلفه، وكمم فمه بمنديل، ربطه ثم أحاطه بذراعيه وجذبه بقوة متوغلا بين الأشجار. دفع ظهره إلى جذع شجرة، وطوّق عنقه بذراعه الأيسر، وبيده اليمنى أخرج السكين من ثيابه وقربه من عنقه. قال:

– أقسم برب الكعبة انه لولا ذكرى أبيك لغرست هذا السكين في عنقك، وذبحتك غير نادم. اسمعنى يا خوسيه جيدا. سأعود الآن إلى دار البيازين فهى دارى أبقى فيها ما حييت. إن حلت بينى وبينها أقتلك، وإن وشيت بى للسلطات يقتلك رجل من رجالى، وهم عديدون وأنت لا تعرفهم!

كان خوسيه ينصت، لا يبصر على تفاصيل وجهه ولكنه يشعر بالرجفة في بدنه وبالعرق المتصبب منه. قرب على السكين أكثر، قال:

– الآن تذهب إلى بيتك وتأتى بمفتاح القفل وتقف في انتظارى عند بيت البيازين. إن لم تأت اعرف أنك اخترت الموت، ولا تقل إننى لم أنذرك!

أرخى على قبضته وفك الرباط عن فم خوسيه وقال وهو يمضى مبتعدا!:

– في أمان الله يا خوسيه!

تباطأ في العودة إلى البيت. وعندما دخل الحارة رأى خوسيه يقف بجوار الباب في انتظاره.

في المساء جاءته فضة. جلس أمامها معقود اللسان لا يدرى كيف ولماذا، وقد بدا له أن لديه كلاما كثيرا يريد أن يقوله لها. لم يكن يتطلع مباشرة إليها بل كان يسترق النظر بين حين وآخر إلى وجهها. كيف لم يلحظ أبدا هذا الوشم القديم على شفتها السفلى يميز وجهها ويزيده جمالا. قالت:

– كنت أدعو لك يا سى على، كل يوم كنت أدعو لك.

قال ممازحا:

– واستمع الله لدعواتك ياخالة فضة فلم أمض في السجن سوى ثلاثة أعوام ونصف!

– إحك لى عن السجن يا سى على.

حكى، قالت:

– أحيانا أقول أن الحياة تقسو بلا معنى ولا ضرورة، وأحيانا أقول حظنا منها، وإن ساء، أقل قسوة من الآخرين، أقل بكثير.

تنهدت فتطلع إليها على مستوضحا. قالت:

– الدون بدرو يطلب أحيانا ما يطلبه السيد من امرأة يمتلكها، ولا أملك له ردا. أقول يارب لماذا تحملنى مالا أطيق، ثم أعود فأقول إننى أفضل حظا من الأخريات اللاتى يشغلهن أسيادهن ويفرضون عليهن القيام بذلك الفعل في بيوت السوء والفنادق للتكسب من ورائهن. إنهن تعيسات الحظ بائسات.

قال على بضيق وقد بدا له الخوض في هذا الموضوع وعرا ومحـــرجا ولا داعى له:

– ليس الأمر مجرد سوء حظ، إنهن نساء ساقطات اخترن السير في طريق بطّال!

– لم تختر أى منهن شيئا!

قالتها بحسم زاده ارتباكا على ارتباك فقال قاصدا أن يغير مجرى الحديث:

– احكى لى ما الذى حدث في غرناطة بعد رحيلنا.

– لم يحدث شئ!

لفهما الصمت. لم يجد ما يقوله، فبدا موزعا بين رغبته في أن تبقى وتتحدث معه، وإحساس بالحرج وتوتر لا يدرى لهما سببا يجعله يفضل أن تمضى وتتركه وحده. لماذا تشرد عيناها وهو جالس معها فيبدو وكأنها لا تراه؟! قال:

– سمعت أنهم عندما انتهت الثورة أتوا بجثة مولاى عبد الله إلى غرناطة ومثلوا بها.

– فعلوا ذلك.

– ماذا فعلوا؟

– وضعوا جثته على بغل يتقدم موكبا كبيرا يحيط به الطبل والزمر ومن ورائه صفوف أسرى البشرّات الذين بيعوا بعد ذلك في المزاد.

– أسرى كثيرون؟

أومأت برأسها

– وبعدها؟

– قطعوا رأسه ووضعوها في قفص حديدى رفعوه إلى جهة البشرّات. وظل معلقا لشهور عديدة، يبصره الرائح والغادى وتحيط به غمامة من الغربان الناعقة. أما الجسد فقد أحرقوه على الملأ في الساحة.

– فضة .. هل تقبلين الزواج منى؟

فاجأه السؤال الذى نطق به لسانه، وفاجأها ... لم تجب قالت وهى تقوم :

– سأذهب يا سى على.

أوصلها إلى الباب، تلح عليه الرغبة في أن يقبل رأسها أو يديها، لم يجرؤ. مضت وأغلق الباب.

لم تجب فضة على سؤاله، لماذا لم تجبه، لانها لا تريده أم لأنها فوجئت بعرضه تماما كما فوجئ هو به؟ وما الذى كان يفعله لو وافقت على عرضه، هل كان يفرح ويمضى في تنفيذه أم يشعر أنه تورط في أمر لم يسع إليه ولم يفكر فيه؟ لم يكن مخمورا فما الذى حدث لكى يفاجئه لسانه بما لا يعنيه أو يقصده؟

قضى على ليلته بلا نوم. كان مضطربا من عرضه الزواج على فضة، ومن صمتها غير المفهوم، ومما قالته عن العلاقة بينها وبين دون بدرو. جفل من الكلام، أوجعه ثم أغضبه. فالحرة لا تسلم نفسها لرجل غريب ... مهما كانت الظروف ... باستطاعتها أن تحمى شرفها ولو بالموت. أشارت فضة للأمر بشكل عابر كيف؟ ودافعت عن الداعرات؟!

كانت جدته قد حذرته من أولئك النساء، "لن أصفهن لك يا على ... ستتعرف عليهن وحدك ... يختلفن عن باقى النساء فيسهل التعرف عليهن ... إياك والاقتراب منهن يا بنى، إن تلمح واحدة منهن في طريق فاستدر واسلك طريقا آخر، وإن دخلت خاناً أو اضطرتك ظروفك للمبيت في فندق فابتعد عن القسم الذى يترددن عليه أو يقمن فيه"

لم يكن قد تجاوز الثالثة عشر من عمره عندما قالت له جدته هذا الكلام الذى ملأه فزعا ونفورا فكانت رؤيته لامرأة منهن، يفضحها عطرها الثقيل، ومغالاتها في التبرج والزينة يثير في بدنه قشعريرة فيغذ الخطو مبتعدا كأنما يصيبه سوء من

مجرد الرؤية بالعين. ولكن فضة قالت إنهن بائسات، تعيسات الحظ ، فانزعج وعندما أراد أن يحول مجرى الحديث لم يجد عقله سوى بسؤال عن نهاية زعيم الثورة، فاستجلب بسؤاله ضيقا على ضيق. فهل كان خائفا ساعة حاصرته الهموم واستحكمت من حوله حلقاتها فاستجار بها قائلا: "فضة هل تقبلين الزواج منى؟" أم عز عليه أن يُحملها رجل غريب مالا تطيقه من فعل حرام؟ أم أنه يريدها لأنه يريدها وقد شاغلته صورتها في السجن أياما وليالى، في الصحو وفي المنام؟ كان يجلس أمامها يتطلع إليها لا تفوته اختلاجة من اختلاجات وجهها، وحركات اليدين والرأس لو مالت، والجذع إن تحرك ولو حركة خفيفة تكاد لا ترى. تشرد عيناها ثم تعودان، فيلحظ لحظة شرودها ولحظة الحضور بعد الشرود . تتنهد فينتبه للشهيق وللزفير، يلوح على شفتيها الابتسام فيلتقط انفراجة الأسارير ورجفة الشفتين والابتسام . هل صار يعشقها، ولكن كيف ومتى؟!

فاجأته مساء اليوم التالى بالزيارة ، سمع الطرق على الباب فقام ليفتح متساءلا: من يكون الطارق؟ هتف مأخوذا حين رآها. دخلت وأغلق الباب. ثم ظل واقفا يتطلع إليها معقود اللسان كأنه نسى الكلام. سمعها تقول: "سى على" ورآها تمد كفيها إلى وجهه تمسح دموعا لم ينتبه لها ... فتح ذراعيه وضمها. ضم رأسها واحتضنه في صدره ثم قبله، وقبل جبينها وجديلتيها ثم انحنى على يديها وقبل ظهر الكفين وباطنهما. أمسكت رأسه وتطلعت في وجهه فالتقت العينان بالعينين فجمحت الروح في وصل الشفاه.

امرأة أم حياة فتحت له بابها وأطلقته حرا متوهجا بالحياة ؟! يمر بكفيه على جسمها فيرى في سواده الحالك مرآة روحه مضيئة ومجلوة. يضحك فتضحك. تدمع عيناها فيرتقى إليها. امرأة أم بحر وفاض ينشر قلوعه ويمضى في مركب

الحس مبحرا فيه، يطوى قلوعه ويُلقى بمراسيه على شطآنه ويسكن. يتطلع إلى وجهها يقول:

– هل تتزوجينى يا فضة؟

تقبل جبينه وتربت على رأسه ولا تجيب على السؤال.

-٢٣-

لم يكن قد مضى على خروجه من السجن سوى شهر عندما جاءه إدواردو، وأخبره أن صبيا من العاملين في المتجر سمع خوسيه يتحدث عنه مع غرباء كانوا في زيارته.

– يُدَبر لك خوسيه مكيدة ما، وقد تجد نفسك متهما من قبل ديوان التحقيق. خوسيه لا يتورع عن ذلك، إنه حقير وأنت تعرف.

– ولكنه لا يستطيع أن يكشف لهم أمر الأوراق فهو الذى دبرها. وتهمة التزوير تنطبق عليه كما تنطبق على.

– لن يشير إلى الأوراق. سيلفق لك تهمة من نوع آخر. يدعى أن لك اتصالات مريبة أو أنه سمعك تردد كلاما فيه كفر وهرطقة.

– لقد كنت في السجن فمن أين لى بالاتصالات؟

– قد تدفع سنوات أخرى من عمرك في السجن حتى تنجح في إثبات ذلك.

– وما العمل الآن؟

– إهرب!

– إن هربت يأخذ البيت!

– وإن بقيت يقبضون عليك!

ذهب إدواردو، وراح على يقلب البدائل ويجتهد. قد يأتون الآن أو بعد ساعات حين يتوغل الليل، فما الذى يفعله وكيف يتدبر أمره؟ وقد لا يأتون فيكون الولد قد

أساء فهم ما سمعه من الكلام. فهل يهرب من داره كالأرنب المذعور بلا داع ولا ضرورة؟! هل يدق باب الجارة ويطلب منها أن تسمح له بقضاء الليلة عندها فيتمكن من مراقبة ما يحدث من وراء نافذتها؟ إنها أرملة ترعى سبعة عيال نزلت البيازين مؤخرا، أثناء وجوده في السجن على الأرجح، لا تعرفه ولا يعرفها، ستستغرب طلبه وتتوجس منه. لو كان الوقت صيفا لقضى الليل في العراء مختبئا وراء السبيل عند مدخل الحارة يراقب ولكنه الشتاء القارس يقص العظام قصا. فليكن، ارتدى ثوبا على ثوب، وتدثر بملفه الصوفي، ورفع الحرام الثقيل عن فرشته وطواه وأحاط به كتفيه وجذعه وخرج إلى الحارة وقد قرر أن يقضي ليلته يقظا ينتظر.

كان يغفو وهو واقف عندما سمع وقع أقدامهم فانتبه. كانوا ثلاثة يقتربون في الظلام. توارى وراء السبيل حتى تجاوزوه. دخلوا الحارة. سمعهم يطرقون الباب ثم كسروه. مرّ الوقت بطيئا وثقيلا وهو ينتظر، ثم سمع وقع أقدامهم، ثم رآهم وهم يتجاوزونه ويختفون في الظلام.

ركض إلى البيت ومازال يمني نفسه أنهم جاءوا يقصدون سواه، ولكن الباب كان مكسورا ومشرعا. إذن صح الكلام ولم يعد من الرحيل بد.

للحظات ألحت عليه فكرة أن يبدأ بالذهاب إلى خوسيه، يغرس سكينا في صدره ثم يمضي. يقتلني بالرحيل فلم لا أقتله؟! أكرمني أبوه وأحبني، وأمه عجوز طيبة القلب وأخته وردة. وقد يمسكون بي ويحكمون بالموت علي. لن يدفع عمره ثمنا لعمر خوسيه. لم يعد من الرحيل بد. لن يأتوا ثانية هذه الليلة وفي الصباح سيذهبون للبحث عنه في الصنادقية بعدها قد يعودون ثانية إلى البيازين. أمامه ساعات معدودة لتدبر أمره. وفضة ... هل يتركها؟ كيف يبلغها؟

راح يجمع الضرورى من أغراضه. وصندوق جدته؟ والكتب؟ برقت الفكرة في رأسه فشرع على الفور في تنفيذها . فتح الخزانة وفتح الصندوق، وأخذ ينقل الكتب من الخزانة إلى الصندوق ويصفها فيه.

خرج إلى الفناء وأمسك بالفأس وبدأ يحفر في بستان جدته. أزاح الثلج ثم التراب وواصل العمل حتى صارت الحفرة مستطيلا غائرا في الأرض. دخل البيت وحاول أن ينقل الصندوق. لم يقدر على زحزحته. أخرج الكتب منه ثم حمله وأنزله في الحفرة. ثم عاد إلى الكتب وراح ينقلها المرة بعد المرة ، أغلق الصندوق ثم حمل الفأس وأخذ يهيل عليه التراب. سوّى الأرض تماما فعادت كما كانت جزءا من الفناء مغطى بالثلوج، لا يشى لعين مهما حدقت بالسر المخبوء فيه.

وفضة؟ هل يذهب الآن إلى بيت دون بدرو ويطرق باب الخدم ويلتقى بها وليكن ما يكون؟ لن يطيق لحظة الوداع. هل يمضى هكذا فتقول هجرنى على فلم يكلف نفسه إبلاغى بسفره والسلام على؟ هل يكتب لها مكتوبا؟ وما الذى يقوله في مكتوب ستبحث في الأسواق عن شخص يقرأه لها؟ هل يقول أحبك ولكننى اضطررت للرحيل فيبقى رحيله غير مفهوم ولا مبرر أم يفهمها أن ديوان التحقيق يتعقبه فيلحق بها الشبهات؟! سبّ خوسيه وغرناطة ونفسه والأرض والسماء ثم جلس منهكا وحائرا وعاجزا .

اندفع محموما يبحث عن ورقة، ورقة بيضاء، لابد من ورقة، لابد .. وجدها . وضع القنديل بجواره وقرفص على ركبتيه وأسند الورقة على المصطبة وراح يكتب:

أمى الحبيبة

اغفرى لى تأخرى في الكتابه لك طوال الأعوام الماضية. والسبب أننى رحلت من مالقة إلى تونس. وبعد أن نزلت تونس رحلت مرة أخرى إلى الإسكندرية حيث استقر بى المطاف. والإسكندرية يا أمى مدينة كبيرة في مصر وهى تقع على نفس البحر الذى تقع عليه مالقة والمرية.

ولقد وفقنى الله في عملى فتزوجت منذ عامين وصار لى ابنة أسميتها فضة تيمنا باسمك يا والدتى.

إن لم تصلك رسائل منى فلا تقلقى فالبريد مقطوع بين الإسكندرية وغرناطة، ولولا المصادفة التى جعلتنى ألتقى بشخص من جنوا قال إنه يقصد غرناطة لما تمكنت من إرسال هذا المكتوب.

ادعى لى يا أمى واعرفى أننى لا أنساك أبدا .

ابنك البار فيديريكو

مسح على العرق عن جبينه وقرأ الرسالة التى كتبها ثم طواها ثم أحصى ما معه من المال وقسمه نصفين، أودع نصفا في جيبه ووضع النصف الآخر في كيس مخملى من الأكياس الثلاثة التى أعطاها له أبوه. ثم انتظر طلوع النهار.

غادر البيت وهبط إلى رصيف حدرُه. أوقف أول صبى يمر بالطريق وقال له وهو يفتح قبضته ويريه ما فيها من دراهم:

– سأطلب منك خدمة، وفي مقابلها أعطيك هذه الدارهم.

– لا أستطيع التأخر عن عملي، هل ما تطلبه يستغرق وقتا طويلا؟

– أترى هذه الدار؟ – أشار على إلى دار دون بدرو – أطرِق على هذا الباب الجانبى الصغير وأسأل عن فضة، أعطها هذا المكتوب وهذا الكيس. لا تقل إننى أعطيتك الرسالة. إن سألت قل لها إن شخصا غريبا من جنوا كان يسأل عن دار الدون بدرو وعندما قلت له إنك تعرف الدار طلب منك أن توصل الرسالة والكيس إلى سيدة تدعى فضة هناك.

وقف على يراقب الصبى وهو يطرق الباب الجانبى الصغير ورأى الباب يُفتح. لم يتمكن من موقعه من رؤية فضة، ولكنه رأى الصبى وهو يسلم الكيس والرسالة ويتحدث. ثم انغلق الباب وعاد إليه الولد راكضا. أعطاه الدراهم وشكره وصعد إلى البيازين.

حمل أغراضه وغادر البيت دون أن يلتفت وراءه.

الرحيل

- ١ -

وقف على فى باحة الدار وتطلع إلى السماء. كانت صافية تلتمع بما لا حصر له من النجوم: "يا الله حجابك رغم هذه السماء الصافية كثيف. توّجتنى بتاج العقل، وأبقيتنى طالبا فقيدا يعجزه المسطور في الكتاب. هل أودعت يارب القلب جواب السؤال؟ وكيف لى أن أشق صدرى، وأغسل قلبى من كل شائبة فيصفو كما المرآة وينجلى فأشاهد فيه معنى الحكاية والهدف؟!"

تربّع تحت النخلة وأسند ظهره إلى جذعها فغفا. رأى في المنام حلما تجمعت فيه الأضداد. ولما استيقظ لم يذكر إلا أنه ضحك ثم بكى ثم طرب ثم عاد ينتحب، وأفاق وعلى شفتيه كلمات:

يا طالبا لطريق السر تقصده إرجع وراءك فيك السر والسنن .

فلما كررها على نفسه انتبه إلى أنها بيت من الشعر. حاول أن يتذكر من قاله أو متى سمعه فلم يفلح. فقام ودخل البيت ليعد نفسه للرحيل.

★★★

وصل القرية قبل سبعة وعشرين عاما. رحل من غرناطة فقصد بالينسية ليبحث عن عمته وعن مكان يقيم فيه. وفي بالينسية أخبروه أن عمته انتقلت إلى قرية عينّوها له بالاسم ووصفوا له سبيل الوصول إليها.

كانت الطريق إلى الجعفرية تتجه جنوبا وتغرّب. والطقس في نهاية الصيف ومطالع الخريف، تتخلل أشعة شمسه عروق الزيتون. وكروم العنب تمتد على مدى البصر في تربة أدهشه أحمرها كأنها شئ سوى التراب، ينبت فيها غير العنب والزيتون توت وليمون وبرتقال وصبّار.

تطالعه تلة جرداء أو جبل صخرى يقطعه فتلاقيه خضرة الزرع من جديد. ثم فاجأه النخيل. لماذا يألف المسافر النخيل؟! لأنه فارع الطول كرماح أجداد راسخين أم لأن الجمال يؤنس وحشة الروح حين ترى العين الجمال غابة نخيل مكللة جذوعها بالسعف العميم، والعراجين تسخو مثقلة بالثمار؟

يفارق النخيل متوجسا من الأرض العراء، يصعد جبلاً أو تلة، ثم يهبط رويدا رويدا ليكتشف بعد السعف الجذوع.

رأى الجعفرية من الوادى. كانت صغيرة بيضاء، معلّقة على السفح، مسوَّرة بالكروم والزيتون. صعد إليها صعودا مع السكة المتعرجة. كانت في حجم نصف البيازين، تتكاتف بيوتها في أزقة تلتف صاعدة إلى ساحة فيها بعض الحوانيت، وأطلال مسجد صغير تهدمت مئذنته، وتحول صحنه إلى مخزن للأخشاب. وفى الجهة الأخرى تنحدر الأزقة انحدارا حادا إلى الوادى، يشقه مجرى ماء شُيِّدت على ضفته طاحونة وفرن ومعصرة. وعلى مسافة في أعلى نقطة مشرفة على المكان قلعة قديمة متداعية، يجاورها قصر صغير وحفنة من بيوت.

سأل صبية يلعبون في الساحة عن دار شيخ القرية.

– هل تسأل عن سيدى عمر الشاطبى؟

لم يكن يعرف الرجل ولا سمع عنه. قال:

– نعم

فقاده الصبية إليه.

كان عمر الشاطبى بين الأربعين والخمسين، قصير وبه امتلاء، غزا المشيب فوديه، وانحسر شعر رأسه كاشفا عن جبين واسع لوجه مدّور أبيض البشرة، دقيق الملامح، حتى العينين كانتا صغيرتين سأله الرجل وهو يقوده مرّحبا إلى داخل الدار:

- متى تركت غرناطة؟

استغرب السؤال:

- كيف عرفت أننى من غرناطة؟!

ضحك، قال:

- لا يحتاج الأمر إلى فراسة يا ولدى، تتكلم بلهجة غرناطية خالصة!

بعد الترحاب وحديث المجاملة قال على:

- ذهبت إلى بالينسية لأبحث عن عبد العزيز الطاهر فقالوا لى إنه وأولاده انتقلوا إلى هذه القرية منذ سنين، فهل تعرفهم؟

- أعرفهم حق المعرفة ولكنهم تركوا الجعفرية منذ عامين ورحلوا إلى فاس.

- رحلوا؟!

تكتشف أن الحارة مسدودة فتدير لها ظهرك ببساطة وتعود أدراجك لتدخل حارة غيرها تقودك إلى مقصدك. لم تكن حارة مشى فيها خطوات معدودة بل طريقا وعرة، يصعد المرتقى العسير، ينحدر إلى الوادى، يتوارى عن العيون، يجوع ويعطش ويواصل رحلته من غرناطة إلى مُرسية، ومن مُرسية إلى بالينسية، فيدلونك على الجعفرية فتمشى إليها تمنى نفسك أخيرا بالوصول، فيقول لك شيخ البلد بكل هدوء إنهم رحلوا فيقطع عليك بالخبر الطريق. عليك أن تدير ظهرك الآن ... تعود أدراجك إلى ... أين؟!

- لماذا تسأل عنهم؟

- عبد العزيز الطاهر زوج عمتى. لى خمس عمات تزوجن جميعا من دار الطاهر.

قام عمر الشاطبى واحتضنه ورحّب به أكثر وبعد أن ضيّفه بالعشاء حكى له، قال:

حتى عام ١٥٢٦ كانت عائلة الطاهر تسكن بلنسية العاصمة. كانوا أثرياء

ومتنفذين، منهم القاضى، ومنهم الأمين، ومنهم التاجر موفور المال. ولما تبدّل الحال وفرضوا علينا ما سبق وفرضوه عليكم في غرناطة هاجر معظم أفراد العائلة. لم يبق منها في بالينسية سوى زوج عمتك عبد العزيز وابن عمه، ثم انتقلا بزوجيهما وأولادهما إلى الجعفرية واستقروا فيها.

ولما كان عبد العزيز صاحب تجارة كثرت أسفاره وتنقلاته بين مدن شرق الأندلس بل وسافر مرتين إلى خارج البلاد، شكّوا في أمره وألقوا القبض عليه وعلى ثلاثة من أولاده واتهموهم بالاتصال بالفرنسيين والتآمر على المملكة. ولم يتمكن زوج عمتك من إثبات براءته وبراءة أولاده إلا بعد سنة قضوها في الحبس. فلما أفرج عنهم أصر الأولاد على الرحيل فرحلوا.

قضى على ليلته في دار عمر الشاطبى. في الصباح قال:

- سأرحل

- إلى أين؟

- لا أدرى، ولكن بلاد الله واسعة.

- ابق معنا.

كل شئ في هذه الحياة مقدّر، وكل خطوة نخطوها مكتوبة في اللوح المحفوظ. جاء إلى الجعفرية ليسأل عن عمته وكان مقدرا له أن يبقى فيها.

يتلمس الغريب المكان، يتعرف ببطء عليه، وتبقى المسافة لتؤكد غربة المكان وغربته فيه.

ولد في مدينة ونشأ فيها، وألف بدلا من النهر الواحد نهرين، وبدلا من القنطرة قناطر. الطرقات واسعة والعمائر ممتدة، والتلة الحمراء تشرف على المكان بأسوارها وقصورها وأبراجها. وكاتدرائية هائلة إن تمر ببوابتها الحديدية مرورا تتيقن أنك في مدينة. والحرفيون بلا حصر، لكل حرفة حارة مزدحمة بالباعة

والشارين وصخب تجارة وحياة: الصنادقية والعطّارين والفخّارين والنحّاسين وسوق الحرير . لا قيصرية هنا، لا شارع للسقاطين، ولا أرباض بل حفنة بيوت متكاتفة تصب جميعا في ساحة صغيرة سوقها يوم الخميس، والباعة فيها معدودون يبسطون بضاعتهم في اليوم المعلوم فيشترى منهم أشخاص يعرفونهم ويعرفون بعضهم أصلا وفصلا.

كان معظم أهل الجعفرية من المزارعين. والأرض لهم يحرثونها أبا عن جد، وكان عليهم رغم ذلك أن يدفعوا إيجارا وضرائب للمالك الإقطاعى. كيف؟ بدا له الأمر صعبا يستعصى على الفهم في أيام وأسابيع.

كانت لهجته غريبة فيشيرون إليه بالغرناطى، وكان يجتهد في فهم سنتهم وقانونهم. يخالطهم في النهار وفي الليل يغلق باب الدار فتلحّ عليه البيازين، ورصيف حدره، وأسواق غرناطة. يشقيه الحنين. ثم تمر به الأيام فينتبه ذات صباح أنه وهو الغريب لم يعد غريبا . صار يزرع الأرض، وينتظر موسم الزيتون ليسد دينه، ويشترى كسوته، ويؤمّن خزين الدار. يضجّ بيوم السخرة، ويسب ويلعن مالك الأرض واليوم الذى تملّك فيه. يغضب ثم يهدأ ويواصل مثلهم الحياة. يضحك ويعلن الفرح بالرقص والغناء لأن جيش الملك انهزم، هزمه الأتراك أو الفرنسيون أو الأنجليز.

لم يكن قد أمضى في القرية سوى عامين أو ثلاثة عندما طلبه عمر الشاطبى، وأوكل إليه مهمة تعليم الصغار، فصار الصغار يأتون إلى داره في الأسبوع مرتين يعلمهم اللغة العربية، ويراهم يكبرون يوما بعد يوم. يلحظ ذلك في تحسن خطوطهم على اللوح، في طلاقتهم في الإلقاء، في سؤال فطن يطرحه أحدهم، وفي ثياب ضاقت أو قصرت على هذا الولد أو ذاك . يأتون ثم يذهبون ليأتى غيرهم، وأيضا يذهبون. ثم يلتقى بأحدهم هنا أو هناك فيدهشه أن سنوات معدودة لم تغير من

مظهره شيئا بدّلت الصبى تبديلا: خط شاربه، ونما جسمه وطال، وصار يمشى كالرجال، يفضى له بِهَمٍّ من همومه أو يطلبه اعتزازا ليرافق أهله لطلب العروس. يستغرب ثم ينتبه أن السنوات تعبر بهم طفولتهم، وتعبر به شبابه فيكتهل، كيف لكهل أن يعشق طفلةً طفلة؟!

كان جالسا في بيته ومن حوله الصغار يعلِّمهم. سمعوا طرْقا على الباب، فقفز ولد ليفتح ثم عاد راكضا، قال:

- بالباب صبية!

- صبيةٌ؟!

جاءت لتطلب أخاها لأمر ما. نادى على الولد وغادرا معا.

وقف يتابع خطوتها المتعجلة، وضفيرتها السوداء تتمايل مع تمايل جذعها على ثوب أحمر عليه نقش ورود بيضاء. بقى يرقبها حتى غابت مع انعطافة الزقاق ثم عاد إلى الدرس.

في الفراش عاوده وجهها: شعرها فاحم أسود مطروح للخلف يكشف جبينها العالى، كثيفة الحاجبين، والعينان واسعتان مكتحلتان برموش سوداء طويلة. تطلعت إليه وهى تسأل عن أخيها فأُخذ بالنظرة الصريحة. كانت تقف مشدودة الجذع، مضمومة القدمين كجندى مستنفر. وبدت نبرة صوتها قوية واثقة. الوجه مرآة الروح، وفي هذه الصبية شئ من ماء النبع يندفع بقوة آسرة، تشعل فيه نار العشق ولوعة السهاد. أى عشق، وأىّ سهاد، ما العشق نظرة، وهذه طفلة لا يعرف حتى اسمها، ماله وقد تجاوز الثلاثين وطفلة! نحّى صورتها وفكرتها وأغمض عينيه ونام. آتته في المنام.

ما الذى يقوله أهل القرية عنه وهو يذهب كل يوم إلى حيث تذهب النساء، ينتقل من الفرن الكبير إلى الفرن الصغير، ومن المعصرة إلى الطاحونة إلى مضرب الأرز إلى عين الماء؟ لا يحمل بين يديه حاجة يقضيها سوى رغبة تلح في رؤيتها.

يستغرب هذا العشق الذى لا يسعى إلى لمسها وضمّها وتذوق الشهد من شفتيها. لا تطلب روحه سوى رؤيتها، وكأن الرجل فيه عاد إلى الصبى الذى يكتفى من عشق وردة بالنظر.

اسمها كوثر. عرفه بالتحايل والالتفاف حول السؤال جمع نتفا من هنا وهناك، ولكن عيد الحلاّق زوده بالقدر الأكبر من المعلومات. قال:

- بنو تهامة نزلوا الجعفرية منذ مائة وخمسين عاما. قبلها كانوا يسكنون العاصمة، ولما اشتعلت الفتن وأحرقوا الحى العربى في بالينسية انتقلوا إلى هذه القرية. ويقال إنهم كانوا أثرياء وأصحاب نفوذ حتى في ظل ملوك الروم. هاجر إلى تونس معظم بطونهم ولكن مَن بقى منهم احتفظ بعصبيته، لا يزوجون بنتا لغريب، ويواجهونك مجتمعين لو اختلفت مع واحد منهم.

لماذا تسأل يا سى على، هل تعرقلت في مشكلة مع واحد منهم، أم تريد أن تتزوج صبية من صباياهم؟ لو تشاجرت مع أى منهم فقل على روحك السلام فهم شرسون، وفي كثرة عددهم عزوة. مشهود لهم بالشهامة والكرم ولكنهم يبطشون ساعة الخلاف. من الأفضل أن تحل مشكلتك معهم بالمعروف وإن كنت تريد مصاهرتهم فاصرف النظر لأنهم لا يزوجون بناتهم إلا لأبنائهم. وعندما حرّمت السلطات الزواج من الأقارب المباشرين صاروا يزوجون الصبية من ابن عم أبيها أو من ولد من أولاده. لماذا تسأل؟

- لى تلميذ درّسته يريد مصاهرتهم

- بنت مَن التى يطلبها؟

- لا أدرى يا عيد، قال: صبيّة من دار التهامى.

- لن يعطوا ابنتهم لغريب!

- أرهقتنى يا عيد، خلخلت سِنّى ولم تخلعه!

- سأخلعه حالا.

جذب عيد السن بقوة واقتلعه. ناول على الجرة، وقال :

– تمضمض.

متى تخرج كوثر، متى تعود، والأماكن التى تتردد عليها أملت عليه نظام يومه. يراقبها من بعيد ولو لدقائق معدودة، يتزود بالنظر إليها. يذهب إلى المدينة لقضاء حاجة فيضنيه البعد، يقضى حاجته على عجل أو لا يقضيها لأنه ما عاد يطيق يوما آخر لا يراها فيه إلا بعين الخيال.

ما الذى حدث؟! أين ذهبت كوثر؟! لم تغادر دارها يوما ويومين وثلاثة. وأخوها أيضا تغيّب عن الدرس. قال للصبية: "اسألوا عن زميلكم" . ولما جاء الولد بدا شاحب الوجه زائغ العينين. "هل كنت مريضاً يا غياث؟" نفى ثم قال: "بل كنت مريضا" .

ذهب على إلى عيد الحلاق. تحدث معه في مواضيع شتى إلى أن وصل إلى ما جاء من أجله من كلام. قال عيد:

– ألم يصلك الخبر؟

– أى خبر؟

مال عيد عليه وهمس في أذنه، لم يكن في المكان غيرهما ولكنه همس:

– سأسِرّ لك بأمر ولكن اقسم لى أولا ألاّ تفشيه. فلو علم أحد منهم أننى مصدر هذا الكلام قطعوا رأسى. أى والله يقطعون رأسى!

– لن أنقل أى شئ مما تقوله لى.

– إقسم برب الكعبة

عنّ لعيد فجأة أن يراعى الكتمان وهو الذى يعمل على مدار اليوم كالطاحونة في إذاعة الكلام.

– أقسم برب الكعبة أن أصون كل ما أسمعه منك.

– أعرف يا سى على أن السر عندك محفوظ، وما دفعنى لهذا الحرص سوى

خوفي منهم. إسمع :

عاد عيد يهمس:

– يقولون أن أبا الطيب اكتشف أن ابنته

– كوثر ؟!

– كوثر أختها التوأم، أما صاحبة المشكلة فهى أختها سلسبيل، اكتشف أبوها أنها تخرج لملاقاة شاب من عائلة موسى، فأصبحت المصيبة مصيبتين فبين العائلتين ثأر قديم وعداوات متجددة. يقول البعض إن أبا الطيب عرف أن ابنته تلتقى بالشاب والبعض الآخر يقول إنها كانت حبلى، والله أعلم.

حين عرف الأب بما عرف أخذ ابنته وابنه البكر وسافروا. تغيبوا أسبوعا ثم عاد الولد وأبوه، ولم تعد معهم سلسبيل. قالا إنها أصيبت بحمّى وماتت. ولم تعلن عائلة التهامى حدادا ولا أقامت مأتما. ولا أحد يعرف إن كانوا قتلوها وواروها التراب أم تركوها في مكان ما لتتم حملها وتضع مولودها، إن كانت حبلى كما يقولون.

أمسك عيد بلحية على، وقال:

– بحق هذه اللحية يا سى على، لا تقل إننى قلت.

لم يقل على شيئا ولكن الجعفرية كلها عرفت وقد دار الأمر مشاعا أمام العيون.

- ٢ -

تعرف القرية بأمر الزيارة قبل وقوعها. يتسرب الخبر إليها من القرى المجاورة، فيدبّ في الأهالى نشاط موتور يغذيه خوفهم ويتجاوزه بفعل دربّتهم عليه الأيام وآباؤهم والأجداد.

من يمتلك مصحفا أو كتابا بالعربية يخفيه، ومن يرتدى مقطعا تونسيا أو ما شابه يخلعه ويواريه. تتوقف دروس الصغار وينبههم أهاليهم إلى ضرورة الكتمان والحذر. إن كان في القرية شباب من أراجون يتعلمون الفقه وأصول الدين من عمر الشاطبى يلزمون الدور ولايغادرونها. النساء اللائى يبعن الحنّاء في السوق يرفعنها ويخبئنها. يتوقف ذبح الأغنام. تؤجل الأعراس واحتفالات الميلاد والطهور، ولا يرتفع في الفضاء صوت موال، ولا دف ولا مزمار. والعقلاء من أهل القرية يجمعون بين المتخاصمين، يسعون لحل ما بينهم من نزاع، أو أضعف الإيمان تهدئة النفوس حتى لا يتمكن الغضب، وفى لحظة طيش ينفلت اللسان بما لا تحمد عقباه. وإن وافقت الزيارة يوم خميس أجّل الأهالى حمامهم، وإن وافقت يوم الجمعة لا تنبعث من الدور روائح الضأن المتبّل والكُسكس والفطائر المقلية لأن أحدا لا يطهو المعتاد من الطعام في نهار الجمعة الفضيل. وقبل هذا وبعده يتوقف كل لقاء لصلاة جماعة أو تشاور في أمور فقه أو دين حتى يأتى الزوّار ويذهبوا في سلام.

كانوا يأتون في الربيع أو في مطلع الصيف. حين يكون الطقس مستقرا يدخلون القرية في كامل هيئتهم لا ينتقص من هيبتهم سوى إرهاق السفر. وحين

يكون الطقس عاصفا يخرج الأهالي للفُرجة إذ تكون ثيابهم مبللة بماء الأمطار، وأقدامهم ملوثة بالوحول، ووجوهم منكّدة وقد طارت أغطية الرؤوس فبقيت عارية في المطر تحت مظلات تهرّأت بفعل الرياح. بعد رحيلهم، إن جاءوا وذهبوا دون أن يُلحقوا بأحد من الناس الأذى، كان الشباب يتبارون في وصفهم ساخرين، يطلقون عليهم تعليقات متهكمة ونكات ، فيشيع التعليق الأطرف ويذهب في الجعفرية مثلا.

في ذلك اليوم كان المحقق مضمّد الرأس. قال شاب من الشباب لعل أحدا على الطريق شفى غليله بإلقاء حجر عليه. وحين وقف المحقق البدين في الساحة ليقرأ على أهل الجعفرية عريضة الاتهامات المعتادة كانت ملحوظة الشاب قد صارت رواية، لها بداية ونهاية، وتفاصيل ذروتها تساقط الأحجار على رؤوس موظفي الديوان فأصيب رأس المحقق البدين، وسقط آخر من على بغلته، والثالث تعثر وهو يركض فكسرت ساقه فحملوه إلى مُجبر وبقي عنده هناك.

وقفوا يتطلعون إلى الرأس المعمّم بالضماد، ويتراسلون فيما بينهم بالنظرات، ويسمعون الكلام المكرر عن أسباب التهم وأنواعها والعقوبات المترتبة عليها، وضرورة الاعتراف عن حالات الهرطقة والخروج عن الدين أو تهديد أمن البلاد . كان المحقق يقرأ من الأوراق وهو يقرّبها من عينيه تكاد تلامس وجهه. يقرأ فقرة باللغة البالينسية ثم يتوقف ليتيح للمترجم نقل ما قاله إلى اللغة العربية.

ساعتها انطلقت كالسهم في اتجاه المحقق، ضفيرتاها محلولتان وعلى وجهها وملابسها آثار عراك. قفز أبوها من بين الرجال وركض خلفها ولكنها سبقته إلى المحقق.

ساد الهرج في الساحة واضطرب الناس وتدافعوا باتجاه موظفي الديوان ليعرفوا ما الخبر. ولكن المحقق جمع أوراقه وأخذ كوثر والكاتب والمترجم والوكيل وتوجهوا إلى دار الأخير حيث ينزلون.

اشتد اضطراب الأهالي، وخرجت النسوة من الدور وأحطن بأم كوثر التي

كانت تلطم، وتمرغ وجهها في التراب، وتولول فيتردد صراخها النادب في أرجاء الساحة.

وجد على نفسه يطرق باب الوكيل. قال: "أريد المحقق" سمحوا له بالدخول. كان المحقق جالسا على مقعد خشبى كبير وعلى يساره طاولة جلس وراءها الكاتب، وأمامه محبرته والدفتر الذى يسجل فيه. وعلى بعد خطوتين وقفت كوثر وبجوارها المترجم.

تطلع إليه المحقق مستفسرا:

- من أنت، وماذا تريد؟ جئت بتهمة؟ بوشاية؟ باعتراف؟ عليك أن تنتظر، ننتهى من أمر هذه البنت ثم تستمع لك.

- جئت أحدثك بشأنها.

- فهمت، أنت شاهد. إذن انتظر حتى نستمع لأقوالها.

ظل علىّ واقفا مكانه. رأى امرأة الوكيل وعيالها يطلون برؤوسهم من باب جانبى، يتابعون ما يحدث، والوكيل يروح ويجئ بلا سبب واضح. سأله المحقق:

- متى يجهز الطعام؟

- حالا يا سيدى.

التفت المحقق إلى على، وحدّق فيه باندهاش ثم صاح:

- ما الذى تفعله هنا، لماذا تقف أمامى هكذا؟

- ألم تطلب منى الانتظار؟!

- انتظر هناك!

طلب من أحد معاونيه أن يصطحب عليّا إلى قاعة مجاورة. كان أبو كوثر قاعدا على مصطبة حجرية. جلس على بجواره، وظل كلاهما مطرق الرأس وصامت.

ما الذى سيقوله؟ وجد نفسه يتبع كوثر، ويطرق باب الوكيل، ويقف أمام

المحقق. حاول أن يرتب كلاما مقنعا يفيد، ولكنه كلما استقر على شئ يقوله رجع عنه واستبدله بسواه. ثم استدعوه.

ساله المحقق:

– هل أنت شاهد على الجريمة؟

– أية جريمة؟!

– جريمة القتل التى تتهم بها الصبية أباها.

– لا يا سيدى لم أشهد جريمة وأعتقد أنْ لا جريمة هناك على الإطلاق.

– كيف؟

– كان لى ابنة في مثل سن كوثر و ...

ضاع منه الكلام فتوقف.

– وماذا؟ هل أنت عيىّ، لماذا تتحدث ببطء هكذا؟!

– ابنتى رحمها الله ...

– هل قتلها هذا الرجل أيضا؟

– لا يا سيدى ماتت ميتة ربها. كانت ابنتى صديقة لكوثر. ولقد قالت لى إن كوثر تخاف خوفا شديدا ويفزعها في النوم الكوابيس وإنها ..

– إنها ماذا؟!

– وإنها كلما سمعت بموت شخص ظنت أنه قُتل. وأعتقد يا سيدى أن كوثر حين سمعت بموت أختها التوأم اضطربت اضطرابا عظيما، وتصورت أنها قُتلت. ولما كانت البنت سافرت مع أبيها فقد هيئ لكوثر أن الأب هو المسؤول عن موت أختها.

– هل لديك أقوال أخرى؟

– نعم يا سيدى كوثر طفلة مذعورة أفزعها موت أختها التوأم. ولا يمكن لمحقق كبير مثلك أن يأخذ بكلام طفلة في هذه الحالة.

- انتهى!

لم يفهم عليّ ما المقصود بالكلمة فظل واقفا فإذا بالمحقق البدين يصرخ فيه:

- اذهب، عد إلى دارك، سمعت كلامك وانتهى!

لم يتطلع إلى كوثر. استدار وغادر بيت الوكيل يجرجر قدميه وفي أذنيه صوت كوثر وهي صارخة تركض في الساحة وصوت أمها النادب. ما الذى فعله وكيف أتاه هذا الكلام هكذا ارتجالا مع كل عبارة جديدة؟ هل ينفع ما قاله أم يضر أم هو فعل اليائس لا معنى له ولا ضرورة؟!

ليس الجحيم أن تصطلى بنار جهنم بل بنار قلبك وهو مروّع، مضطرب، وواهن، ولأن الكلام، كل الكلام، يجرحك. كانت الجعفرية كلها تتحدث عن بنت الحرام التى شكت أباها لديوان التحقيق: "لم يكن حليبا ما رضعته بل ماء!"، "لا يخون المرء العشرة ولقمة خبز بالملح، والفاجرة خانت النطفة التى منحها لها أبوها لكى تبدأ على هذه الأرض الحياة!" لم يكن السخط وصدمة سلوك غير معهود والفضيحة هى وحدها ما يحرك أهل الجعفرية. كانوا أيضا خائفين. قد يكون المحقق البدين غبيا، ولكنهم هناك في المدينة سيعرضون البنت على المحققين فيسألونها، ويلفون ويدورون ويعاودون السؤال حتى يستدرجوها إلى إفشاء الأسرار، فتقع بلسانها، وتوقعهم جميعا وهى تقول: يذبحون الماشية ذبحا، ويصومون رمضان، ويحتفلون بالعيدين وبالمولد النبوى وعاشوراء. ويعلّمون الصغار اللغة العربية، والبعض منهم يحفّظونه القرآن. كانوا مذعورين يحسبون الأيام وينتظرون، يدعون الله أن يحفظ الجعفرية من شر صبيّة عصته فلم تخفض لوالديها - كما أمر في كتابه - جناح الذّل من الرحمة ولا صاحبتهما بالمعروف.

فرّ أخو كوثر لأنه عرف منذ رأى أخته تركض إلى المحقق أن المصائب على الطريق. ولم يملك أبوها المسكين أن يترك لحمه هكذا بين يدى الأغراب، فظل

ملازما لها حتى قبضوا عليه. من يدرى ما الذى سيحدث له، وكم سنة يقضيها في السجن، أو تختصر السنين إلى شهور تقوده إلى نار المحرقة؟

أينما ذهب، وحيثما جلس، يسمع على هذا الكلام فيشرد إلى الحقول أو يبقى في داره، ويظل محاصرا بين نار هذه الصبيّة التى أخذت قلبه وألقت بنفسها إلى التهلكة، ونار أهل الجعفرية لا يرون فيها سوى شيطان رجيم.

ذهب إلى عيد الحلاّق، قال:

– افصد لى دمى يا عيد، لعل الفصد يخلصنى من هذا الألم الذى يتأجج في رأسى نارا لا تطاق.

– لحظات وألبّى لك طلبك.

كان صالح بلبيس، الذى درس الصيدلة في الجامعة ولم تمنحه السلطات إذنا بممارسة المهنة، جالسا بين يدى عيد يقص له شعره. قال عيد وهو يتطلع إلى على ليشركه في الحديث:

– كنت أقول لسى صالح إن هذه البنت الملعونة صارت تهدد الجعفرية كلها. أقسم برب الكعبة أننى لم أعد أنام، وإن نمت أقوم مفزوعا أتساءل: هل رأتنى هذه الشيطانة أدخل بيتا لطهور ولد؟ وهل تعرف أننى قمت بطهور صبِية القرية كلهم؟ أقول لنفسى لابد أنها تعرف يا عيد، فكل نساء القرية يعرفن، والنساء بالطبع ثرثارات، لا تستقر على لسانهن كلمة.

علمتنى أمى منذ نعومة أظافرى أن ألجِّم لسانى. قالت لى: "يا عيد لا تثق في أحد، حتى زوجتك فقد تختلف معها في يوم من الأيام فتشى بك إلى الديوان". وحكت لى أمى عن جارة لها مات ابنها، فجاءت النساء معزيات فحكت لهن المرأة كيف قامت الأسرة بعمل الواجب للولد، غسّلوه بماء الزهر، وكفنوّه، وأودعوا معه في مدفنه قِدر عسل وزرعا يانعا أخضر. هل تصدقان؟! بعد ستة أشهر ألقوا

القبض على المرأة بسبب ما قالته. لا إله إلا الله، لم يعد في هذه الدنيا أمان، والعاقل يكتم أمره عن ظلةٍ ولا يخبره إلى أين يذهب ومن أين يجيئ. لا تحزن يا سى على إنك حرمت من الخلف. الحق إنك محظوظ، لا زوجة، ولا بنت، ولا ولد يعرفون دخيلة بيتك فيكشفون أسرارك للديوان. ما فعلته بنت الحرام هذه جعلني أخشى أولادى، أى والله، صرت أخاف منهم فلا أتحدث أمامهم في أى شئ.

سأله صالح بلبيس:

– كم عمر أولادك يا عيد؟

– عقبى لأولادك يا سى صالح كلهم ذكور. أكبرهم في الرابعة، والثانى عمره سنتان، والأخير ولد منذ شهر.

قال صالح بلبيس:

– كنت في الساحة يوم ركضت البنت إلى المحقق، ورأيت أمها وهى تصرخ وتنتحب، وتابعت الصخب والجلبة، وبدا لى أن الأب سيستل سيفه و ...

قاطعه عيد:

– سى صالح نحن لا نخرج سيوفنا في حضرة موظفى الديوان. إن السيوف من الأسلحة الممنوعة!

قال صالح بنفاد صبر:

– أعرف يا عيد، أعرف. قلت بدا لى – وضغط على كلمة بدا – أن الأب سيستل سيفه وينزل به على رأس ابنته فتسقط غارقة في دمها. رأيت تمثيلية شبيهة وأنا في مدريد.

– وما معنى تمثيلية؟

– أشخاص مثلى ومثلك يقفون على مصطبة خشبية واسعة ومرفوعة أمام النـــاس، ويلعبون أدوارا ويشخصٌونها بدقة فتنسى أصلهم وحقيقتهم وتتابع الحـــكاية التى يقدمونها كأنها واقـــع يجرى أمام عينيك: أمـــراء يتبارزون،

ملوك يُخلعون عن عروشهم، فرسان يعشقون، غيد يضحكن أو يبكين لغياب الحبيب. ذلك اليوم ونحن واقفون في الساحة قلت هذه تمثيلية، لو قطع الأب رأس ابنته لاكتملت.

ضحك صالح بلبيس مغتبطا بفكرته ولكن عيد الحلاق لم يضحك، قال ببؤس باد:

- ولكنها ليست تمثيلية يا سى صالح!

كان على قد قام من مكانه ومضى باتجاه الباب. لحقه عيد:

- انتظر يا سى على، انتهيت من قص شعر سى صالح، لحظات وأشذِّب له لحيته.

لم ينتظر.

قيل إن الصبية وأباها نقلا إلى العاصمة للتحقيق. هل يذهب للبحث هناك، ومن أين يبدأ، ومن هو ليطرق أبواب ديوان التحقيق ويستعلم من المحققين؟! سيقولون له: هل هى ابنتك؟ أختك؟ زوجتك؟ فبماذا يجيبهم؟! حتى الآباء والأخوة والأزواج لا يقدرون على الوصول إلى ذويهم في أقبية الديوان. عليه الانتظار لعل أخبارا تصل الجعفرية تساعده على التصرف السليم، وأيضا ليجمع الزيتون ويبيع الزيت فيذهب مزوَّدا بمال قد تكون بحاجة إليه. ليست متهمة بشيء، سيفرجون عنها، ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك، تعود إلى القرية أم تبقى في المدينة، وأى مصير تلاقيه هناك؟!

-٣-

للخريف في الجعفرية أفراحه. في الصيف قبل الخريف، يحمل الكرم البشائر، يقطفون عناقيده، يغنّون له، وبرفق يودعونه السلال، يحملونها على رؤوسهم، وعلى ظهور بغالهم، وعلى الحمير إلى البلدة القريبة، أو المدينة الأبعد. وينطلق الصوت الجبلي في السوق بالنداء: "شهد يا عنب". حبّات يشفّ أسودها ويشفّ أخضرها كأنها تكتم عن عين الحسود سكّرها المركز فيها.

ومن لا يخرج من النساء إلى السوق يأخذ نصيبه من فرحة المحصول. تغسل النساء العناقيد، يفرطن الحبّات عن أغصانها، ينشرنها على أسطح الدور فتتعهدها الشمس، تسوّيها زبيبا يبعنه أو يبقينه زادا مخزونا في البيوت.

الكرم يُبشّر، ثم يأتي موسم الزيتون، يخرج الصغار والكبار، الرجال والنساء يقضون نهارهم، منذ شروق الشمس حتى المغيب، هناك عند الشجر المثقل بثمره العميم. يحركه الرجال بالعصى، فتتساقط الحبّات على الأرض وعلى الرؤوس. ينزل الله على خلقه من السماء ماءً، وينزل عليهم من ثمر كدهم وعرقهم الزيتون، بسم الله ما شاء الله. يجمعونه في السلال والأكياس، ينقلونه إلى المعصرة، تدور، فتمتلئ الجرار. للدار منها نصيب، ولسيد الأرض نصيب يأخذه بلا حق فلا بارك الله فيه، ثم تحمل البغال الجرار إلى السوق فيبيعون بحمد الله ويقبضون.

إنه موسم الزيتون. من أراد أن يزوج ابنه يطلب له الصبية بلا حرج وقد أنعم الله وتفضّل بما يفي بالمهر والعرس الكريم. يشترون الكسوة للعيال، وما ينقص أم العيال. والمُسعد من الرجال تكرمه امرأته وتكرم الجيران بقدر من الزيت من صنع

يديها. تدق حبات الزيتون بالحجر، تنقله إلى وعاء، تسكب الماء المغلي عليه، وحين يبرد الماء تدعكه دعكا كالعجين، تنقيه من البذور وتهرسه بيديها. ثم تحفن بالكفين الزيت من على وجه الماء. "ذُق يا أبا العيال"، "تفضلوا يا جيران".

تغنى النساء، وتنطلق أصوات الرجال بالمواويل ثم يمسكون عصيهم ويرقصون، تراقبهم النساء من وراء مشربيات الدور ومن على الأسطح وخلف الأبواب المواربة، وتقع الصبايا في الحب في موسم الزيتون.

ولكن الموسم كان هذا العام شحيحا. والعارفون من الرجال تطلّعوا إلى السفوح المزروعة بعروق الزيتون وقدّروا قبل الجني بشهور ما تعطيه من جرار الزيت. كانت أقل من نصف المعتاد، فمن أين يسدون ديونهم، والضرائب لا تقل إن قلّ المحصول، وما يطلبه صاحب الأرض كثير؟! لعنة الله على هذه السنة وعلى الزيتون!

سكن القلق مع الأهالي في البيوت. يذهب الرجال ويجيئون حاملين معهم همّ العيال، وأكل العيال، وكسوة العيال، يلعن أبا العيال وخلفة العيال! يتفششون في زوجاتهم. تسمع الجارة صياح جارتها فتعرف أن زوجها يضربها، تحمد الله أن زوجها أهدأ بالا وأقل شراسة. وما إن يمضي يومان أو ثلاثة حتى ينشأ النكد كأنه يهبط على الخلق من السماء. يضربها زوجها فيعلو صوتها بالصياح، تسمع جارتها الصوت فتبكي تعاطفا ثم تتذكر علقة بداية الأسبوع فترثي لحالها وتبكي أكثر.

وكأن همًا واحدا لا يكفي، أو كأن الهموم تأتنس ببعضها البعض فلا تنزل على الناس إلا معا. استيقظت الجعفرية على الجلبة والصراخ. وركض على ضمن من ركضوا ليستطلعوا الخبر. دلته النار والدخان على موقع المصيبة. كان اللهب يرتفع عاليا في الفضاء، ينشب زرقته وأحمره في خشب الأشجار وأوراقها وثمارها، يأكلها ويستعر متّقدا بوهج وحرارة ودخان تعمي الأبصار. لم يجد الماء شيئا

فوقف الرجال عاجزين، لا يملكون سوى الجزع والتمتمات: "لا اله إلا الله"، "لا حول ولا قوة إلا بالله"، "الطف يا رب العالمين"

اتّهم أولاد النعمان عائلة القيسى بإضرام النار في حقلهم. وكان الخلاف بين العائلتين قديما منشؤه نزاع على المياه تسبب في مقتل شاب من عائلة القيسى، وثأر ممتد راح ضحيته رجال من الطرفين. ثم تدخل أولاد الحلال فصالحوا بينهما وجعلوهم يوقعون معاهدة صلح وهدنة. كان ذلك قبل أكثر من مائة عام.

شاع الاتهام في القرية فغضب أفراد عائلة النعمان وكل من يمت لهم بصلة قرابة أو نسب أو صداقة. وغضب القيسية وكل المقربين منهم وقالوا إن الاتهام باطل. استنفر هؤلاء وأولئك وأنقسمت الجعفرية، وتداعت الذاكرة بعشرات الوقائع القديمة التى تدين أولئك أو هؤلاء.

قال عمر الشاطبى:

– تتعقد المشكلة يوما بعد يوم وتهدد بفتنة تأتى علينا كما أتت النار على حقل أولاد النعمان. قم بنا يا على لزيارتهم والتحدث بالعقل معهم لعلنا ننجح في تهدئة النفوس.

بدءا بزيارة أولاد النعمان.

كانوا خمسة أولاد يسكنون معا في دار كبيرة. استقبلوهما ورحبوا بهما وضيّفوهما. ثم بدأ عمر الشاطبى الكلام عن الحاجة لوحدة الجماعة ليس في الجعفرية وحدها بل في شرق الأندلس كله. قال:

– يطوّقنا الأعداء ويحملوننا ما يكفى من الهمّ ويزيد. وبالكاد نستطيع الوقوف في وجههم. لا نملك أن نحيى العداوات القديمة.

– هم الذين أحرقوا أرضنا يا سى عمر، والبادى أظلم!

– إن بعض الظن إثم، مادام أى منكم لم ير بأم عينيه أحدا منهم يشعل النار في الحقل.

- لم نر ذلك ولكننا متأكدون أنهم الجناة.

- ومن أين هذا اليقين؟!

- قبل خمس سنوات طلب ابن عم لنا صبية منهم للزواج ، لم نرحب بالمصاهرة ولكنه كان يريدها وأصرّ. بعد عامين من الزواج عادت المرأة إلى دار أبيها وطلبت الطلاق ...

- هذه حكاية معروفة ولا جديد فيها، والطلاق مشروع، والله تعالى قال في كتابه "وسرِّحوهن بالمعروف"

- اسمع يا سى عمر تفصيل ما حدث ثم احكم بالعدل : لم يكن ابن عمنا راغبا في الطلاق فذهب إليها ليُرجعها. قال لها: "يا بنت الحلال في الطلاق وقف لحالك وحالي. لن يتمكن أى منا من الزواج مرة أخرى مادام قانون البلاد لا يقرّ طلاقا رسميا، وزواج أى منا يوقعه تحت طائلة القانون" ولكن بنت القيسى قالت إنها تريد طلاقها وصداقها، وإن وقف حاله هو عين المراد، أما هى فلم تعد راغبة في الزواج ثانية.

أوجز لك ما جرى يا سى عمر، ولكن في تفاصيل ما دار شجار وقبح إذ تدخّل الأب والأخوة وأهانوا ابن عمنا وتركوا ابنتهم تهينه كأن من المقبول أن تتطاول المرأة على زوجها، أو على رجل من الرجال.

غضب ابن عمنا وقال إنه لن يطلق، ولن يدفع صداقا. فقال له أبوها: "لا تريد أن تدفع الصداق، إذن فاعلم أننا سندفّعك وندفّع عائلتك أضعافا مضاعفة!"

عندما شبّت النار في الحقل لم يكن في العقل عقل ليفكر في ذلك كله، ولكننا جميعا تذكرنا هذا الكلام ونحن مؤرقون في الليل نقلب في رؤوسنا ونتساءل عن الذى حرق أرضنا. كان كل واحد منا يفكر وحده، ولكن الفكرة جاءتنا جميعا، وفي الصباح تناقلناها فتأكدت أكثر. واعلم يا سى عمر أن ابن عمنا يعمل خبّازا، لم

يكن في مقدروهم أن يحرقوا الفرن فهو من مرافق الإقطاعية. ولو فعلوا لوقعت الخسارة على سيد الأرض وليس على ابن عمنا.

قرر أولاد القيسى أن يحرقوا أرضنا نحن لأننا أولاد العم المباشرين، فانتقموا من صهرهم بتخريب حقلنا، فهل نسكت؟

– لو ثبت ذلك فلابد من معاقبة الجانى على جريمته لأن الله تعالى قال: "ولكم في القصاصِ حياة يا أولى الألباب"، ولكنه لم يثبت، وإشعال نار الفتنة في الجعفرية تؤذى الجميع. كل ما أرجوه منكم أن تتريثوا، ولا تنشروا الاتهام أكثر، وتهدّأوا شبابكم حتى نعرف الحقيقة ونجد الحل الذى لا يأخذ القرية كلها بجريرة شخص واحد.

لم يرُق الكلام لأولاد النعمان، ولكن عمر الشاطبى أكرمهم بالزيارة وهو شيخ البلد وفقيهها، واصطحب معه الغرناطى الذى درّس ثلاثة من أولادهم، لم يعلقوا.

وحين قام عمر الشاطبى وتبعه على استعداداً للانصراف قال أكبر أولاد النعمان:

– طلبك مجاب يا سى عمر. نتريث حتى نتيقن من الجانى.

ذهب على وعمر الشاطبى إلى دار القيسى ثم رجعا إلى أولاد النعمان، ثم زارا القيسية مرة أخرى، ثم التقيا بشيوخ العائلتين، وتحدثا في تفاصيل قديمة وجديدة طوال شهر كامل، بدا فيه وكأن الحياة تركزت فيما قاله أولئك أو هؤلاء.

لم يعترف أولاد القيسى بأن أحدا منهم أشعل النار في الحقل، ولكن ابنتهم وافقت على العودة إلى دار زوجها. وتردد كلام أن بعض الفتية من دار القيسى أبدوا استعدادهم للمشاركة في تقليب الأرض المحروقة وتسميدها مع بدايات الربيع. وقال واحد منهم: "كيف نكره أولاد النعمان ،هل يخرج الظفر من اللحم ؟!» ذاعت العبارة في الجعفرية وتناقلها الأهالى ثم وصلت أولاد النعمان فردوا على الكلام بأحسن منه وقالوا مؤكدين: "القيسية أخوالنا ولنا فيهم عزوة!"

أراد عمر الشاطبى تثبيت المصالحة فجمع كبار العائلتين، فوقعوا معاهدة هدنة وصلح نسخوها بالنص من المعاهدة القديمة :

«يتعهد كل من أولاد النعمان وأولاد القيسى وأقرباؤهم وأصدقاؤهمْ والمناصرون لهم أن يحفظوا هذه الهدنة بينهم ويلتزموا بالسلام لمدة مائة سنة وسنة، أيًّا كانت الخلافات أو النزاعات أو الإساءات أو الأقاويل أو سوء النوايا التى كانت بينهم حتى هذا اليوم. ويقسمون باللسان، وبأيديهم التى توقع على هذه الأوراق، وفي حضور الشيخ عمر الشاطبى وعلى الغرناطى، وأمام الله وقبلة رسوله محمد المصطفى خاتم المرسلين أن يصونوا هذا العهد بالعمل على تنفيذ ما جاء فيه"

وقّع أولاد النعمان الخمسة، ويصم خمسة من عائلة القيسى، ووقّع الشيخ عمر الشاطبى وعلى على الاتفاق. وقام الجميع لتناول لحم خروف ذبحه عمر الشاطبى بنفسه تيمنا بالمناسبة وسوّته زوجته وقدمته على صحن نحاسى كبير محاطا بالكسكس المخلوط بالزعفران.

- ٤ -

ذهب على إلى بالينسية وعاد. لم يجد كوثر. يُبكر في الخروج إلى الحقل، يقتلع الأشواك، يقلّب التربة لترى وجه ربها والشمس والهواء، يصلح ما حطمته السيول من سلاسل الأحجار، يحوّط زيتونه ويرعاه. وفي العصر يأتيه الصغار في الأسبوع مرتين، يحمل كلٌ لوحه، يدرِّسهم ثم يذهبون فينهمك في صناعة الصندوق. يشطف العصافير في خشبه، يطرق شرائط الفضة ويفرِّغ في رقائقها حروفا ترسم اسم الصبية الغائبة.

ذهب إلى بالينسية مرة ثانية. قضى نهاره الأول في المدينة يسأل ويتقصى ويبحث حتى في الأسواق. ثم عاد إلى الفندق عند الغروب وانتحى ركنا من الباحة وراح يتشاغل بتناول طعامه، ومراقبة إسكافى استأجر محلا في جانب من الخان، واستراق النظر إلى عدد من المومسات جلسن في الزاوية المقابلة . كن يتحدثن بصوت عال، ويؤكدن الكلام بحركات الرأس والجزع واليدين، منهن الشقراء، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، ومنهن السمراء، جعدة الشعر، لا تخطئ أنها من بنات العرب. انتبه لفتاة لها جديلة سوداء طويلة، مليحة الوجه، وجسدها ممشوق ناهض. حدّق فيها متأملا ثم غض الطرف ثم تحول بعينيه جهة الإسكافى. كان منحنيا على سبّاط يثبت جلده في النعل، يدق المسامير فيه.

سمع الصياح فعاد ينظر جهة المومسات. كان شجارا بالكلام يدور بين ذات الجديلة وامرأة في منتصف العمر لها شعر أحمر خيليّ كثيف ينسدل على كتفها.

– احفظى لسانك يا أنّا ولا داعى لهذا الكلام!

ضحكت حمراء الشعر ضحكة مجلجلة وهى تحرك رأسها في استهزاء:

– ولماذا أحفظه، هل أخشى منك ومن أمثالك. إنكن جميعا عبيد، ومن نسل عبيد، وبنات حرام أيضا!

جذبتها امرأة سمراء مكتهلة لكى تجلسها بعيدا وتحول بينها ومواصلة ما تقول، ولكن المرأة ذات الشعر الأحمر استمرت قائلة:

– لماذا يسمونّكم الهاجريين ؟ لأنكن من نسل هاجر الجارية، أما نحن فأسيادكم من نسل إبراهيم وسارة.

ضحكت المرأة المكتهلة:

– تصلحين للوعظ يا أنّا، من أين أتيت بهذا الكلام؟!

لم تعرها ذات الجديلة السوداء اهتماما. أشاحت بوجهها وتشاغلت بالنظر إلى مدخل الخان. تقدمت منها ذات الشعر الأحمر ودفعتها في كتفها وقد زادها التجاهل سخطاً وصاحت:

– كلكم كلاب، ونبيّكم ...

قفزت الصبية واقفة وألقت بنفسها على المرأة المهاجمة وأمسكت بتلابيبها وهى تصيح:

– لو ذكرت اسم نبيّنا سأقطّع هذا على رأسك – متى خلعت حذاءها وكيف وهى تمسك بتلابيب المرأة ؟! – نعم من نسل هاجر، وحذائى هذا أشرف منك ومن الكاردينال الكبير والملك الذى يحكم البلاد!

انفلت منها الكلام واخترق آذان كل من في الخان. تطلعوا مبهوتين. كانت الصبية تلطم خديها ثم انهدّت جالسة وانخرطت في النشيج. هل يأتون للقبض عليها الآن، أم يأتون غدا؟

– الصغيرة تكايدك يا أنّا، تمزح معك. إنها تذهب معى كل أحد إلى القداس، وتعلق صليبا فوق فراشها!

كانت المرأة التى علا صوتها بهذا الكلام ليسمعه ويشهد عليه كل رواد الخان

داكنة السمرة وسمينة ولها ثديان كبيران. قالت أخرى:

– ما الذى دهاكم. ما الداعى للشجار؟! كلنا سنموت ونذهب إلى الرب في السماء فيرحمنا ويشفق علينا لأننا تعذبنا كثيرا في هذه الدنيا.

ثم مالت على أنّا وقبلت رأسها، وراحت تحدثها بحديث هامس.

ما الذى يحدث للصبية؟ لا يقول ما قالته سوى مجنون ولكن من يتحمل كل هذه المهانة ولا يصاب بالجنون؟!

صعد على إلى الحجرة ونام ولما استيقظ لم يسمع جلبة ولم ير محققين فاستبشر خيرا وخرج مع طلعة النهار ليواصل البحث عن كوثر.

انجلت الليلة الكئيبة بصبح أسوأ، سمع فيه أول ما سمع شخصاً يصيح في آخر: "عربى كلب!" استعاذ بالله ومضى في هدوء، كأن العبارة لم تخترق أذنيه. وفي السوق الكبير صادفه رجلان يقول أحدهما للآخر: " إنهم ميالون للشر بطبعهم. لا يمكنك أن تأتمن أحدا منهم مهما أظهر لك المحبة والوفاء. هؤلاء العرب كذّابون مراوغون، والخيانة صفة أصيلة فيهم جميعا!"

"يا فتاح يا عليم"، أدار عليّ رأسه وابتعد. هل كان شيطان يتعقبه في ذلك اليوم ويضع على طريقة ما يلاقيه حتى يلقى بنفسه في التهلكة؟

– أنت!

– أنا؟!

لم يكن يعرفها، امرأة ممتلئة ثقيلة الردفين، يتصبب وجهها المحتقن عرقا من ثقل صندوق تحمله على رأسها.

– ماذا تريدين؟

– احمل عنى هذا الصندوق.

– ولماذا أحمله عنك

ابتسمت ابتسامة لا تخلو من ازدراء:

- لن تحمله بلا مقابل، سأدفع لك

- لست خادما ولا حمّالا.

- أنت صفيق!

- اذهبى لحالك يا امرأة، لم أتطاول عليك، ولم أبادئك الكلام!

قالت وهى تمط شفتيها وتبصق على الأرض:

- عربى قذر!

انفلتت قبضته فرأى المرأة تسقط على الأرض مع الصندوق وسمع الارتطام والصياح والجلبة من حوله والناس يتجمعون

- ضربنى وسبّنى وقال إن السيد المسيح دجّال!

من أين أتت المرأة بهذا الكلام؟ أىّ مصيبة حلّت به، وأىّ نحس ركبه هذا النهار؟ قبل أن يفيق من وقع كلام المرأة سمع رجلا يقف بالقرب منه يقول بصوت عال لجمهرة الواقفين:

- أمر النساء غريب! هذه المرأة رأتنا أنا وصاحبى، كنا نمشى في حالنا، لا نعرفها ولا تعرفنا، فإذا بها تدعونا إلى بيتها. لم نلتفت إليها وفهمنا أنها امرأة سوء. ولكنها ظلت تلح علينا حتى زجرها صاحبى، ولما زجرها صارت تصيح وتدّعى ما لم يحدث. وإن لم تصدقوا كلامى اسألوا هؤلاء الرجال. كانوا يمرون بالقرب منا، ورأوا بعيونهم وسمعوا بآذانهم كل ما دار.

ما إن انتهى الرجل من كلامه حتى تقدم أربعة رجال وأكدوا ما قاله وعزّزوه بإضافة بعض التفاصيل. ثم أمسك الرجل الأول بيد على وقال وهو يسير به مبتعدا:

- بنا يا صاحبى لنواصل أشغالنا

مشى على معه مشدوها يكاد لا يصدق ثم توقف فجأة وسأل:

– أفهم أنك سارعت إلى نجدتى، وأنا ممتن لك غاية الامتنان، ولكنى لا أفهم كيف شهد أولئك الرجال على صحة كلامك، ولم يشهدوا شيئا، ولا يعرفونك ولا يعرفوننى.

ضحك الرجل، وقال:

– عندما يقع الواحد منا في مأزق يساعده من يتوفر من أهله. شكلك عربى وما اتهمتك به المرأة لا يتهمون به سوى العرب، وأصحاب المروءة يتقدمون للمساعدة، لو كنت مكانهم لفعلت نفس الشئ، أليس كذلك؟!

– ما كنت أتوانى عن المساعدة لو كنت أعرف كيف، ولكن عقلى قد لا يسعفنى فأعجز عن التفكير!

– بل يسعفك بلا تدبير ولا تفكير!

كان بشوش الوجه، عريض المنكبين قوى البنية، يتحدث بصوت خافت ويميل برأسه ليؤكد ما يقوله من الكلام.

رافقه فرانسيسكو زمزم إلى الفندق وحكى له حكايته. كان يعمل مكاريا يتنقل بين بالينسية وقطالونيا ناقلا الأقمشة في رحلة الذهاب، والفواكه واللوز والجوز والبندق في رحلة الإياب. قال:

– لا أخرج في تلك الرحلات وحدى بل عادة ما نكون خمسة رجال، وأحيانا ستة أو سبعة، نذهب معا ببغالنا وحمولاتنا، ونرجع معا فنأتنس بالصحبة في الطريق، ونتعاون حين تنشأ مشكلة.

– هل كان الرجال الأربعة الذين شهدوا لصالحى اليوم أصحابك؟

– وهل بادرك في ذلك شك؟!

ضحك على من سذاجته فشاركه المكارى الضحك ثم واصل:

– كثيرا ما تضطرنا الظروف لمواجهة مواقف من هذا النوع ولكن في مرة من

ذات المرات الهمنا الله تصرفا ما كان يقدر عليه سوى فرقة من الرجال. كنا قد نزلنا فندقا من تلك الفنادق الصغيرة المنعزلة بالقرب من الشاطئ. ربطنا بغالنا ودخلنا وجلسنا قرب النار نستدفئ.

كانت صاحبة الفندق امرأة بدينة كتلك المرأة التى وقعت بصندوقها اليوم في السوق. طلبنا منها طعاما فأتت به. وما إن بدأنا نأكل حتى دخل علينا اثنان من موظفى الديوان، أحدهما طويل ونحيل والثانى قصير وبطين، ومعهما امرأة مقيدة. كانت دون الثلاثين ممتقعة الوجه منكمشة وخائفة.

قدمت صاحبة الفندق الطعام للرجلين فانهمكا في الأكل دون أن يقولا للمرأة المقيدة اجلسى أو خذى شيئا من هذا الطعام.

سألتهما المرأة البدينة:

– ما الذى فعلته هذه المنحوسة، قتلت أم سرقت؟

قال الطويل النحيف:

– تصنع أحرازا. داهمنا بيتها يوم جمعة، كان على النار قدر فيه لحم!

هتفت المرأة البدينة في استياء:

– لحم في يوم الجمعة؟

– الأدهى من ذلك أننا وجدنا حين فتشنا البيت أوراقا عليها خطوط ودوائر ومربعات وكتابات بالعربية، وعثرنا أيضا على ريشة ومحبرة وسائلا مخلوطا بماء الورد والزعفران.

أشارت المرأة البدينة بعلامة الصليب وهى تدير عينيها بعيدا عن المرأة المقيدة وتمتمت:

– ليحفظنا الرب! قد تفك وثاقها في الليل وتهرب:

قال القصير البطين:

– سنقيدها في حديد النافذة، وفي الصباح نرحل إلى مقر الديوان.

حين دخلنا للنوم جاءتنا الفكرة فشرعنا على الفور في تنفيذها. كنا سبعة فخرج خمسة منا خلسة من النافذة، وفكّوا بغالهم وابتعدوا. وعندما سمعنا الجلبة المتفق عليها، والصيحات ونفخ الأبواق، ووقع حوافر البغال بدأ زميلى يدق على الخزانة دقات قوية منتظمة. واندفعت من الغرفة صائحا: "الاتراك، الأتراك، رأيتهم بعينى من النافذة، رأيت العمائم في ضوء المشاعل التى يحملونها. قراصنة أتراك نزلوا الشاطئ. إنهم يقتربون من الفندق. النجدة. النجدة" وكان زميلى يواصل الدق على الخزانة ويعزز صياحى بالصياح واختلطت أصواتنا بأصوات زملائنا في الخارج بصراخ صاحبة الفندق. خرجت من غرفتها مهوشة الشعر، نصف غافية، تحمل شمعة في يد راجفة وتصرخ في هلع. قلت لها:

– قد لا يصيبوننا بالأذى ولكن المصيبة في العاملين في الديوان. سيتعرفون عليهما ويرون المرأة المقيدة فيزدادون سخطا ويقتلوننا جميعا. ما العمل الآن، كيف نهرب؟!

نادت المرأة مولولة على موظفى الديوان ثم اندفعت إلى الحجرة التى ينامان فيها. وفي غمضة عين كان الرجلان يهرولان خارجين بملابسهما الداخلية، يمسك كل منهما بفردتى حذائه في يد وملابسه في اليد الأخرى. تذكر الطويل قبعته فوضعها مائلة على رأسه أما القصير فخرج من الفندق راكضا بلا قبعة. ركبا حماريهما واختفيا.

قلت للمرأة البدينة

– ادخلى غرفتك وأغلقى الباب بالمفتاح. سأتصرف مع الأتراك. سأخبرهم أنك تشفقين على العرب من أمثالنا.

حللت وثاق المرأة المقيدة ولحق بى زميلى ثم ركبنا بغلتينا وذهبنا لملاقاة باقى زملائنا.

لم نضحك في حياتنا كما ضحكنا في تلك الليلة. لم نُعد المرأة إلى قريتها بل أخذناها إلى دار شخص من معارفنا وبقيت هناك حتى جاء أهلها وأخذوها.

ضحك فرانسيسكو زمزم ثم تطلع إلى على واكتسى وجهه بالجدية، وقال:

– في هذه المرأة يا صاحبى شئ لله. ألهمنا الله وما ألهمنا لأنه يريد لها السلامة. انظر

أخرج من تحت ثيابه كيسا قماشيا صغيرا من الحرير الأخضر مطرزا بخيوط بيضاء.

– صنعت لى لوسيًا مورينا هذا الحرز، ونصحتنى أن أبقيه ملاصقا لبدنى ولا أخلعه أبدا. قالت لى: "إن الإنسان الذى لا يتحرز بحجاب كدار مفتوحة بلا باب، يدخلها كل من هبّ ودبّ من إنسان وجان. وحرزك على بدنك باب موصد في وجههم فلا يملكون الدخول عليك بالأذى". وصدقت فمنذ حملت هذا الحرز لم يصبنى أى سوء، وكلما تعرضت لمأزق خرجت منه آمنا. إنها امرأة مباركة، وما فعلناه فى تلك الليلة لم تُمله علينا عقولنا بل كان إلهاما من الله.

- ٥ -

ذهب على إلى بالينسية وعاد دون أن يجد كوثر أو يعثر لها على أثر، ثم سافر مرة ثانية بلا جدوى فقرر ألا يواصل البحث. قال: ليست سوى صبية أخذت قلبى حين تطلعت إلى وجهها. ولكنها ضاعت، سأخلفُ الحكاية ورائى، وانشغل بما تقتضيه الحياة من حياة. يعمل في حقله، يعلمٌ الصغار، يروح ويجىء ، يأكل ويشرب وينام. ثم داهمته ذات ليلة صورة الموسسات في ذلك الخان. قبل طلوع الشمس ركب بغلته وقصد بالينسية.

وجدها تبيع السمك في سوق المدينة الكبير، لم تتعرف عليه فعرّفها. قالت:

– ما الذى تريده منى؟

– أن تعودى إلى الجعفرية

– قتلوا أختى، وإن عدت يقتلوننى

– يجيرك عمر الشاطبى حتى يصلح بينك وبين أهلك.

– قتلوا أختى، لا أريد العودة إليهم.

كانت تتطلع إليه بنفس النظرة الصريحة التى سبته. غض الطرف ثم عاد يرنو إليها، قال:

– هل تقبلين الزواج منى؟

طرفت عيناها، قالت:

– أشكرك!

– توافقين؟

– لا أوافق!

مسح العرق عن جبينه بطرف كمِّه وذهب.

غادر بالينسية قاصدا فرانسيسكو زمزم. نزل داره يوما وليلة واستدل منه عن مكان لوسيًا مورينا. قطع الطريق الوعر بين القريتين. ولما وصلها قال:

– أريد حرزا قويا يحمى صبية من الزلل، ويصونها من الأذى.

حمل الحرز وركب بغلته وعاد إلى بالينسية. أعطاه لكوثر:

– ستحتفظين به؟

– سأحتفظ به!

– سأكلم عمر الشاطبى وسنذهب معا إلى أهلك. اسمعى منى يا كوثر. البقاء هنا هو المخيف وليس العودة إلى القرية. لا تخافى من أهلك.

أشاحت بوجهها، قالت:

– لا أريد أهلى ولا أريد القرية!

قال على لنفسه إنها خائفة وغاضبة، بعد وقت يتبدد الخوف والغضب وتهدأ. ما إن عاد إلى الجعفرية حتى تحدث مع عمر الشاطبى ولكن الشيخ قال: "أسلمت روحها للشيطان. لم تعد منا، ولا شأن لنا بها". بعد أيام أثار معه الموضوع ثانية، بدا الشيخ أقل غضبا. وفي المرة الثالثة لان أكثر فأسهب على في الكلام عن مخاطر الحياة في المدينة: "وهى طفلة في العراء، لا أهل، ولا مال، ولا سند. صبية مقطوعة، والمدينة تغص بالمومسات وأولاد الحرام. هل نرمى لحمنا للكلاب. إن تركناها يسألنا الله عنها يوم القيامة".

رافقه عمر الشاطبى إلى أعمام كوثر، ثم رافقه إلى أخوالها. تطابق كلامهم: "سيعود أخوها ليغسل بيديه العار. وإن لم يظهر سيقوم واحد منا بذلك." ولكن عليًا لم ييأس قال: بعض الوقت وتهدأ النفوس ... وأمها، كيف يلتقى بأمها؟ وكم يطول بعض الوقت هذا؟!

تأجّل السؤال وتوارى كما توارت غيره من المشاغل وراء ذلك الوافد الذى نزل الجعفرية بمرافقيه وأتباعه وخدمه.

لم يثر الخبر عندما تناقله الأهالى سوى الفضول واستباق متعة الفرجة على شخص يتردد اسمه على لسانهم كل يوم مسبوقا "بالله لا يبارك له" يسبّونه أو يلعنونه، ويكرهونه كراهية غير مشخّصة فلا أحد منهم رآه، ولا انشغل بطوله وعرضه أو أصله وفصله، حاضر غائب كالشيطان أو الجان أو عزرائيل الموت أو الملك.

قال الوكيل: "سيأتى الدوق لقضاء بعض الوقت في قصره ومباشرة مصالحه في الإقطاعية" فليأت، لن يقيم فوق رؤوسهم، وما يدفعونه في غيابه لن يزيد بحضوره، سيسكن هناك أعلى التلة في قصره بعيدا عن بيوتهم وحواريهم. هذا ما قاله الأهالى ولكن عجوزا قالت وهى تتنهد: "يا قاعدين يكفيكم شر الجايين!" ولم يعر أيّا من أبنائها اهتماما لعبارتها ولكنهم عادوا وتذكروها.

شاهد الأهالى الركب: العربة السوداء المزينة بمستطيلات مذهبة الطلاء، يجرها حصانان أشقران قويان، يسوقهما حوذىٌ يرتدى ملابس الأمراء: قبعة مخملية تزينها ريشة، وسروال ضيق يفصل الساقين، وسترة مقصبة. هذا هو الحوذى، ترى كيف يبدو السيد، وما الذى يرتديه؟!

كان السيد بصحبة زوجته وأولاده داخل العربة مسدلة الأستار، ومن خلف العربه ركب من الفرسان يعتلون خيولا باذخة السروج، وخلف الخيول بغال تحمل الأمتعة يسوقها عبيد بينهم الأسود والتركى والنحيل ذى الملامح الدقيقة والشعر الأملس والذى ميزه صالح بلبيس وقال: "إنه من سكان العالم الجديد الواقع فيما وراء البحار. رأيت العديد من أمثاله عندما كنت في مدريد".

راقب الأهالى الموكب، وتحدثوا عنه يومين وليلة ثم عادوا لأشغالهم. ولكن

الوكيل دعا كبار القرية لاجتماع عاجل: "متى؟" "غدا"، "ولماذا؟"، "ياخبر بفلوس!" ناموا متسائلين وفي اليوم التالى ذهبوا للقاء بالوكيل. قال:

– الدوق غاضب، ويقول إنكم تسرقونه.

– نسرقه؟!

– يقول إن ما تدفعونه من الايجار أقل من القليل، وإن غيره ممن يملكون إقطاعيات أصغر يحصلون على أضعاف ما يحصل عليه.

– ندفع له الإيجار، والضريبة، ويوم السخرة نعمل فيه بلا مقابل في الشهر مرة. وندفع للملك، وندفع للكنيسة فما الذى يتبقى لنا؟!

– ما على الرسول إلا البلاغ. يقول سيدى الدوق إن الأرض خصبة ومحصولها وفير وهو لا يحصل على حقه منكم، ويكفى ما اقتطعتموه في السنوات الماضية. لا يطلب منكم سوى ما يطلبه غيره من أصحاب الاقطاعيات.

– إنه يأخذ ما يأخذه غيره من ملاك الأرض: الضريبة والعُشر، ويملك الفرن والطاحونة والمعصرة ومضرب الأرز، ولا نملك استخدام مرافق غيرها حتى إن كانت أرخص . نتعب ونشقى ونعيش على الكفاف ونعطيه ليعيش كالأمراء وبعدها يقول اننا نسرقة، لا إله إلا الله!

علت الأصوات، وتوترت الأبدان، واحتقنت الوجوه ثم انفض الاجتماع وعاد كل إلى داره مغموما يحمل هم المطالب المحددة: ربع محصول الزيت والزيتون، نصف ثمار أشجار الخروب والفاكهة، ونسبة من التين المجفف والزبيب ، وغزل النساء في البيوت وما يصنعنه من السلال والدواجن التى يربينها، فما العمل؟!

كشفت النساء رؤوسهن أمام الشمس ساعة العصر ودعون على كل ظالم مستبد وعينّ الدوق بالإسم، وإن ضقن بعدم معرفة إسم أمه لتكون الدعوة مكتملة الأركان، يسمعها الله في سمائه فينزل غضبه في الحال ولا يمهل.

وبات الرجال ليلتهم مؤرقين، يجمعون ويطرحون، يحسبون الوارد والمصروف، غلّة الأرض وضرورات الحياة والضرائب والمطالب المستجدة للدوق. يختصرون الحاجات، يختصرونها أكثر ويحسبون ثم يفرّون جالسين. يسبّون ويلعنون ثم يستعيذون بالله ويستهدون به ويعيدون الحساب من جديد.

قلّب الأهالى الأمر فيما بينهم، في الحقول، في ساحة القرية، في الفرن والطاحونة ومضرب الأرز والمعصرة، وأيضا في مضايف الدور. زادوا وعادوا فما أوصلهم الكلام إلا للنتيجة نفسها: في مطالب الدوق خراب بيوتهم. ذهبوا إلى الوكيل قالوا: "ما يطلبه السيد مستحيل، لا نملك ولا نستطيع". ذهب الوكيل إلى الدوق ثم عاد بعد يومين بالرد: "يقول الدوق إنه لن يتنازل عن حقوقه، وإن امتنعتم سيلجأ إلى القوة!"

لم يكن الوكيل بحاجة لشرح المقصود ولا تذكيرهم بما حدث قبل عامين في "بنى حسن" فالكل يعرف، الصغار والكبار، والرجال والنساء.

لم تكن "بنى حسن" مجرد قرية مجاورة يصلها المرء مشيا على قدميه في ربع نهار، أو يركب حصانه أو بغلته أو حماره وينزل الجبل إليها، ويقضى حاجته فيها ويعود في اليوم نفسه. كانت تربط أهالى القريتين علاقات مصاهرة وصداقة وبيع وشراء.

كانت الأمطار شحيحة ذلك العام، والماء في الوادى بالكاد يكفى ضرورات الرى فأقام أهالى «بنى حسن» قنطرة على المجرى تسببت في نزاع مع إقطاعى يملك أرضا مجاورة. تدخلت السلطات. "افتحوا القنطرة"، "تروى أرضنا أولا ثم نفتحها"، "افتحوا"، "لن نفتح". فوجئ الأهالى بقوة من الفرسان المسلحين يدخلون القرية ويهدمون القنطرة ويجمعون كبار البلد ويعلمونهم أن عليهم دفع غرامة في غضون شهر واحد وإلا اقتيدوا إلى السجن. دفع أهالى بنى حسن الغرامة بكل ما

معهم من مال وباعوا ذهب نسائهم واستدانوا من أهل الجعفرية ومن سواهم دينا لم يتموا بعد سداده. هل هذا ما يلوِّح به الدوق؟ أم يأتي العسكر ليقطفوا نصف الثمار على الشجر، ويأخذوا من المعصرة ربع الزيت، ويدخلوا على النساء الدور ليفتشوا عن الدواجن والمغازل وسلال التين والزبيب؟

قررت الجعفرية الإذعان لمطالب الدوق. "لا حول ولا قوة إلا بالله" "الله يمهل ولا يهمل وهو المنتقم الجبّار" يتمتم اللسان بالكلمات ليفك ضيقا لا ينفك، والحسرة تثقل القلوب، والمرارة تطغى على طعم اللقمة وتبدد حتى فرحة الزيتون. جمعوه عن الشجر وعصروه وأعطوا ربعه في هدوء كأن الغضب لا يتقد جمرة في الصدور.

كيف حدث ما حدث؟ لا أحد يعرف بالضبط. هل كان النجارون هم الذين بدأوا برفض العمل بلا أجر في يوم السخرة أم البناؤون الذين طلب منهم تجديد جناح في قصر الدوق؟ أم بدأه الصبية في بساتين القصر حيث يعملون في العناية بالزهور والأشجار؟ أم بدأ العصيان النساء حين خرجن إلى أبواب الدور وتربعن في الشمس يثرثرن كأن اليوم ليس يوم السخرة ولا يتعين عليهن تقديم منتوج الغزل للدوق؟

توقف العمل في الجعفرية. تجمهر الرجال في الساحة ثم تطلعوا من حولهم فانتبهوا لكونهم كثرة: فتية أشداء ورجال وكهول وصبية وشيوخ؛ حرّاثون ونجارون وحدادون وبناءون وطحانون وعمال المعصرة وخبازون وخياطون.

– لنذهب إلى قصر الدوق

– لنذهب!

صعدوا باتجاه القصر. التقوا بالوكيل وثلاثة من معاونيه يهرولون هابطين. صاح فيهم الوكيل ليسمعوه ولكنهم تجاوزوه وواصلوا الصعود. استدار وهرول صاعدا ثم ركض ليسبقهم إلى القصر ليُعلم سيده.

أحاطوا بالقصر فخرج إليهم الدوق. قال كلاما باللغة البالينسية فهمه البعض ولم يفهمه البعض الآخر. ترجم الوكيل الكلام:

– يسألكم الدوق ما الذى تريدونه؟

– تحدث عنا يا سى عمر.

قالها شخص فرددها آخرون.

– نفوّض عمر الشاطبى

تقدم عمر الشاطبى وصعد الدرج المفضى إلى بوابة القصر.

دعاه الدوق إلى الدخول.

وقف الحشد ينتظر. مرّ الوقت بطيئا وثقيلا ثم ظهر عمر الشاطبى باسم الوجه.

– خير ؟!

صاح الشيخ بأعلى صوته.

– خير إن شاء الله. وافق الدوق على التراجع عن مطالبه. نصرنا الله وأعزنا، وهو على كل شئ قدير .

هرولوا هابطين تحملهم الطريق المنحدرة من القصر إلى الساحة خفافا مسرعين، والفرحة في صدورهم تسابق خطو الأقدام تكاد تطير بهم طيرا إلى زوجاتهم. كان الصبية يتقافزون ويصيحون والشباب يركضون، والرجال والكهول والشيوخ، حتى الشيوخ كانوا يسارعون الخطو.

قبل أن يصلوا الساحة سمعوا زغاريد النساء والأهازيج. عزز الصوت الفرح ثم وصلوا الساحة فأمسك الرجال بالعصى ورقصوا.

احتفلت الجعفرية ثلاث ليال ثم رحل الدوق. راقبوا العربة السوداء المذهبة والحوذىّ والحصانين الأشقرين في الطريق المنحدرة من القرية. وتابعوا ركب

الفرسان والخدم والعبيد، والبغال المحملة بالأمتعة. زغردت النساء. كان عيد الأضحى بعد يومين فعّيدوا قبل العيد، وفي العيد ذبحوا الضحايا وواصلوا الفرح.

في اليوم الرابع للعيد داهم القرية مائة من الفرسان المسلحين توزعوا في الحوارى، واقتحموا حرمة البيوت، كسروا جرار الزيت والزيتون، شقوا أكياس الطحين والسكر، ألقوا بالتين والزبيب وداسوه بأحذيتهم ولوثوه بالطين وبالبصاق، مزقوا ما وصلت إليه أيديهم من جلالات المخمل وأثواب الحرير، حطموا المغازل والأنوال، ثم غادروا القرية مخلفين وراءهم ثلاثة من القتلى وعشرة مجروحين ونساء تولول على الشباب الذين اقتادوهم إلى سجن الناحية.

- ٦ -

"تغيرت" . تمتم على وهو يتأمل كوثر. كانت تقف على بعد بضعة أمتار وراء بسطة السمك المعروض للبيع. لم يعد وجهها شاحبا نحيلا. زاد وزنها وتورد وجهها مع امتلاء الجسم. لم تعد طفلة، كبرت. ترى هل تفرح لرؤيته؟ هل تعجبها الهدية؟ هل افتقدته وقد غاب عنها كل هذه الشهور؟ ظل واقفا يراقبها وهى تتحدث مع الشارين، تزن لهم السمك وتقبض ما يدفعونه، تبتسم، تبدو منشرحه مبسوطة.

اقترب فرأته، رحبت به. ودّ لو تسأله لماذا غاب هكذا طويلا. لم تسأل. أراد أن يشير إلى ذلك الامتلاء الذى زادها حسنا، لم يقل سوى:

- هل أنت بخير يا كوثر؟

- الحمد لله بخير، تزوجت وبعد أربعة أشهر يأتينا المولود.

قالتها ببساطة، بعادية كأنها لا تقول شيئا. انعقد لسانه ولكنها واصلت:

- زوجى رجل طيب يحسن معاملتى. إنه صيّاد، ساعدنى على العمل هنا ثم طلب منى الزواج.

- ما اسمه؟

- سانشو لوبث

- نصرانى؟

- ألم نعد نحن أيضا نصارى؟!

غادر السوق. ماله وهذه الصبية، لماذا يعشقها، لماذا يقطع المسافات ليتملىّ وجهها؟! لعنة الله عليك يا على وعلى اليوم الذى رأيتها فيه. لماذا تنشغل بها،

وتشترى لها المخمل الغالى، تلف السوق وتحدق في الأقمشة تلمسها وتتحير، تريد لها الأبهى والأغلى؟! ألم ترفض الزواج منك وفضلت عليك غريبا يتحمم في العامين مرة؟! رأيتها بعينيك متوردة الوجه ممتلئة ببذرته فلتذهب إلى الجحيم، ليست سوى صبية حملت العار لأهلها ووشت بأبيها للديوان.

ألقى القماش على الأرض، بصق عليه، داسه بقدميه. ظل يمشى في الطرقات حتى كلّت قدماه. عاد إلى الفندق. صعد إلى غرفته، لم يطق الجدران، نزل إلى باحة الفندق. طلب عشاء فأتوا له بالعشاء. لم يتناوله. قام إلى ركن المومسات واصطحب واحدة منهن إلى فراشه، ضاجعها.

– لماذا تبكى يا سيدى؟

كانت تحدق فيه باندهاش أبله. ناولها أجرها وطلب منها أن تنصرف. ارتدت ملابسها وفتحت الباب وخرجت ثم عادت.

– هل ستعود للبكاء ثانية؟ بإمكانى أن أبقى معك، لن أطالبك بأجر إضافى.

تطلع إليها كانت دون العشرين، في وجهها الأسمر ملاحة وإن شابته ندبة في جبينها من ناحية اليمين. شعرها أسود مموّج يطول كتفيها، وكتفاها صغيران كباقى الجسم الذى لم يكن نحيلا ولكن أقرب لصغر الحجم تبرز كبر الثديين نحافته.

– ما اسمك؟

– نجاة.

– هل تعملين هنا منذ زمن يا نجاة؟

– منذ قرابة عامين يا سيدى. لست من بالينسية بل جئتها من قرية ...

قاطعها:

– اجلسى يا نجاة؟ احكى لى حكايتك.

– أحكى حكايتى؟

– احكيها!

– نحن في الأصل من سرقسطة. يقول أبى إن أجدادنا كانوا يعيشون فيها ثم انتقل فرع منهم إلى مملكة بالينسية. ولدت في نواحى بنى قارلو على شاطئ البحر. لا أذكر أمى لأنها ماتت وأنا صغيرة ولكنى أذكر أبى. كان رجلا طيبا ويحبنى ويدللنى ولا أطلب شيئا إلا ويحضره لى. ولما مات أبى انتقلت للإقامة مع عم من أعمامى. كانت زوجته قاسية تضربنى كثيرا. ثم أحببت شابا لم يكن يقيم في القرية ولكنه كان يتردد عليها. طلب منى الزواج ففرحت ولكنه قال إن عمى لن يقبل لأنه غريب، وأنا أيضا خفت من زوجة عمى. قلت له "ما العمل؟!" قال: "نذهب إلى المدينة ونتزوج" هربت معه وجئنا إلى بالينسية ونزلنا في هذا الخان.

هل كان النحس يلاحقنا أم أن زوجة عمى عملت لى عملا تسبب في هذا الشر؟! في ليلتنا الأولى هنا في المدينة فتح أحدهم الباب علينا وأمسك بتلابيبى وقال إننى أمارس العمل بدون ترخيص. لم أفهم تماما ماذا يعنى ولكنى أقسمت له أن مسعودا طلب منى الزواج، وأننا سنتزوج صباح اليوم التالى. تطلعت إلى مسعود لكى يؤكد كلامى ولكنه بقى صامتا كأنه بلا لسان. "قل يا مسعود، انطق يا مسعود!" أخيرا نطق، هل تعرف يا سيدى ماذا قال؟ قال إنه لم يكن يعلم أننى أعمل بدون ترخيص وارتدى ملابسه وحمل أغراضه وتركنى وذهب. هل تصدق؟! ساعتها قال لى الباستو

– من هو الباستو؟

– متعهد هذه الأمور في الخان، وهو الذى يُحصّل منا النسبة المقررة للملك.

– الملك؟!

– نعم يا سيدى. أنا أيضا لم أكن أعلم كل هذه الأشياء ولكنى صرت أعلمها. كل مرافق الحى العربى من أملاك الملك.

– هذه أعرفها

- وهذا الخان أيضا من أملاكه، وبما اننا نعمل فلابد أن يذهب جزء مما نكسبه إلى الملك، يأخذه الباستو، يقتطع أجره ويرسل الباقى إلى الملك. الجزء الأكبر مما أكسبه يذهب إلى الدون سباستيان لأنه اشترانى والجزء الأصغر يذهب للملك، أما في البيوت المخصصة لمارسة هذا الأمر فيذهب الجزء الأكبر للملك لأنه صاحب المكان يديره لمنفعته، أما الجزء الأصغر فتحتفظ النساء به لأنفسهن ما دمن أحرارا لا يمتلكهن أحد.

- هل أكمل حكايتى يا ... ما اسمك يا سيدى؟

- على.

- هل أكمل حكايتى يا سى على؟

- أكمليها.

- أمسك بى الباستو وقال انه لن يخلى سبيلى إلا لو دفعت له ثمن الترخيص وغرامة إضافية لأننى كنت أعمل بدون ترخيص. قلت له: "ليس معى نقود". قال: "إذن نبيعك ونسدد ما عليك من دين". بكيت وتوسلت إليه، وقبلت يده وعرضت أن أعمل في خدمته وخدمة زوجته ولكنه لم يتزحزح قال: "لماذا تبكين لن يتغير عليك شئ، سأبيعك لشخص يُشغِّلك في نفس العمل" لطمت وصرخت.

تطلعت إلى على ثم تنهدت. شردت عيناها وتمتمت: زوجة عمى هذه قادرة، سحرت لى، ولعملها مفعول قوى، كل ليلة أدعو عليها. ربما ماتت بسبب دعائى ولكن كيف أعرف وهى تسكن هناك في آخر الدنيا!

بدت وكأنها تحدث نفسها ثم التفتت إلى على وعادت تحدثه.

- تبدو طيب القلب يا سى على، لم لا تشترينى من الدون سباستيان، وتأخذنى معك فأخدم زوجتك وأولادك؟

- ليس لى زوجة ولا أولاد!

- أخدمك.

- ليس في مقدورى شراؤك يا نجاة. .

- أليس من بين معارفك من يقدر على ذلك؟

لم يجب.

- سمعت من صاحبتى أن هناك أولاد عرب يعز عليهم أن نمتهن هذا العمل وأن بعضا منهم ذات مرة جمعوا مالا واشتروا ثلاثة منا وأعتقوهن. من يدرى لعل كلاً منهن الآن وجدت زوجا وخلفت أطفالا. اسأل يا سى على قد تجد من يرغب في شرائى.

- سأسأل.

- هل تذهب إلى القداس؟

استغرب السؤال والانتقال المفاجئ من موضوع إلى سواه. هل تكون المرأة عينا من عيون الديوان؟ ولم لا، إنها مومس لا رابط لها ولا خلق. لا يشى وجهها بأى شر، على العكس تبدو طيبة وبها سذاجة، ولكن الظاهر لا يكشف الباطن في كل الأحوال.

- طبعا أذهب إلى القداس.

- أنت مسلم، أليس كذلك؟

تريد الإيقاع به، تطمع في مكافأة من الديوان تشترى بها حريتها. ادعّى التثاؤب.

- كان أجدادى مسلمين وتنصّروا، وأنا الآن نصرانى، اذهبى الآن يا نجاة لأننى متعب، سأنام.

- سأذهب حالا يا سيدى ولكنك رجل طيب وقد اطمأن لك قلبى فقلت أسألك عما يحيرنى. كان أبى رحمه الله يقول إننا مسلمون، ولكن الناس هنا يقولون إن

المسلمين سيذهبون إلى النار. أذهب إلى القداس وأركع وأصلى للمسيح ثم أذكر كلام أبى فأدعو إلى رب المسلمين ثم أضطرب ولا أدرى أيهما الرب الصحيح فأدعوه لكى يساعدنى.

– اتركينى لأنام.

– ولكنك لم تجب على سؤالى!

– اتبعى كلام القس.

ذهبتْ وظل مؤرقا يفكر في سؤالها وجوابه. إن لم تكن عينا من عيون الديوان يتحمل وزرها وقد ضنّ عليها بالنصح وضللها بالكلام.

هل شغلته نجاة بحكايتها أم أنه تشاغل بها لكى لا يفكر في كوثر؟ ما إن وصل الجعفرية حتى ذهب إلى عمر الشاطبى، قال له:

– أقصدك في مشورة وفتوى سألنى عنها رجل التقيته مصادفة في بالينسية. أما المشورة فتخص المومسات من بنات العرب. أخبرنى ذلك الرجل أن عددهن ليس قليلا، البعض منهن عبدٌ مملوك يُشغله أسياده الملاك، والبعض الآخر لا يجد مصدرا آخر للقوت.

قال عمر الشاطبى:

– ناقشنا هذا الموضوع قبل سنوات عديدة في اجتماع لفقهاء الناحية واتفقنا أن نجمع المال لنشترى البعض ثم نعتقهن ونوفر لهن مصدرا كريما للرزق. وفعلا جمعنا المال اللازم واشترينا ثلاث نساء، ونقلناهن إلى قرية من قرى الناحية فإذا بنا نواجه بمشكلة لم تكن في الحسبان. خافت نساء القرية علي بناتهن، والرجال على زوجاتهم وحدثت مشاجرات عديدة حتى أن فقيه القرية جاءنى قائلا: إننا أخطأنا في قرارنا خطأ عظيما، وحكى لى كيف تعاركت بعض نساء القرية مع الوافدات الثلاث فهربن ولم يعثروا لهن على أثر. "ومن يومها" قال لى الرجل " –

ونحن في ذعر من أن تثرثر أى منهن بما رأته من تفاصيل حياتنا اليومية – قل لصاحبك إن كان هناك واحدة بعينها يثق في معدنها الطيب فليعطها ما تجود به نفسه حتى تتمكن من بدء حياة كريمة. ولكن انصحه بألا يأخذها إلى قريته أو يصطحبها إلى الحياة بين أهله.

– وهل تجوز الصدقة على المومس؟ هذه هى الفتوى التى سألنى عنها صاحبى.

– لو استتابها وتابت تجوز الصدقة. ليعطها ما يقدر عليه وليجد لها عملا يسترها إن أمكنه. ولكن الحرص واجب يا بنى فالمرأة التى تقبل بهذا العمل عادة ما تحمل بذرة الفساد.

غادر دار عمر الشاطبى وعاد إلى داره. قبل أن ينام حمل الصندوق الذى يحمل اسم كوثر وأخفاه في قاع الخزانة. أكل ثم تمدد على فرشته ونام.

- ٧ -

عمر الشاطبى هو الذى بشّره. طرق بابه ليلا وقال:

– علمت بالخبر في التو فقلت أفرِّح الأحباب: عاد من أسطولهم أقل من نصفه والباقى تحطم وابتلعته أمواج البحر.

في الصباح كان الخبر قد شاع بين الأهالى وفاح العرس في الجعفرية. حتى العجائز والصغار صاروا عالمين بتفاصيل التفاصيل يتبادولونها على أعتاب الدور وفي الساحة وفي المعصرة والطاحونة، وبالقرب من الفرن ومضرب الأرز. يحكى الرجال وتحكى النساء ، في الحقول وفي ستر البيوت والدنيا نهار، وفي الليل يعيدون ويزيدون ، يبرد قلوبهم الكلام والنسمة الصيفية العليلة: أسطول أسبانيا الذى يسد عين الشمس ويرهب أعتى الجبابرة خرج لملاقاة الإنجليز.

– كم سفينه؟

– مائة وثلاثون.

– الله أكبر مائة وثلاثون!

أبحرت السفن شمالا بالقادة والعسكر والملاحين والمحكومين يجدفون أو يرفعون الصوارى وينشرون القلوع. ودع الملك قائد أسطوله وجلس على عرشه ينتظر.

– انتظره عزرائيل!

فإذا بالأخبار تنهمر عليه كالصاعقة من السماء. انتصر الإنجليز على أسطولك

يا ملك، وما بدأه الإنجليز أكملته العواصف وأمواج البحر والصخور. انكسرت الأرمادا التى تسد عين شمس، كسرها الانجليز!

– شكرا للإنجليز!

– ألف شكر للإنجليز!

– من هم الإنجليز؟!

لا أحد يعرف أو يهتم بأن يعرف أكثر من أنهم يبردون نارهم كل حين عندما تتسرب أنباء عن سطوهم على سفينه أسبانية مبحرة إلى هنا أو هناك فأحبوا الإنجليز. ولكنهم في هذه الأيام أحبوهم أكثر كأنهم من باقى أهلهم العرب والمسلمين.

لم يكن الأهالى قد جمعوا الزيتون بعد. ولكنهم صرفوا ما في الجيب لأن عرسا عزيزا كهذا يليق به السخاء والكرم. ذبح الرجال الخراف وفتلت النساء الكسكس، وتصدقوا وأولموا وأكلوا ، وبدت دورهم وحواريهم مجلوة كالمرايا وقد كنسوها وشطفوها وزينوها بالسعف وأنوار الزهور.

وفي ليلة الخميس احتفلت الجعفرية بالليلة الكبيرة. ارتدى الرجال ملابس العيد، وتعطرت النساء وتزينّ بكحل العيون. رقص الرجال بالعصى وغنوا، وتوزعت النساء بين الفرجة علي الرجال من أسطح البيوت والحلقات المغلقة على رقصهن والأهازيج.

أعلنت الجعفرية الفرح بنصر حققه الإنجليز.

– من هم الإنجليز؟

قال شاب من الشباب:

– ليسوا أفضل من حكامنا الأسبان. إنهم يتعاركون على السيادة والملك، كلٌ يطمع في النصيب الأكبر.

تطلع إليه الرجال مخذولين، وهل يصح النعيق في الأفراح. العرس مقام

والبهجة مشعشعة كالخمر في الرؤوس. كسر الإنجليز شوكة الأسبان، مرّغوا أنفهم في التراب فشكرا للإنجليز، أحب الأهالى الإنجليز.

بعد أيام سأل على عمر الشاطبى:

– ماذا لو تصالح الإنجليز والأسبان، ألا يكون ذلك الشاب على حق ونكون نحن المخطئين؟!

– يكون على حق في تقديره ، ونبقى على حق في ابتهاجنا لأن انكسار الأسطول عززنا بإضعاف عدونا ، وأشعرنا أن للظالم يوما وأنه رغم قوته يمكن أن يهزم.

– وهل تعتقد يا سى عمر أننا قادرون على هزيمته؟

– بعون الله نعم قادرون.

– بلا عون من أحد ؟

– قد يعيننا الترك أو الفرنسيون.

– وإن لم يفعلوا نعش ونمت مكمودين مهانين، ولا تجد ذريتنا من بعدنا سوى نفس المصير!

– ما الذى دهاك يا على، أين إيمانك يارجل؟! الله أكبر ويخلق مالا تعلمون. ما هى إلا ليلة وضحاها ويدمر الله ملكهم ويهلكهم كما أهلك عاداً وثمود وغيرهم. ليس ما نعانيه سوى اختبار لقوة إيماننا، فهل ترسب يا على في الاختبار؟!

كان صوته عالياً ومحتدا ولائما. ثم توقف عن الكلام ولما واصل كان صوته أهدأ، قال:

– الحرب سجال يا ولدى، يوم لنا ويوم علينا ثم ينصفنا الله لأننا أصحاب حق، ولأننا أسلمنا أنفسنا له وعبدناه ورفعنا ذكره . حين اندلعت الثورة في البشرّات كنا نتابع الأخبار وروحنا معلّقة بها. نصحو عليها وننام. نجمع ما نقدر عليه من المال ونرسله سرا، ونبحث كيف نعزز الثوار بالرجال. نبتهج مع كل نصر

يحققونه، نوّد لو أن آذاننا تسمع دبيبهم على الأرض لنتبع خطاهم ونمنحهم قوة سواعدنا وعزمنا. لا نطول منهم سوى الأخبار فندعو لهم في كل لحظة.

ثم انهزم الثوّار وتوالت علينا بعد المصيبة مصائب، انتصر أسطول الملك على الأتراك في ليبانتو ثم استولى على تونس. هل فقدنا الأمل؟ حزّنا واضطربنا وخفنا ولكننا تشبثنا باليقين فأكرمنا الله. عامان اثنان لا أكثر وعشنا فرحة هزيمتهم في تونس وخروجهم منها ثم محاصرة قواتهم في قبرص . استجاب الله لدعائنا فإذ بهم صاروا هم المحاصرين يواجهون الأعداء من كل جانب. يخشون الأتراك، ويخشون الفرنسيين ويخشون تمرد اللوثريين. وها هم الإنجليز يكسرون الأرمادا. إن الله يمهل ولا يهمل يا ولدي.

من أين يأتي عمر الشاطبي بكل هذا اليقين؟ يؤمن بالله مثله فلماذا يؤرِّقه الشك في النهايات العادلة السعيدة، وفي نظام معقول يحكم هذه الدنيا. في أواخر عمره أصيب نعيم بالجنون. كان صغيرا فلم يفهم أن الرجل كان غاضبا ومخذولا ومعذبا إلى حد الجنون. كان يحكي عن تفاصيل كثيرة عاشها فى العالم الجديد ويسترسل في الكلام عن البحر والأشجار والطيور والمطر، ويقول إن له زوجة وأيضا ثلاثة عيال. وتقول مريمة إنه مختل والصغار الذين يتحدث عنهم من صنع الخيال. سمعه ذات ليلة ينتحب. أيقظه الصوت فخرج إلى باحة الدار فوجده مقرفصا تحت شجرة التين يبكي. أفزعه بكاء نعيم، ظل واقفا في الرواق لا يقترب منه ولا يرجع إلى فرشته لينام. كان في السابعة من عمره ولم يفهم. هل يصبح حين يتقدم به العمر مثل نعيم تثقل عليه الدنيا حتى يصاب بالجنون. لا زوجة له ولا أولاد ولا مريمة ترعاه ولا حتى بيمارستان ينقله إليه أهل القرية حين يفلت منه العقل ويختل الميزان. لو أن كوثر قبلت الزواج منه لحملّها أطفالا يكبرون ويدرءون عنه الوحشة في آخر أيام العمر. لماذا رفضت الزواج منه؟ هل عز عليها أن يطلبها إشفاقا، هل توهمت أنه يطلبها إشفاقا؟! لِمَ لم يقل لها إنه أحبها منذ اللحظة التي

طرقت فيها باب بيته لتطلب أخاها؟! اختارت سواه وكان ما كان. غضب منها وعليها ويدهشه الآن أن الغضب راح. يفتش قلبه ويحدق فيه فلا يجد سوى حبه مضفورا بلهفة أمّ تدعو للصغيرة بهدوء البال والستر والسلامة. سيذهب إليها ويزورها ويأخذ معه هدية لوليدها. يقول له: "أنا خالك يا ولدا" باغتته الفكرة فابتسم ومسح دمعته. لن يذهب أخواله إليه. لو علموا أن كوثر تزوجت نصرانيا لاتقدت النار في قلوبهم أكثر. لم يسمع من جهتهم شيئا. يلتقي بأخيها الأصغر فيسألة: "هل خرج أبوك من السجن؟" يقول: "لم يخرج!"، "هل عاد أخوك الأكبر" يقول: "لم يعد!". يود أن يسأله عن أمه وماذا تقول عن كوثر ولكنه يمضي كأنه لا يعرف كوثر ولا يشغله أمرها.

قبل أن يأوى إلى فراشه أخرج الصندوق من قاع الخزانة وتأمله، لمس بكفه العصافير المشطوفة في خشبه، ورقائق الفضة التى تحمل اسمها، ثم أغمض عينيه وبدا له أنه سيرى كوثر في المنام. لم تأته، بل أتته مريمة، رآها كاملة فانتبه على وحشة أعادته للولد الصغير يصحو مضطربا ومنكّدا لأن جدته تركته وحده وذهبت إلى السوق.

- ٨ -

قال عيد الحلاق وهو يقص لعلى شعره:

- التُهاميّة قتلوا ابنتهم.

جفل على فأسقطت حركته المفاجئة المقص من يد عيد فمال على الأرض ليلتقطه.

- ما الذى دهاك يا سى على. لم يقتلوا أحدا بلا ذنب، لقد قتلوا كوثر، الصبية التى جرّست القرية وشكت والدها إلى الديوان. هل نسيت، لم يمض على الحكاية سوى ست سنوات؟! ظل أخوها الذى هرب يوم الواقعة يبحث عنها حتى وجدها في سوق السمك في بالينسية. تصور بنت الحرام تزوجت من نصرانى وخلفت منه بنتا. قتلها أخوها وأرسل بالخبرإلى أعمامه وأخواله. ألم تلحظ أنهم يمشون في القرية مرفوعى الرؤوس؟!

ناوله على أجره، في الدار ضاق بالسقف والجدران فغادره إلى ممر النخيل. ظل يمشى حتى مالت الشمس ثم غابت ثم هبط الليل وتوغّل. عاد إلى بيته وانزوى في ركن لا يفكر في شيئ بعينه، يشعر برأسه كتلة ثقيلة ولكن عائمة في فراغ، وجسده غريب عليه ككيس خاو لا يخصه وملحق رغم ذلك فيه، يجرجره بلا معنى، يتحرك به أينما تحرك ثم يجلس فينحطّ معه.

ظل قاعدا في الزاوية حتى صاحت الديوك ثم طلع النهار. قام إلى بيت الخلاء واستفرغ ما في جوفه. كان أكل البارحة على حاله في بطنه، تتقلص فتدفع به إلى جوفه وحلقه فيقذف به حارقا حامضا، يسرى في بدنه قشعريرة فيرتج بالوهن.

كان عليه أن يواجه النهار، كيف يواجهه؟ عاد إلى زاويته وبقى قاعدا. انقضى اليوم والليلة وعادت الديوك تصيح. شقشق الفجر وأضاءت الشمس المكان. خرج ليسعى في الأرض.

راودته الفكرة شهورا ثم حسم أمره، وركب بغلته، وقصد بالينسية.

كان يتناول عشاءه في الخان عندما سمع صوت امرأة تهتف باسمه. تطلع مندهشا فرآها تقبل عليه متهللة.

– حمد لله على السلامة يا سى على. انتظرت طويلا.

زاده الكلام اندهاشا ثم قدر أنها تخلط بينه وبين شخص آخر.

– سى على أنا نجاة، هل نسيتنى؟!

– نجاة؟!

تذكر فدعاها للجلوس معه لتناول العشاء. ظلت واقفة.

– اجلسى يا نجاة.

تلعثمت، ثم قالت:

– أفضل أن يكون أجرى نقودا.

ضحك مداراة للحرج، قال:

– ليس العشاء أجرا يا نجاة بل ضيافة!

جلست على استحياء ثم تطلعت إليه وقالت:

– لم أقل ما قلته بخلا وتقتيرا ولكنى أدخّر النقود لأدفع للدون سباستيان الثمن الذى حدده لبيعى، كدت أكمل المبلغ.

ياسى على كل يوم أبحث عنك بين نزلاء الخان ثم أقول لعله يأتى غدا أو الأسبوع القادم أو بعد شهر ولكنك لم تأت، هل أنت بخير؟

– الحمد لله.

– هل كنت مريضا؟.

- لا.

- تبدو أنحف.

- رأيتنى مرة واحدة يا نجاة. ربما نسيت شكلى.

- لم أنس شكلك. كنت أراك كل ليلة، أغمض عينى وأراك كأنك تقف أمامى. وأحيانا كنت أحدثك. هذه عادتى. لى ثلاث رفيقات يشاركننى الفراش يقلن لى ستفقدين عقلك إن واصلت الحديث مع الغائبين فأقول لهم إننى حين أتحدث مع أبى لا يكون غائبا بل حاضرا بطوله وعرضه، وابتسامته وجعدة شعره. يقلن لى: ربما ليس أبوك بل الشيطان يظهر على صورته. لا أصدق ما يقلنه لأن الصوت صوت أبى ورمشة العين، وإيماءة الرأس وحركة اليد كلها لأبى. وهو يأتى لزيارتى حتى بعد موته لأنه يحبنى كثيرا ويشتاق لى وأيضا لأنه لا يريد أن يتركنى وحدى. أرى أبى كثيرا وأحيانا أراك ونتحدث.

- سأذهب إلى حجرتى لأنام. لدى مهمة أقضيها في الصباح، وفي المساء ألتقى بك. تصبحين على خير.

بدا عليها الحيرة والاضطراب، قالت:

- إن لم يكن معك مال، أقصد بإمكانك أن تدفع لى لاحقا حين يتوفر المال.

- معى مال يا نجاة ولكنى متعب. اذهبى يا بنت الناس ونامى في أمان. تصبحين على خير.

في الصباح بكّر في الخروج من الفندق. قصد سوق السمك واستعلم عن الرجل. اشار صبى بيده إلى شاب سمين في العشرينات من عمره له وجه مدور كوجوه الأطفال وقال:

- هذا هو سانشو لوبث

اقترب على منه وحيّاه فرد الشاب التحية وسأله: أى نوع من السمك يريد.

– لا أريد سمكا، أريدك في حديث خاص لو سمحت.

مسح الرجل يديه وطلب من زميل له أن يحل محله ثم خرج من وراء العارضة الخشبية. قال علي:

– أنا قريب زوجتك.

امتقع وجه الشاب ثم سرت في ملامحه رعشة، ضغط على شفتيه بأسنانه ثم قال:

– ماذا تريدون؟! قتلتم زوجتى وهددتم بقتلى وقتل صغيرتى إن تفوهت بكلمة، لم أفتح فمى، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

– لا أريد منك شيئا. جئت لأقدم لك واجب العزاء وأرى الصغيرة و ...

– لا نريد منكم عزاءً، اتركوا الصغيرة، قتلتم أمها وهذا يكفى!

– ألا تسمح لى برؤية الصغيرة.

– لا!

كان وجهه يرتعش وقد اصطبغ أبيضه بحمرة قرمزية.

– لقد قطعت المسافة من قريتنا إلى هنا لأرى البنت وأقدم لها هدية.

– لن أسمح بذلك.

– إذن اعطها هذا.

ناوله على الكيس المخملى الأحمر الصغير. كان قد أودع فيه ثلاث دُبلات من الذهب.

أمسك سانشو لوبث بالكيس وبدا مرتبكا ثم أعاده إلى على.

– خذه، لا نريد منكم شيئا !

– الهدية للصغيرة، ليس من حقك أن ترفضها، وليس من حقك أن تحجب عنها أن لها أهلا من طرف أمها يحبونها ويسألون عنها.

ولكنه استدار ومضى مبتعدا.

لم يكن على قد غادر السوق حين سمع الصوت اللاهث:

- يا سيد، يا سيد.

كان سانشو لويث قد لحق به. تطلع إليه على ولكن سانشو وقف صامتا كأنه لم يتبعه ولم يناديه.

تحير على ولم يعرف ماذا يقول. مرت لحظة صمت قطعها سانشو:

- بإمكانك أن تأتى معى لرؤيتها.

منذ علم بما أصاب كوثر وهو يريد أن يرى الصغيرة وبدا له وهو يتبع سانشو من زقاق إلى زقاق انه سيحقق ما يريد فلماذا وهو عائد إلى الفندق كان حزينا يختنق بغصة في حلقه؟ وجد الصغيرة تشبه أمها، نفس لون البشرة، نفس العينين السوداوين الواسعتين والنظرة المباشرة الصريحة. ما الغريب في ذلك؟! لم تنفر منه بل على العكس أقبلت عليه وتركته يحملها ويضمها، وابتسمت له وقبلته وهو يلاعبها ويلاطفها وكان يضحك، ولكنه حين غادر البيت أسرع الخطو كأنه يطلب هواءً أو بكاءً أو مكاناً يهرب إليه. كأن أحدا يلاحقه والخطى التى تتبعه فيه. يمشى مكمودا مثقلا بحزن يكاد يقعده على قارعة الطريق. يجرجر جسده ، يريد بيت البيازين، يريد مريمة. ما الذى أصابك يا على لتبكى في الطرقات كالصغار؟ لأن كوثر ذهبت؟ لأنك رأيت ابنتها ؟ هز رأسه كأنه يجيب بنفى السؤال. من أين داهمه الحنين وأتته غرناطة كالعذاب. تفرفط حلاوة الروح فيه كطائر ذبيح وهو يمشى كالبشر على قدمين يخرج من حارة ليدخل حارة تقوده إلى الخان. وجد نجاة تنتظر. . .

- سى على هل أنت غاضب منى؟

- لست غاضبا يا نجاة، تعالى. .

اصطحبها إلى الغرفة ، قال:

– اجلسى

جلست على طرف الفراش. أحصى ما معه من مال، احتفظ بالربع لنفسه ومدّ لها يده بالباقى:

– هذه النقود يا نجاة تكمل المبلغ المطلوب من دون سباستيان وما يزيد تستخدمينه في تدبير شئونك.

– هل أنت ثمل يا سى على؟!

حدجها بنظرة زاجرة، ثم وضع يده على كتفها وقال وهو يدفعها برفق في اتجاه الباب:

– أسافر فجر الغد ، في أمان الله يا نجاة.

أغلق الباب وانكفأ على وجهه في الفراش.

في الصباح حين فتح باب غرفته ليمضى وجدها تفترش الأرض متربّعة بجوار الباب. كانت تنتظره لتودعه، أسندت رأسها إلى الجدار فغلبها النوم. فكر أن يوقظها ليسلم عليها. تطلع إلى وجهها ثم تركها نائمة وركب بغلته ومضى باتجاه الجعفرية.

- ٩ -

كأن الأيام دهاليز شحيحة الضوء كابية يقودك الواحد منها إلى الآخر فتنقاد، لا تنتظر شيئا. تمضى وحيدا وببطء يلازمك ذلك الفأر الذى يقرض خيوط عمرك. تواصل، لا فرح لا حزن، لا سخط لا سكينة، لا دهشة أو انتباه، ثم فجأة وعلى غير توقع تبصر ضوءا تكذّبه ثم لا تكذّب، وقد خرجت إلى المدى المفتوح ترى وجه ربك والشمس والهواء والناس من حولك والأصوات متداخلة أليفة تتواصل بالكلام أو بالضحك. ثم تتساءل هل كان حلما أو وهما؟ أين ذهب رنين الأصوات، والمدى المفتوح على أمل يتقد كقرص الشمس في وضح النهار؟ تتساءل وأنت تمشى في دهليزك من جديد.

جمعهم عمر الشاطبى في داره. كانوا عشرة من رجال الجعفرية أطلعهم على التفاصيل.

"وعدت فرنسا بالتدخل، وملكها يعد العدة لغزو أراجون. ذهب إليه مفوض منا، وأوضح له أن عددنا هنا في بالينسية ٧٦ر٠٠٠ عائلة، وفي أراجون ٤٠ر٠٠٠ و٣ر٠٠٠ في قطالونيا، وفي قشتالة ٥ر٠٠٠. ولو قدمت كل عائلة فردا واحدا لتجاوز عددنا المائة ألف مقاتل. لا ينقصنا السلاح فلدينا معامل البارود، والسيوف والحراب مكدسة في ستر البيوت.

لو دخلت جيوش ملك فرنسا من جهة نڤار، أو رست أساطيله في دانيا نعلن العصيان. ولن نكون وحدنا لأن اللوثريين سينضمون إلينا. وعلينا الآن أن نجمع المال، ونحصل على المزيد من السلاح ونستعد".

هل تسربت الأخبار إلى أهالي الجعفرية من أحد من الرجال العشرة الذين حضروا الاجتماع؟ هل نقلوه بالكلام إلى ذويهم أم أن البِشر في وجوههم سرى دون كلام في دار كل منهم، ثم من دار إلى دار؟ أم أن الشباب الذين يترددون لقضاء حاجتهم على بالينسية وشاطبة وغيرهما من مدن المملكة سمعوا بالتفاصيل فعادوا إلى أهاليهم بالأخبار؟ كيف انتشر الخبر في الجعفرية، لا أحد يعرف، ولكنه صار مشاعا بين الأهالي، يتكتمون عليه وهم يتشاركون فيه، ينعكس عزما في سلوكهم، تتألق به الوجوه، تتردد ضحكاتهم في الساحة وفي الحقول وداخل البيوت. جمعوا المال، وأخرجوا السيوف والحراب من مخابئها وصقلوها، وراحوا يحسبون الأيام وينتظرون.

وذات صباح نزل القرية ثلاثة مبعوثين من موظفي الدولة، يحمل واحد منهم دفترا كبير لتسجيل الأسماء والأرقام. قالوا حكومة جلالة الملك تعد تعدادا لسكان البلاد. "عرب البلاد أم كل من فيها من السكان؟"

قال البعض مصادفة ، مجرد مصادفة وهذا التعداد لا يعني شيئا. والبعض الآخر توجس متسائلا إن كانت الأنباء تسربّت للقائمين على الأمر فصاروا يحصون العرب من الأهالي . الشيوخ من أهالي الجعفرية. تطيّروا إذ تداعت في عقولهم الذكريات، قالوا قبل أربعين عاما جاء رجال مثل هؤلاء وزمّموا القرية وسجلوا في دفاترهم أسماء العائلات وعدد أفرادها. جاءوا ليجمعوا من الناس السلاح وجمعوه، ومن لا يملك سلاحا كتبوا أمام اسمه أنه لا يملك أي سلاح. قال المعمرّون هذه الزيارة نذير شؤم. ضحك الشباب في السر من خوف الشيوخ وقالوا حتى عندما جاءوا لجمع السلاح أعطتهم القرية القليل منه وخبأت الكثير ، وسلاحنا معنا محفوظ في البيوت.

تقصّى الموظفون الأعداد، ولم يفتهم السؤال عن الحوامل من النساء ليسجلوا

في القوائم الأجنة في البطون . ثم أغلقوا دفاترهم، وركبوا بغالهم، وغادروا القرية مغتبطين بأداء مهمتهم.

ضحكت الجعفرية من غفلة الموظفين ومن الدفتر الذى سجلوا فيه أقل من نصف الأهالى. من له خمسة أولاد قال: لى ولدان لا غير، ومن أنجب ثلاثة من الذكور، قال لم ينعم على الله بالولد ولكن أكرمنى ببنتين، ومن تزوج منذ شهور قال والده ابنى في العاشرة من عمره، صبى دون البلوغ.

ثم عادت القرية تضحك عندما اتضح الأمر وانجلى فعرفت أن الغرض من الإحصاء فرض ضريبة جديدة. أعطوا أعدادا ستخفف عليهم عبء المال المطلوب، والأهم من ذلك أن مخاوفهم تبددت: كانت حكومة جلالة الملك منشغلة بطلب المزيد من الضرائب غافلة أنها ستصحو ذات صباح لتجد أساطيل الفرنسيين في الميناءوالعرب من الأهالى يحرقونها حرقا فتتساقط كالرماد.

أسبوع كالأعياد، بدأ بهيجا وانتهى بمسك الختام. عاد عمر الشاطبى من سفره بعد ظهر يوم الخميس وقبل أن يذهب أصدقاؤه للسلام عليه أرسل بمن يخبرهم أنهم مدعوون إلى داره مساء الجمعة.

التقوا عنده فضيّفهم وتبادلوا الأخبار والمعتاد من الحديث في الزيارات، ثم قال عمر الشاطبى:

– الآن أحدثكم بما لدىّ: قبل يومين حضرت اجتماعا جمع ستة وستين ممثلا لأهالى بالينسية وفقهائها ووجهائها، وحضر الاجتماع مبعوث فرنسى من طرف جلالة الملك هنرى السادس. وسوف أنقل إليكم خلاصة ما توصلنا إليه: أولا: عزمنا وتوكلنا وحددنا اليوم الذى نبدأ فيه العصيان، وتحدثنا في التفاصيل، ووزعنا المهمات. اعلموا أن اليوم قريب، وأن علينا أن نتأهب ونستعد. ثانيا: عينا لنا ملكا اخترناه بعد التشاور هو لويس عسكر من الأقواس، عاهدناه على الولاء وعاهدنا على الوفاء. ثالثا: اخترنا خمسة مفوضين يتحملون مسؤولية القيادة والاتصال

بالمدن والقرى. رابعا: سلمنا مبعوث الملك الفرنسى ۱۲۰٫۰۰۰ دوقة من الذهب هى إسهامنا المالى في الحملة التى يقوم بها الفرنسيون ، كما سلّمناه الخرائط المفصلة للشواطئ والقلاع ، وأماكن تجمعنا وأماكن تجمعهم والاماكن التى لا وجود لنا فيها. خامسا وأخيرا: وعدنا بتقديم ثمانين ألف مقاتل من شبابنا يقومون بالاستيلاء على ثلاث مدن منها العاصمة بالينسية وخططنا لتفاصيل حركتهم.

كان عمر الشاطبى يتحدث بهدوء وبصوت خافت، والرجال من حوله ينصتون، يرفع أحدهم يده ليمسح دمعة غالبته "ما الذى يقوله عنه الجالسون من الرجال؟!" ويغير آخر جلسته لعله يتخفف من تلك النبضات المتسارعة التى تعلو في صدره يكاد يسمعها الآخرون.

قال عمر الشاطبى:

- دفعت الجعفرية حصتها من المال ويبقى علينا تقديم الشباب المطلوبين منا. نحددهم ونعلمهم ليستعدوا، قلت إن الجعفرية قادرة على إرسال مائتى شاب واتفق الرأى على أن يكونوا جميعا دون الأربعين.

قال أحد الجالسين:

- بالله عليك يا سى عمر لا تحرمنى من المشاركة، قد أفيد في القتال أو يكرمنى الله فأحتسب عنده شهيدا.

أربعة من الشيوخ الحاضرين قالوا نفس الكلام. فقال عمر الشاطبى:

- نحدد الشباب المطلوبين أولا ثم نناقش هذا الموضوع.

انتقوا الشباب واتفقوا على إبلاغهم ثم ناقشوا أمر الكهول والشيوخ، فاستقر الرأى على أن ترسل الجعفرية فضلا عن حصتها المقررة من يرغب بشرط أن يكون في أسرته من يعولها ويقوم بشئونها.

بكى بعض الرجال وهم يودعون عمر الشاطبى في تلك الليلة ولكن عليّا لم يبك.

سيذهب مع الذاهبين فلا زوجة له ولا صغار يعولهم. خرج من دار عمر الشاطبي خفيفا رائق البال، ودخل داره وهو يغنى وبدا له وهو مستلق على فراشه أن الكهل الذى أتم الخمسين قبل شهرين من صنع الخيال، وأن السنوات الفاصلة بين شرفة مريمة المنوّرة بالزهور وهذه القرية المطوية بين الجبال وهم أو حلم عابر وقصير. رأى نفسه يدق باب وردة ، طالعته فخفق قلب الصبى ثم طار إلى التلة هابطا إلى رصيف حدرُه. رافق انحناءة النهر ثم مضى إلى الصنادقية وصنع صندوقا رآه في واجهه المحل على المخمل الأخضر. قبل سنوات قليلة، قبل لحظات كانت مريمة تضمه إلى صدرها فتملأ أنفه رائحة الخزامى في ملابسها. يقول احكى يا جدتى قصة المعراج فتحكى عن البراق، ورحلة الرسول إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماوات السبع، سماء بعد سماء. في السماء الأولى يلتقى سيدنا محمد بسيدنا آدم جالسا على كرسى من نور، يلتفت يمينا حيث الجنة ويبتسم، ويلتفت يسارا حيث الجحيم ويبكى. ثم يصعد الرسول إلى السماء الثانية فيرى ملكا نصفه من نار ونصفه الآخر من جليد. وفي السماء الثالثة ... يتعجلها "أريد السماء السابعة يا جدتى" "مازلنا في الثالثة يا على، بعدها تأتى الرابعة فالخامسة ثم السادسة، ثم نصل السابعة" ولكنه يلح: "احكى عن السماء السابعة" ، تحكى:

"حمل البراق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء السابعة فعرف أنها الجنة. أرضها من مسك وعنبر، وماء الورد يرويها، وجدرانها من الذهب والفضة واللؤلؤ. جدران عالية ومتينة لا ينفذ منها إبليس ولا العفاريت ولا الجان. عند الباب استقبله سيدنا رضوان وقال: "مرحبا بالمصطفى. تعالى يا سيد المرسلين لتشاهد وعد الله للطيبين من خلقه. أخذه ليشاهد نهرا اسمه "الحياة" له مجرى واسع، لا يرى الناظر ضفته الأخرى ويعبره إن أراد في ألف عام، كان ينبت على ضفته الياقوت الأزرق، والعشب الأحمر ، والحرير السندسى الأخضر. ثم شاهد بعد النهر سدرة المنتهى وهى شجرة طرحها لؤلؤ ، بجوارها نبع اسمه "الكوثر" لمائه رائحة المسك، ومذاق الشهد، ولون الحليب ..."

يغفو على صوت جدته ويحلم بماء الكوثر ولكن رائحته في الحلم رائحة الخزامى وفي مذاقه شئ من لذعة اللوز الأخضر.

يستحضر الحكاية والولد الصغير ومريمة، يكاد لو مدّ يده أن يلمس وجهها فيشعر على كفه بعرقها يشم فيه رائحة صيف غرناطة قائظا في النهار، ومع الليل يسرى الهواء فيه محّملا بشذى الريحان والورد والخزامى وحصى البان.

لم يشقه في تلك الليلة الحنين. انبثق كالنبع فيه. مال عليه وشرب حتى ارتوى ثم غفا في أمان الله.

- ١٠ -

لا يأتى الكدر منفردا وكذلك الفرح يجئ وفي أعقابه فرح سواه. انتشر الخبر في الجعفرية، تناقله الأهالى متقدين مستثارين كأنهم سافروا، وشاهدوا بعيونهم، وطوّفوا وعادوا محملين بطيب الزيارة ومسك الذكريات.

- كيف ذهب؟

- يقولون أبحر من البندقية ومنها إلى مصر ثم من مصر إلى هناك.

- ولم تعرف السلطات بأمر زيارته؟

- أعماها الله عنه فذهب آمنا وعاد في حفظ الله.

يضحكون، ويوزعون الحلوى والشراب، ويهنئون بعضهم بعضا ويحلمون بالأماكن الأليفة التى تستحيل، وحين يأوون إلى فراشهم يستحضرونها فإذا ما غلبهم النوم رأوا أطيافها في المنام.

صباح الجمعة ركب عمر الشاطبى حصانه، وعلى بغلته، وصحبهم خمسة آخرون على دوابّهم ومعهم زيت وزيتون ولوز ، وكيسان من الأرز ، وقفص دواجن حمّلها لهم أهل الجعفرية ليقدموها نيابة عنهم إلى الحاج دييجو العطّار تهنئة له على عودته من الأراضى الحجازية.

تحدث الحاج قال:

"غادرت بالينسية مستبشرا إذ شاء العليم القدير أن يوافق يوم السفر وهو الاثنين الثانى من يوليو اليوم الأول من شهر محرم فكانت الرحلة ذهابا وعودة آمنة لا عواصف ولا دوامات، لا نقص في زاد أو شراب، لا لصوص يباغتونك في

الصحراء فيجردونك من مالك كما يحدث للمسافرين في البر والبحر. كتب لى الله هذه الرحلة وحفظنى على طول الطريق.

سافرت بالبحر إلى البندقية ومنها حملتنى السفينة إلى الإسكندرية. فلما نزلت أرض مصر صرت أتحدث مع الناس ويتحدثون معى بألفة كأننى لست الغريب. ثم التقيت بجماعة من أهل الأندلس استقر أجدادهم في الإسكندرية منذ زمان. اصطحبونى لزيارة معالم المدينة، وعمائرها وضريح الإمام الشاطبى والمرسى أبى العباس وكلاهما عالم أندلسى يجلّه الناس، ويحتفلون بمولده كل عام، ويقصدون مثواه، ويتبركون بمزاره.

ثم تركت الإسكندرية إلى رشيد قاصدا القاهرة. سمعت بالإسكندرية قبل زيارتها ولكننى لم أسمع برشيد، فإذا بها ميناء موفور الثراء يزدحم بالبضائع والباعة والشارين، والسفن القادمة من كل أنحاء مصر وبلاد العرب. عندها يلتقى الماء العذب بالمالح ويصب فرع النيل في البحر.

أتينا المدينة على ظهور البغال من جهة الغرب فطالعنا على مشارفها غابات النخيل وحقول قصب السكر، ورائحة الزهور. ولما دخلناها وجدناها مدينة جميلة تكثر فيها البساتين، رمان وبرتقال وخروب وتين.

ومن رشيد ركبت السفينة، حملتنى في بحر النيل إلى القاهرة.

– بحر النيل؟!

– هكذا يسميه المصريون فهو واسع المجرى أكبر من الوادى الكبير، ويغذى البلاد بمائه ويفيض في كل عام فيحتفل الأهالى بفيضه احتفالا عظيما يطلقون عليه وفاء النيل.

– وفاء النيل!

في الطريق من رشيد إلى القاهرة رأينا على ضفتى النهر الأرض مبسوطة كالكف، خصبة خضراء، مزروعة بالأرز والذرة والفول وبساتين الفاكهة، وقطعان الأبقار والأغنام بلا حصر ما شاء الله.

ثم رست بنا المركب في ميناء يدعى بولاق فنزلنا القاهرة فإذا بها تفوق كل تصور، مترامية الأطراف، كبيرة العمائر، ينبهر زائرها بمظاهر البذخ والثراء ويؤخذ بفقر غالبية الناس. تعرف كل طبقة من طبقات أهلها من النظرة العابرة: الفقراء يلبسون الجلاليب الزرقاء ويغطون رؤوسهم بالطواقى الخشنة، والأيسر حالا يلتحفون بعباءة يلفون الكتف الأيمن بذيلها الأيسر. وأثرياء التجار والمتنفذين من المماليك والحكام يرتدون الديباج المنسوج بخيوط الذهب والفضة، والحرير الدمشقى، والأطلس، والقطيفة المطرزة. الفقهاء يتعممون بالأبيض ، والأشراف بالأخضر، والأتراك يتميزون عن باقى الخلق بالعمامة الصفراء. وفقراء مصر، على ثراء بلادهم، كثيرون وظلم حكامهم لهم شديد".

- ألا يحكمهم الأتراك؟

- الأتراك وأيضا المماليك يجورون على الأهالى ويبطشون بهم، ويثقلون عليهم بالضرائب والمكوس.

- الله أكبر مسلمون يستبدون بالمسلمين؟!

- استغربت مثلكم عندما وجدت أن أهل مصر يكرهون حكامهم كما نكره نحن حكامنا الأسبان، واستغربت أكثر عندما رأيت بعينى وسمعت كيف يشير التركى أو المملوكى إلى الرجال من أهل البلاد فيقول: "مصرى فلاح!" يقولها بتعال وازدراء وكأنه واحد من الأسبان يشير لواحد منا "بعربى كلب!"

- لا إله إلا الله!

"قضيت في القاهرة سبعة شهور. صليت في الجامع الأزهر، وفي مسجد سيدنا الحسين، وزرت ضريح السيدة زينب، وقبور ملوك مصر الأقدمين، هرمية الشكل عالية كالجبال. خالطت تجارا وأهل حرف وغيرهم من عامة الناس، وشاركتهم الاحتفال بالمولد النبوى وليلة الاسراء، وخروج كسوة الكعبة من القاهرة

في طريقها إلى الحجاز. صمت معهم شهر رمضان، وأفطرت في العيد، ثم صمت الأيام البيض الستة وفي اليوم السابع ودعتهم فشق على الوداع، ولم يهوّن منه سوى أننى أقصد مكة وقبر الرسول. التحقت بقافلة ، وحملتنا الجمال إلى السويس وهى بلدة صغيرة على شاطئ البحر الأحمر وبها ميناء. ركبنا السفينة بإذن الله فأوصلتنا إلى أرض الحجاز. عدنا إلي ركوب الجمال قاصدين مكة. كنا في مطلع الشهر الخامس ولكن القيظ كان شديدا، تقدح الشمس فوق رؤوسنا قدحا تكاد تهلكنا ولكننا والحمد لله وصلنا أمّ القرى ودخلناها بسلام.

تدخلها فتتبدد مشقة السفر، تسبقك روحك إلى البيت العتيق، تراه قبل أن تراه، تلقاك أسراب الحمام تسبح بحمد ربها محلقة في فضاء البيت، تقترب منك وتعود تطير. ثم رأيت الكعبة. والوصف يا إخوانى يعجز عنه اللسان. لا عين رأت ولا قلب أحس بما يحسه المرء في حضرة ثانية القبلتين ، راسخة في المكان، لا تزحزحها نوائب الدهر ولا تقدر عليها . لا شئ في حضرتها سوى الرهبة والجلال، تتذلل أمام بابها لله فتتعالى على الكون وأنت تردد الله أكبر، تقولها وتسمعها من حولك من آلاف البشر. كيف أحكى وعن أى شئ من الأشياء أحكى؟ عن مقام سيدنا ابراهيم أو عن السعى بين الصفا والمروة تتذكر أمنا هاجر وهى تسعى ملهوفة على صغيرها تبحث له عن قطرة ماء فيكرمها الله بماء زمزم؟ في اليوم الثامن من ذى الحجة صعدت إلى منى وفي التاسع منه إلى عرفات. كبّرت وصليت وذبحت مع غيرى من العباد الأضاحى. طوّفت بالكعبة سبعة أشواط ورميت على إبليس الجمرات، تسعا وأربعين من الحصى ألقيتها على إبليس.

بعد أيام عدنا إلى ركوب الجمال فحملتنا إلى المدينة المنوّرة. زرت الروضة الشريفة وقبر رسول الله. كان الناس من حولى يدعون ويتضرعون وهم يبكون ثم يجففون دمعهم ويذهبون. قضيت في المدينة ثلاثين يوما بلياليها جاورت فيها قبر

المصطفى فما جف لى دمع، أدعو الله أقول: بشفاعة نبيك فك كربتنا وغربتنا وخلصنا من بطش القوم الظالمين. أدعو ساعة السحر، وأدعو والشمس قدّاحة، وفي المساء أدعو، أعود في الليل إلى المنزل لأنام فيستعصى على النوم لأن قلبى منشغل بالدعاء.

ودعت أرض الحجاز بدمع العين وعدت إلى السويس ومنها إلى القاهرة ، بقيت فيها أياما معدودة ثم حملتنى مركب من ميناء بولاق إلى مدينة دمياط حيث يلتقى الفرع الآخر للنيل بماء البحر. ومن دمياط ركبت سفينة إلى ميناء يافا قاصدا ثالث الحرمين.

للقدس سور عتيق وعشرة أبواب. وتحيط بها جبال مغروسة بعروق الزيتون، فهم مثلنا يكثر عندهم الزيتون، ومدينة القدس جميلة وصغيرة ، طرقاتها مبلطة وبعضها مسقوف، والدور فيها مشيدة بالحجر الأبيض المنحوت وهى ملتحمة متكاتفة كالبيوت عندنا.

والحرم القدسى الشريف رحب وواسع يقع المسجد الأقصى في الصدر منه، له قبة مرتفعة مزينة بالفسيفساء وأعمدة من رخام. أما مسجد الصخرة ففريد بين الفرائد، بديع في شكله ، مدهش. في داخله الصخرة التى عرج منها النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء معتليا البراق. قبة المسجد مغشية بالذهب وسوارها وجدرانها كلها رخام مزين بالفسيفساء الملونة.

حضرت ليلة الإسراء والمعراج في القدس، والناس هناك تحتفل بها احتفالا كبيرا، تتزين له المدينة وأهلها زينة الأعياد. في الليلة الكبيرة يوقدون قناديل الحرم كلها، قالوا لى إنها عشرون ألف قنديل، يسطع ضوؤها كغابة من النور» .

– هل في القدس نصارى؟

– فيها من أهل القدس وباقى فلسطين ، وفيها من أقباط مصر ومن الأحباش والهنود، والسريان واليونان. ويأتيها من بلاد الروم كل عام حجاج.

– يصلون في الكنائس ؟

– لم أر كنائس كثيرة ولكنى شاهدت كنيسة القيامة وكنيسة الأرمن وبعض الأديرة. في كنيسة القيامة تجتمع الطوائف المسيحية على اختلافها للصلاة. كذلك يقصدها الحجاج ويحتفلون فيها بالمواسم الدينية والمناسبات. وللنصارى في القدس بطرك مسؤول عنهم وله لقب ينادى به وهو "البطرك المحتشم المبجل العالم بأمور دينه، المعلم أهل ملته، ذخر الملة السمحة، كبير الطائفة العيسوية المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى".

قام الحاج وتغيب لحظات، ثم عاد حاملا منديلا مصرورا وضعه أمامهم. فتحه وأمسك بخمس زجاجات صغيرة بها سائل رائق شفاف قال: "هذه من ماء زمزم" "وتلك" أشار إلى غيرها السائل فيها أقل شفافية ويميل إلى اصفرار: "تلك بها عطور من زهور رشيد". وهذه الخواتم والمسابح من الحجاز أما تلك فمن مصر. وهذا اللوح الصغير من خشب الزيتون، اشتريته من القدس ... تذكارات صغيرة، تفضلوا ليأخذ كل ما يشاء".

أربعة اختاروا ماء زمزم، وواحد أخذ مسبحة والآخر خاتما فضيا، أما على فمد يده إلى اللوح الخشبى الصغير وسأل الحاج على استيحاء: "هل تسمح؟"

ودعوا الحاج وقفلوا عائدين، لم يقطع الصمت سوى سؤال:

– كم سنة قضاها الصليبيون في القدس؟

أجاب عمر الشاطبى:

– تقريبا مائتى عام.

واصلت البغال طريقها في الشعاب وواصلوا شرودهم حتى دخلوا القرية.

لم يتح لعلى أن يتأمل اللوح إلا بعد عودته إلى داره. ميزته عيناه واستوقفه الشكل المنقوش عليه ما إن وضع الحاج أمامهم تلك التذكارات. ولما اختلى بنفسه أمسكه وأمعن النظر فيه. كان لوحا مستطيلا في حجم كفين مبسوطين، خشبى

أملس نُقشت عليه قباب القدس ومآذنها، الأقصى والصخرة يعلو كل منهما هلال، وفي الخلفية كنيسة فوق برجها الوحيد الصليب. أطال النظر في اللوح ثم فكر فى صنع لوح مماثل عليه رسم غرناطة: أبراج الحمراء وأسوارها المشرفة على مجرى حدرُه تقطعه القناطر، أم يرسم البيازين ؟!

خرج إلى الحقل في الصباح، عمل في الأرض طوال النهار ثم عاد إلى داره يحمل قطعة من خشب الزيتون. أعمل المنشار والإزميل فيها، سوّاها وشذبها ونعّم خشونتها حتى صارت لوحا مستطيلا أكبر قليلا من لوحة القدس. قلبه بين يديه وتحسس سطحه، كان أملس تماما ومناسبا ليبدأ.

لم ينقش رسم غرناطة ولا البيازين. مالت السكين في يده تحزّ خطا مقوسا ثم خطا مقوسا غيره. كان ينقل الصورة التى أمامه ويقلدها. ضغط أكثر فتعمق الحزّ حفرا وتحددت القبتان. لماذا ينقش المكان البعيد، ما الذى تعنيه له القدس، نجمة مضيئة في السماء أم يجرب يده لتدريبها قبل أن تشرع في تصوير غرناطة؟ جاءهم الروم وغزوا أرضهم تماما كما حدث لنا. ولكنهم طردوا الصليبيين فلماذا استطاعوا ما لم نستطعه وكيف استطاعوه؟ هل كانوا يفوقوننا عزما أم أن الجواب في سؤال يختلف. ترى ما الذى حدث بالتفصيل هناك؟ لن يجد من يحكى له الحكاية كلها من البداية للختام. وهو لا يعرف سوى أن صلاح الدين طردهم من القدس مرة، ولكن للحكاية بقية فمن يحكيها له؟ لماذا رجحت الكفة في المشرق وهنا خفت الموازين؟ هل بنا عيب ليس فيهم أم أن مصيبتنا أننا مقطوعون بالبحر، لا مصر جارتنا، ولا حولنا عراق ولا شام؟ قال الحاج إن في القدس نصارى من أهل البلاد، فلماذا يفرضون علينا التنصير هنا ولماذا يزدروننا. ولم يكن سيدهم روميا ولا كان له عينان زرقاوان؟ كان السكين في يده يحز خطا رأسيا ثم يقطعه بخط أفقى أقصر، يحفر في الصليب. بعث الله في عباده عيسى المسيح. حدّق في الصليب على اللوح، بدا أليفا وديعا والهلال يجاوره. ما علاقة هذا الصليب

بجيوش خوان دى أستوريا وذبح أهالى البشرّات؟ ما العلاقة بين الوجه الشاحب والرأس المائل بتاج الشوك وما نحن فيه من عذاب؟ وأىّ رابطة تربط الجسد العارى النحيل لمسيح تبكيه أمه بالأسياد وملاّك الأرض والضرائب والمكوس والملك وديوان التحقيق؟!

-١١-

انتظروا الإشارة شهرا، شهرين، ستة، يسألون عمر الشاطبى، ثم يعاودون السؤال:

- لم تأتنا رسالة؟

- لم تأت!

- والفرنسيون؟

- لا حس ولا خبر!

- عقد الإنجليز صلحا مع الملك، ماذا لو عقد الفرنسيون معه صلحا مماثلا؟

- يكون الصلح كارثة، ولكنى أستبعد ذلك.

- وإن حدث؟

- الله لا يترك عباده، سنجد طريقة لتدبير أمورنا بدونهم.

- لمَ لا تذهب إلى بالينسية وتستعلم ممن سبق لك اللقاء بهم؟

ركب عمر الشاطبى حصانه وسافر إلى العاصمة ثم عاد. جمع شيوخ الجعفرية، قال:

- الكل مضطرب وعلى قلق، يرجحّون أن السلطات عرفت بالخطة؛ عرفت إجمالا أم عرفت أيضا بالتفاصيل؟ الله أعلم. الفرنسى الذى سافر إلى بلاده لعرض الخطة على الملك هنرى السادس لم يرجع. وداهمت السلطات بلدة الأقواس، وقبضت على بعض رجالنا وعلى رجل فرنسى مقيم فيها. والكل يخشى أن يعترف المقبوض عليهم بتفاصيل التفاصيل ويكشفوا الأسماء.

سمعت في العاصمة أقوالا متضاربة وترجيحات مختلفة. البعض يقول إن ملك فرنسا أرسل يخبر ملك إنجلترا بنواياه، وإن هذا الأخير، حين عقد الصلح مع فيليب الثالث أبلغه بترتيبات الفرنسيين. والبعض الآخر يقول إن من أهل الأقواس العرب عينا من عيون الديوان. والبعض الثالث يؤكد أن أشخاصا اتهموا بالمروق اعترفوا عند تعذيبهم بما يعرفونه. ثم تلتقى بمن يقول لك لا السلطات عرفت ولا هناك من وشى، تريد الحكومة التخلص منا وليس استشراسها سوى مقدمة لبيعنا عبيدا أو ترحيلنا. تمهد الحكومة لقرارها بالكلام عن مؤامرة كشفتها، ومخطط ضد البلاد يعده العرب بالتعاون مع الفرنسيين. ما الجديد في ذلك؟ ألم يقولوا من قبل إننا نتعاون مع الأتراك أو المغاربة أو اللوثريين؟! بضاعة قديمة يخرجونها من جعبتهم كل حين!

كان وجه عمر الشاطبى شاحبا. أرهقه السفر والتنقل من مكان إلى مكان، ولم يسمع في رحلته ما يسرّ القلب. قالوا: "نتركك لترتاح". أصرّ على مرافقتهم حتى باب الدار. قال أحدهم وهم يصافحونه.

- نحن منحوسون تلاحقنا الخيبة كظلنا، لا أمل في شي، لا أمل!

زجره عمر الشاطبى كأنه ولد صغير أخطأ وأساء، قال:

- لا يصح هذا الكلام! توكلوا على الله فهو يمهل ولا يهمل، لا اليوم آخر يوم في العمر، ولا هو الفيصل في القادم من الأيام. كبوة موجعة نقوم منها ونواصل أو يواصل أبناؤنا من بعدنا. ومادمنا أصحاب حق فنصر الله أكيد!

عاد على إلى داره وانكفأ على وجهه فوق فراشه ونام. أيقظه الطرق المحموم على الباب، قفز مفزوعا:

- عمر الشاطبى يحتضر ويطلبك.

سحب سبّاطه وخرج مهرولا في غبشة الفجر. لم يكن قد أفاق تماما فاختلط الخبر بكابوس استيقظ منه لحظة الطرق على الباب. رأى نفسه في الحلم يحاصره

اللهب، هرب ومن معه إلى جبّ ولكن لحقت بهم النيران. ثم رأى ثعبانا هائلا يطل عليهم من أعلى الجبّ، وينفث دخانا أسود كثيفا، ويصدر صوتا كالدوّى. كان الدخان يعمى عيونهم ويحول بينهم وبين التنفس. كان يختنق ويرتعد هلعا ثم دق الباب.

لم يقدر على المشاركة في تغسيل عمر الشاطبى. جلس صامتا بين رجال يرتلون ما يحفظونه من آيات القرآن. حاول أن يفعل مثلهم ولكن عقله كان مشتتا وكأن الحلم الذى رآه مازال ممتدا. ليس الجب والنار والثعبان ولكن الخوف الهائل، والاختناق، والدوّى في الأذنين.

انتبه إلى أن شخصا ما وضع ملفا على كتفيه وكان يحدثه، سمعه يقول:

- يبدو أنك مريض، إنك ترتجف!

شيعوا الجثمان وواروه التراب ثم ذهبوا إلى دار عمر الشاطبى ليشاركوا في العزاء.

قبل أربع وعشرين سنة نزل الجعفرية فكان عمر الشاطبى أول من عرف من أهلها. قال له: "إبق معنا" واستضافه أسابيع تآلفا فيها وتصادقا. في تلك الأيام حدثه عمر الشاطبى عن أصله، قال:

- قبل زمان كان أجدادى يسكنون شاطبة ومن هنا اسم العائلة. لم يشغل أى منهم منصب القاضى، ولكن الفقيه كان دائما منا. كانت وظيفة القاضى تقتضى الثروة والجاه والتوسط في كل قول وفعل بين حكامنا الروم وأهلنا المسلمين. كان عمل القاضى يتطلب البين بين، أما أجدادى فلم يكن لهم بذلك دراية إذ كان شاغلهم الصراط المستقيم. كانوا أهل علم وثقة. وكان من يتوسم منهم في ابنه الفطنة وحسن الخلق يعلمه ويقوّمه ويرسله، ما إن يشب عن الطوق، إلى تونس أو غرناطة لينهل من علم المتبحرين. بعد سقوط غرناطة بعامين اثنين سافر جدى

إليها، وتعلم في مدرستها، وقرأ على فقهائها. كان الروم قد دخلوها ولكن بقى علمها وخيرها فيها. على زمان أبى تبدلت الأحوال ولم تعد غرناطة.غرناطة، قرأ أبى على يد أبيه. وبعد ولادتى بسنوات معدودة فرضوا علينا التنصير في بالينسية فعلمنى أبى كما علمه أبوه وإن توخى كتمانا لم يكن ضروريا أيام علمه أبوه.

حين سمعت لهجتك الغرناطية قلت من رائحة الأحباب، أنتم أصحاب فضل يا أخى. ابق معنا فلست غريبا بل نزلت أهلا.

سأله عمر الشاطبى ذات مرة:

– هل تعرف يا على متى سقطت بالينسية في يد الروم؟

كان يعرف أنها سقطت قبل غرناطة بسنين. دخلوا غرناطة قبل تسعين سنة فقدر الإجابة تقديرا:

– مائة عام أو أكثر قليلا؟

قال عمر الشاطبى:

– استولى الروم على بالينسية عام ١٢٣٦ أى منذ ثلاثمائة وخمسين سنة. تدخل العاصمة فلا ترى فيها من آثار أجدادنا شيئا وكأنهم لم يسكنوا ويعمروا فيها أكثر من خمسمائة عام، ورغم ذلك حافظنا على أنفسنا وها أنت ترى أهلنا في كل مكان من المملكة لا يتحدثون إلا العربية، يصومون رمضان ويحتفلون بخميس الله وجمعته والعيدين ويحيون ذكرى المولد النبوى وعاشوراء. هل ذهبت إلى أراجون؟

– لا. لم أذهب.

– هناك يختلط عليك الأمر. ترى أبناء العرب فلا تعرف لهم ملة ولا دين. يتحدثون بلغة الروم ويلبسون مثلهم ويسلكون سلوكهم. حتى في الحى العربى تجد الشباب مجتمعين في الحانة يعبّون الخمر ويقطعون وقتهم بالسكر ولعب الورق.

والقلة الغيورة على دينها لا تجد من يعلّم أولادها الفقه وأصول الدين فيرسلونهم لنا لنعلمهم.

في بالينسية صنّا أنفسنا وكان لنا نحن الفقهاء دور في ذلك، وإن شاء الله نواصله حتى يوم الفرج وهو آت بإذن الله.

ظل عمر الشاطبى متماسكا إلى النهاية. عاد من العاصمة بالأخبار الحزينة ولكنه زجر من قال أن لا أمل هناك. طمأن الناس وأشعرهم أنهم ليسوا وحدهم في دهليز مظلم. كان كعادته يحمل قنديله في المقدمة، يبعث في قلوبهم طمأنينة تجاور الفزع، وهدوءا يغلّف الفوضى. هل أنزل الله السكينة في قلبه رحمة بالآخرين أم أنه في الليل بكى وارتج بدنه بالنشيج، وسكنه الفزع الذى يسكن الآخرين، ثم قال لنفسه أنت يا عمر شيخهم الفقيه، واجدادك ما قصروا، فجمع لوعته على مخاوفه وخبّأها وخرج على الناس قويا كأن البلاء مقدور عليه، والطريق أمامهم مفتوحة؟!

لم يمنحه الله ولدا من صلبه ليعلّمه فيصير من بعده الفقيه فعلّم النابه من شباب القرية وشباب أراجون، يأتون إليه من بعيد فيستضيفهم في داره، ويطعمهم ويعلمهم مطمئنا إلى أن كلا منهم يعود إلى قريته بيده قنديله وقد أسرج له القنديل. يتكتم على تلاميذه كما يتكتم على صدقة يمنحها. تؤرقه زيارات المحققين، وعيون الغرباء، ويتستر على خبايا بيته وخبايا الجعفرية. يصلح ما أفسدته الأيام بالصمت أو بالصوت الهادئ أو بالزجر والتقريع. فهل كان ذلك كله عبثا، باطلا وقبض الريح أم أن مسعاه في الأرض أثمر ... ولكن ما جدوى الثمار؟!

اجتمع رجال الجعفرية في دار عمر الشاطبى بعد عام من رحيله لإحياء ذكراه، لم تحضر بطبيعة الحال النساء، ولكن الحديث الذى دار بين الرجال كان أيضا يدور بين النساء. "رحل عنا فرحلت البركة معه"، "لم نعرف منذ ذهابه لا راحة، ولا هدوء بال"، "ذهب . فمن نسأل في هذا الكرب ومن نستشير؟!"

كانت تأتيهم اخبار جديدة مع كل يوم. يقولون شائعات، يؤكدون أنها ليست سوى شائعات، ولكنهم إذ يأوون إلى فراشهم ليلا يقلبون في رؤوسهم ما سمعوه من الكلام، يضطربون فيعزّ النوم ثم يأتي ومعه تأتي الكوابيس. يبكرون في الخروج إلى أشغالهم في الصباح، تبدد الشمس مخاوف الليل، ينهمكون في الفلاحة أو التجارة أو النجارة أو قضاء الحاجة في المعصرة أو الطاحونة فيأتيهم الجديد من الأخبار: "جئت بالأمس من شاطبة وهناك سمعت ..."، "يقولون في بالينسية إنه ..."، "أخبرني رجل من دانيا ..."، "فلان له صديق يعرف شخصاً متنفذا قال له ..." وتدور عجلة الكلام ومعها تدور عجلة الأيام معصرة أو طاحونة تفتت عزم القلوب.

- يُرحّلوننا إلى أين؟!

- إلى الشواطئ المغربية

- وبدورنا وأرضنا؟!

- يصادرونها.

- يصادرونها!!

الوعاظ في بالينسية العاصمة يشنون حملة شعواء على العرب. والقس بليدا، وريبيرا رئيس الأساقفة وآخرون أيضا يقولون إنه لابد من قتل العرب أو حرقهم لأن الشر يقتلع من جذوره وإلا نبت من جديد.

- هذا كلام يتردد ولكنه ليس سوى كلام.

- معك حق، ولكن يبدو أنهم ينوون بيع الرجال إلى من يشترى من الدول الأجنبية ويحتفظون بالذكور من المواليد بعد خصيهم.

- من أين أتيت بهذا الكلام؟!

- سمعته بأذنيّ هاتين والله شهيد!

تعود النساء من المغسلة ويسارعن في إعداد الطعام. يعود الزوج من عمله ويجلس للأكل مع الأولاد.

– ما الذى دهاك يا امرأة، اللحم محروق، والكسكس عجين مخبوص. أين ذهب عقلك؟!

تبكى المرأة فيزداد الرجل توترا، يسبها ويلعن أباها ويغادر الدار غاضبا بلا طعام.

– كلوا يا صغار!

– شبعنا!

تلح عليهم، يعندون فتضربهم ضربا مبرحًا ثم تبكى، ويبكى معها الصغار.

– من قال إنهم سيرحّلوننا، لو كان الترحيل قرارهم فنحن بألف خير. ولكنهم لن يفرطوا فينا، سيحكمون على الرجال بالعمل في السفن ومناجم ما وراء البحر، مدى الحياة.

– والصغار؟

– سيوزِّعونهم على الأسر الأسبانية لينشأوا نشأة صالحة!

– مستحيل!

– لا شئ مستحيل في حكم القوى على الضعيف!

-١٢-

بكى عيد الحلاق، قال:

- جئت أستشيرك، لا استأمن سواك يا سى على، هل تحفظ سرى؟!

- أحفظه يا عيد.

- لى زوجتان. .

- جازاك الله يا عيد، زوجتان؟!

- ليست هذه هى المشكلة.

- ما المشكلة إذن؟

- لو فرضوا علينا الترحيل ماذا أفعل؟ زوجتى الأولى ابنة عمى ويشملها ما يشملنى من قرار.

- والثانية؟

- الثانية تسكن شاطبة، وليست من بنات العرب فلا يسرى عليها الترحيل.

- عليك أن تتركها إذن لو فرضوا علينا الرحيل.

- وأولادى؟

- لك منها أولاد؟

- سبحان الله يا سى على، لى أربعة من هذه، وأربعة من تلك.

كيف استطاع عيد أن يكتم سره وهو الذى يثرثر على مدار اليوم، ولا أمهر منه في إذاعة الكلام؟ كاد على يضحك ولكن عيد واصل:

- الأعجب من هذا يا سى على أن الشهر الذى تلد فيه فاطمة تلد فيه ماريّا بلانكا. كل اثنين من أولادى في نفس العمر كأنهما توأم!

لم يتمالك عليّ نفسه فضحك.

– لماذا تضحك يا سى على، إننى في ضيق. ماريّا بلانكا لا تعرف أننى متزوج من غيرها، وفاطمة أيضا لا تعرف.

قالت لى ماريّا بلانكا لا تخف يا عيد لو قرروا ترحيلكم سأتدبر أمر بقائك. قسّ الناحية صديق أخى وسيشهد أنك نصرانى قديم. لو دبرت لى بقائى كيف أدبر أنا بقاء فاطمة وباقى أولادى؟

– وما العمل يا عيد؟

– جئت أسألك!

– ألا يمكن أن تقنع زوجتك الثانية بالرحيل معك هى وأولادها؟

– حاولت، رفضت بشكل قاطع. ولم أحاول ثانية لأننى فكرت: "كيف آخذها تحت سمع السلطات وبصرها؟" سيكتشفون أننى خرقت القانون بزواجى من اثنتين، وهى أيضا ستكتشف ذلك. وأنت لا تعرف ماريّا بلانكا، إنها جميلة وطيبة القلب ولكنها حادة الطبع، لو عرفت أن لى زوجة غيرها ستفضحنى وقد تجرنى جرًا إلى أول عامل من العاملين في الديوان وتقول: "أبقى على دينه المحمدى والدليل ان له زوجة غيرى". وبدلا من أن أفارق أربعة من أولادى بالبقاء أو الرحيل أفارق الثمانية إلى نار المحرقة. ماذا أفعل يا سى على لم أعد أنام الليل؟

– هوِّن عليك يا عيد، قد لا يصدر قرار الترحيل.

– وإن صدر؟

– زواجك باثنتين حماقة يا عيد.

– وهل هذا وقت التوبيخ يا سى على؟!

– لو أفلحت في إقناع ماريّا بلانكا بالرحيل بإمكانك أن تصحب زوجتك الأخرى بصفتها ابنة عمك. قل إنها أرملة ولا عائل لها ولا لأولادها سواك.

أضاء وجه عيد وابتسمت أساريره لحظة ثم تجهم:

– ما الذى تفعله فاطمة وهى ترى.بصحبتى امرأة غريبة تقول لى يا زوجى، وأولاد غير أولادها يقولون إننى أبوهم؟

– لا أرى حلا آخر يا عيد. اقنع ماريّا بلانكا بالرحيل، ومهِّد فاطمة للأمر، وإن لم يكن هناك بد من إخبارها بالحقيقة فاخبرها. إنها ابنة عمك وأم أولادك وقد تغضب لأيام أو أسابيع ولكنها لن تتسبب في هلاكك.

ومن يدرى يا عيد فقد لا يصدر هذا القرار، ولعل كل ما نسمعه من كلام مجرد شائعات يطلقونها قصدا لبث الذعر في نفوسنا فنلجِّم السخط داخلنا وأى فعل يمليه!

– هل ترجِّح أنها شائعات؟

– لنأمل ذلك يا عيد.

ذهب عيد ليتدبر طريقة للبقاء أو الرحيل محكوما في الحالتين بالزوجة والأولاد. وهو لا زوجة ولا ولد، وغرناطة هناك كسفينة غارقة استقرت في قاع البحر لا يطولها إن أبحر أو أقام.

أمسك بصندوق كوثر، تأمله فبدا له من صنع شخص آخر يفوقه موهبة ومهارة. كانت العصافير المشطوفة فيه تسرى في المادة المُصمتة كأنها وهى في الخشب تطير.لا عاج، لا صدف، لا ألوان، فقط العصافير واسمها بحروف كوفية تشكلها الفراغات في رقائق الفضة.

هل الماضى يمضى حقا أم يُعرِّش على أيامنا أم أننا نعيش كالبيت فيه؟ هل هذا الصندوق ماض؟ تحسسه بكفيه، لامس جناحى العصفور والفضة واسم كوثر، صندوق يشاغل العين بالصنعة الماهرة أم روح الروح في مرآته مصورة؟

أخرج درجا من أدراج الخزانة. كانت الأوراق المحفوظة فيه صفراء طالها

القدم ولكن رسم الكلمات واضح فيها ومقروء: عقد زواج حسن على مريمة، وصكًا شراء دار البيازين ودار عين الدمع اشتراهما جد الجد في زمن قديم وعليهما توقيعه: أبو جعفر الورّاق. ثم تنتهى الأوراق المكتوبة بالعربية: عقد زواج أبيه بأمه، وشهادة ميلاده وشهادة تعميده مكتوبة بالقشتالية. عقد إيجار الأرض التى يزرعها هنا في الجعفرية منسوخ باللغة لباالينسية.

مصحف مريمة أخضر وصغير تزينه نقوش ذهبية. كيس مخملى أحمر هو المتبقي من ثلاثة أكياس أعطاها له أبوه. وكيس مخملى أسود أودعه روبرتو البطل جعبته يوم ودعه على مشارف غرناطة ومضى مبتعدا فوق الأصيلة تتطاير من حوله بردته السوداء. وفي قاع الدرج المفاتيح: مفتاح بيت البيازين حديديا داكنا وكبيرا، ومفتاح صندوق جدته المطمور في بستانها، مفتاح ذهبى دقيق لا يزيد عن طول إصبع، وبضعة مفاتيح لعين الدمع لم يعطها لخوسيه. حدّق في المفاتيح، تأملها وقلبها بين يديه، تمتم: ابتعدت الأبواب والأقفال تغيرت فما نفع المفاتيح؟ ما الذى تبقى؟ صليب صغير من الذهب معلق في سلسال أهداه له أنطونيو ليلة رحيله الأول من غرناطة. كان في زاوية من الدرج، لماذا تركه هنا كل هذه السنين؟ أمسك به وعلقه حول عنقه.

هل في الزمن النسيان حقا كما يقولون؟ ليس صحيحا، الزمن يجلو الذاكرةكأنه الماء تغمر الذهب فيه، يوما أو ألف عام فتجده في قاع النهر يلتمع. لا يفسد الماء سوى المعدن الرخيص، يصيب سطحه ساعة فيعلوه الصدأ. لا يسقط الزمن الأصيل في حياة الإنسان. يعلو موجه، يدفع إلى القاع، يغمر، ولكنك إذ تغوص تجد شجيرات المرجان حمراء، وحبات اللؤلؤ تتلألأ في المحار. لا يلفظ البحر سوى الطحالب والحقير من القواقع. وغرناطة هناك كاملة التفاصيل مستقرة في القاع، غارقة.

يطفو صوت جدته: "ولدتك أمك ذات ليلة ربيعية ممطرة فلما أصبح الصبح الطيب حملتُك إلى جدك أبى هشام، وكان يجلس في رواق الدار. تطلع إلى وجهك، وتطلع إلى شجرتى اللوز والمشمش، كانتا منورتين، والفناء مبللا بمطر الليلة الغزير. قال نسميه عليّا".

منحه جده الاسم، وحكى له عن الفتى علىّ وهو يركب حصانه السرحان، ويشهر سيفه ذا الفقار ويقدر على أعدائه.

حدق على في يديه فرأى بيت البيازين، وبستان مريمة وصبيا كانه يهبط إلى قاع بئر جافة ويصرخ مفزوعا من طيف يطالعه في الظلام. ويرى الفتى يحمل جدته بين ذراعيه كأنه أبوها وهى الوليد، يصيح ماتت جدتى في العراء ثم يواريها التراب. ويربت على عرف حصان يسأله: "هل كان صاحبك رجلا طيبا يا حصان؟" يحمله الحصان إلى قرية في البشرّات يسكن دارا من دورها، يجددها كأن أهلها أوصوه بها قبل الرحيل. ثم يهبط مع منحدر الجبل إلى كهف كمهبط الوحى، مفتوح على السماء، ينادى ولا يسمع سوى رجع الصوت. يرافق روبرتو البطل ثم يفارقه ليدخل غرناطة ليرحل منها ويأتى هذه القرية، يربى زيتونه، ويركب بغلته ويروح ويجئ، ليست كبغال الأنبياء تحملهم في البرّية وتقودهم رغم التيه إلى ضوء اليقين.

-١٣-

عز الهواء فبدا الفضاءخانقا كالحوارى الضيقة وقد ازدحمت بالباعة والشارين، تتعثر أقدامهم بالمنشور من خبايا البيوت: جرار وقدور وسلال وقفف، زيت وزيتون، وقمح وطحين وعدس وسكر وعسل وتين ولوز وزبيب، أحرمة وملابس، صناديق الجدّات، خزائن عتيقة أو نُجِرّت حديثا، جلالات مخملية وأخرى من حرير، مشكاوات وقناديل. كلها معروضة للبيع يشق على طريقه متعثرا فيها، يلتقط الأنفاس التقاطا، يريد مهربا، يبحث عن المهرب.

تتوزع عيناه بين الملاحظة والشرود، يتمتم" "النادبون يطوفون في السوق" ولا يرى جلالات السواد بل وهجا برتقاليا يتقد بنار يوم خريفي، الشمس تقدح على رأسه، والأرض تحت قدميه حارقة، والفضاء خانق كأنه ليس الفضاء، يتصبب عرقا ويسعى كأمثاله من أبناء العرب في المصيدة.

يقابل أمين الحى، يسأله، يسمع ما جاء من أجله، يودعه، يغادر الحى العربى إلى سوق بالينسية الكبير. يطالع وجوه من لم يمسسهم القرار آمنين من الخوف الذى يستبد به. يمر ببائعى الخضرة والفواكه والتوابل والحبوب. تصطدم عيناه بالذبائح مسلوخة ومعلقة. يحوّل النظر عنها، تسرى في بدنه رجفة. تقوده قدماه إلى حيث يبيعون السمك يفتش بعينيه فيراه أولا ثم يراها. صارت صبية. يتملى وجهها وشعرها وقدها ووقفتها وبسمتها، يرى كوثر فيها فيودعها دون أن يودعها ويشق طريقه مرة أخرى في الزحام، يقصد الساحة ليقرأ بعينيه المرسوم كأنه مازال يكذِّب ما يعرفه ويؤكده كل شئ حوله.

المقدمة المعتادة عن خيانة عرب البلاد. بناء عليه تقرر ترحيلهم في غضون ثلاثة أيام إلى الثغور المحددة، والموت عقوبة المخالفين.

"للراحلين أن يأخذوا من المتاع ما يستطيعون حمله على ظهورهم وتتكفل السلطات بإطعامهم أثناء السفر. وعلى كل أن يلزم مكانه انتظارا لنقله إلى الشواطئ، ومن يبرح مكانه يتعرض للنهب والمحاكمة، ومن يقاوم يعاقب بالموت.

أملاك المرّحلين صارت بحكم المرسوم الملكى ملكا للإقطاعيين، فمن يعمد إلى إخفاء أملاكه أو حرقها يعاقب هو وكل سكان الناحية بالموت.

يبقى من كل مائة ستة لزراعة الأرز، وتنظيم الرى، وإدارة معامل السكر وأعمال البناء، يتم انتقاؤهم من الأسر المشهود لها بالولاء.

يسمح ببقاء الأطفال دون الرابعة، إن أراد أهاليهم ذلك. ويسمح للأطفال دون السادسة بالبقاء أيضا إن كانت الأم عربية والأب نصرانى قديم. ويُرحل الأب العربى تاركا أولاده مع أمه إن لم تكن عربية مثله.

يسمح بالبقاء لمن يزكيهم القسس بعد التأكد أنهم لم يخالطوا أيا من أبناء العرب لعامين متتاليين.

من يخفى الهاربين أو يتستر عليهم يعاقب بالسجن ست سنوات. ومن يتعرض للمرحلين بالإهانة أو الأذى يعاقب.

يسمح لعشرة من العرب بالعودة بعد كل نقلة إلى الشواطئ المغربية لكى يطمئنوا باقى الأهالى أن النقل تم بسلام".

يركب على بغلته عائدا إلى الجعفرية."لكل أمر تحت السماوات وقت، للولادة وقت وللموت وقت، للغرس وقت ولخلع المغروس وقت" . يحدق في سنوات عمره: ست وخمسون ممدودة بين الوقتين كهذه السكة الجبلية التى يسلكها متسائلا عن حساب المكسب والخسارة. لا زوجة، لا أولاد، لا أرض تدوم. راحت غرناطة فجاء إلى بالينسية، لم ينصب فيها خيمة تذروها الرياح، غرس نفسه في الجعفرية كما

يغرس زيتونة يتعهدها غصنا مورقا جديدا، يطمره في الأرض، يرطّبه بالماء حتى يطلق براعمه ووريقاته فينبش التراب ينقل الغرسة الّتى شرّشت، يزرعها من جديد، تمد جذورها في الأرض، تنمو وتعلو وتعطى كل عام، حتى بعد موته، الجديد من الثمار. يرعى شتلاته شتلة شتلة، يقتلع من حولها الأشواك، يقلّب لها التربة، يربيها سبع سنين كالبنين. يطلب لها المطر، يخشى عليها من طفح الوادى بالسيول، يدرّج الأرض من حولها، يحوطها بسلاسل الأحجار، تنهدم السلاسل فيبنيها من جديد. يخاف عليها من الريح تسقط نّوارها قبل الأوان، نّوارها أبيض دقيق قلبه أصفر في أخضر يسقط في أوانه فيستبشر ويتمتم: "يارب ندى وسموم عند عقدك يا زيتون"، يتابع الحبات، تنعقد، تكبر، تثقل الغصون، تنضجها شمس الصيف ويسويها مطلع الخريف. يقول: "وافر محصول هذا العام" ثم لا يكرر الكلام توجساً من حسد عينيه قبل حسد الآخرين. يحمل عصاته، يحرك الفروع، يتساقط من حوله الزيتون، يحمله من الشجر إلى حجر المعصرة تهرسه، يراه يتدفق من المزراب سائلا أخضر، يملأ به جراره ما شاء الله.

يقررون عليه الرحيل. يسحبون الأرض من تحت قدميه، ولم تكن الأرض بساطا اشتراه من السوق، فاصل في ثمنه ثم مد يده إلى جيبه ودفع المطلوب فيه وعاد يحمله إلى داره وبسطه وتربع عليه في اغتباط. لم تكن بساطا بل أرضا ترابا زرع فيها عمره وعروق الزيتون. فما الذى يتبقى من العمر بعد الاقتلاع، وأى نفع في بيع أو شراء؟ ولماذا يخرجون مكنون بيوتهم تتعثر الأقدام فيه؟ ما الذى تمنحه حفنة دراهم لشجرة مخلوعة تشرئب جذورها في الفضاء لتمسك بتربة غائبة؟!

يقطع الطريق إلى الجعفرية حيث ينتظرونه وينتظرون ما يحمله لهم من الأخبار. نفس الطريق التى قطعها قبل سبعة وعشرين عاما عاريا ووحيدا لا يملك إلا اسم عمة لم يرها، وجعبة من الذكريات. قال له عمر الشاطبى ابق معنا فبقى

وهو الغريب، ثم لم يعد الغريب. ألفوا نخلة بباب داره، وعرف مشرفيات بيوتهم وأصوات صغارهم. في المساء يغلق باب الدار عليه وعلى الحنين. تأتيه غرناطة، يقول يا غربتي ولكن يطلع عليه النهار. باطل وقبض الريح أم شئ سوى ذلك؟ يقطع عليه السؤال طريق الذاكرة ويبقى كالسيف معلقا لأن الحكمة في كل ذلك غائبة أو مطموسة، ولأنه وهو يقترب من نهاية عقده السادس لا يدرى إن كان عليه أن يسلِّم بالنهايات أم يكابر ويواصل؟ وما الذي يواصله، وكيف، ولماذا، وإلى أين؟ أم يحرن كالبغال ويتمسمر في الأرض؟ يسحبونها من تحت قدميه، ولم تكن بساطا اشتراه من سوق بالينسية الكبير.

"لكل شئ ثمن، وكلما عز المراد ارتفع ثمنه يا على" فما الثمن المطلوب يا مريمة، قصرّنا فغضب الله علينا أم انه كتب في لوحه المحفوظ سيرة عذابنا قبل أن نخلق أو نكون؟ يتطلع في المدى فيرى خضرة الحقول وعشقه لطفلة هوجاء طواها الموت. عشق عينيها ونظرة صريحة أسرته وكان ما كان. يذهب إلى المدينة ليشترى أو يبيع فيثقله الشوق فيعود متعجلا ومتلهفا، يلعن بغلته لأنها بغلة ولا تطير كالحصان. يصنع للصبيّة صندوقا، يشتغل كل يوم في أناة فيه، ليس لأنه يريده صندوق عجب يشاغل كل عين تراه بل لأنه يريد للطير المرفرف في صدره أن يسكن فيه، ويريد شهقتها وفرحتها حين تحمله وتلمسه وتتملاه. رجل في الرابعة والثلاثين يعشق طفلة فتعيده طفلا مثلها يريد أن يضحك أو يغنى معلنا حبه كالمجنون القديم. ولكن لا شئ يدوم. تحمله بغلته وتمشى في بطء بليد، تسلك به الطريق إلى الجعفرية يلملم همّه، يصره في منديل يعقده ويحمله ويمضى مع الآخرين إلى شواطئ الرحيل.

-١٤-

أمسك على بالسقاطة وطرق الباب، فتح له صبى، قال اسمه مشفوعا بكلمة السر فقاده الولد عبر الباحة والرواق إلى غرفة فأخرى ثم ممر ضيق يفضى إلى درج حجرى. هبط الدرج إلى القبو.

كان الجمع مصطفا خلف شيخ من شيوخ القرية يؤمهم للصلاة ويتلو بصوت رخيم: "والضُّحى والليل إذا سجى. ما ودّعك ربك وما قلى. وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى. ولسوف يُعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدِّث" الله أكبر.

ردد الرجال التكبير وانحنوا كما انحنى ثم استقام فاستقاموا ثم كبرّ ثم سجد فتبعوه. وعندما انتهت الصلاة انطلق صوت الإمام وهو راكع على ركبتيه:

- اللهم اشرح بالصلاة على رسول الله صدورنا.

- آمين.

- ويسّر به أمورنا.

- آمين.

- وفرِّج به همومنا واكشف به غمومنا، واغفر ذنوبنا، وبلِّغ به آمالنا، وتقبل به توبتنا يارب العالمين.

- آمين.

ترددت كثيفة عالية تتجاوز القبو وضوء المشكاوات الشحيح إلى الفضاء المفتوح سلّما صاعدا نحو السماء.

- وآنس به وحشتنا.

- آمين.

- وارحم به غربتنا.

- آمين.

- واجعلها يارب نورا بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا وشمائلنا، ومن فوقنا وتحتنا، وفي قبورنا وحشرنا ونشرنا، وظلا على رؤوسنا يوم القيامة يا رحمن يا رحيم.

- آمين.

- اللهم ثقّل بصلاتنا على رسولك موازين حسناتنا حتى نلتقى بنبيّنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ونحن آمنون مطمئنون فرحون مستبشرون.

- آمين.

- رب ارحم ضراعتنا.

- آمين.

- وأمن خوفنا.

- آمين.

- وأصلح أحوالنا بشفاعة نبيك ورسولك محمد بن عبد الله المصطفى خاتم المرسلين.

نهض الإمام ونهضوا. كانت الوجوه ممتقعة مشدودة على النشيج المكتوم، يراوغونه بالتحية والحديث والقيام والقعود و"كيف حالك؟"، و"أين كنت؟"، "جاءتك أخيرا بالصبى؟ مبروك!"، "حموك على حق إما أن تردها وتراضيها أو تطلقها بالمعروف" يدرءون الصمت بالحركة والكلام ثم استقروا أخيرا متربعين في دائرة واسعة تسمح للجميع برؤية بعضهم البعض:

– تأخرت يا على!

– لم تكن الطريق آمنة فكان على أن أسلك سككا ملتفة

– حمد لله على السلامة. اسمعوا يا اخوان.

تطلعوا إلى على منصتين فقال:

– ذهبت إلى بالينسية بناء على طلبكم ، والتقيت بأمين الحى العربى فجمعنى بعدد من أصحاب الكلمة والنفوذ في الجماعة. عرفت منهم أن المرسوم، حين دار المنادون به وعلقت نصوصه في الساحات، نزل على الأهالى نزول الصاعقة، كأنهم فوجئوا به رغم كل ما تردد حوله من كلام طوال السنوات الأربع الماضية. أما تفاصيل القرار فزادتهم فزعا على فزع. لن أطيل عليكم بوصف ما رأيته هناك وأكتفى بنقل رسالة الأمين.

لقد قرروا في العاصمة وضواحيها تنفيذ أمر الترحيل وعدم تنفيذ البند الذى يقضى ببقاء ستة من كل مائة شخص للانتفاع بمهاراتهم في فنون الزراعة والبناء وغيرها من الأشغال التى نتقنها ولا يعرفونها. وقال لى الأمين، وهذا نص كلامه: "لن نترك لهم من يعاونهم ما داموا قد قرروا إقصاءنا عن البلاد. لنرحل جميعا ونرى ما الذى يفعلونه بدون سواعدنا وعقولنا المدبرة" وقال الأمين أيضا إن استبقاء البعض قد يخلق تناحرا داخل الجماعة وانقساما فيها في وقت نحن أحوج ما نكون إلى التلاحم والتعاضد.

كذلك البند الذى يقضى بالسماح للأطفال دون الرابعة بالبقاء إن رغب أهاليهم في ذلك. قال الأمين: "إن كان قرار الترحيل مهينا في جملته وتفاصيله فهذا البند أكثرها مهانة، فهل نحن قطط أو كلاب لنرمى لحمنا ونمضى راحلين؟!"

هذا ما قاله لى الأمين وصدّق عليه الحضور من الرجال ولكنى سمعت وأنا في العاصمة أن أهالى بعض القرى قد أعلنوا رفضهم للمرسوم وتمترسوا في معاقلهم

الجبلية وقرروا البقاء ولو بالقتال. وعرفت أن هناك تحركا ملحوظا للقوات في تلك المناطق، ولاحظت ذلك بنفسى إذ شاهدت في طريق عودتى فرقا من العسكر تتجه شرقا، فكنت أتوارى عن عيونهم، وأسلك طريقا غير طريقهم فاستغرقتنى العودة ضعف الوقت الذى قضيته في الذهاب.

انتهى على من حديثه فسرى الصمت في المكان كأن مَنْ فيه من الرجال غادروا. ولكنهم كانوا جالسين، شردت عيونهم وعجز اللسان، والأذهان تشتت بين شجون الذاكرة ومغالبة الدموع. ثقل الصمت وطال ثم قطعه الصوت فجفلوا:

– لن نرحل، لنقاومهم ولو بالفؤوس، ولو بالعصى والمدى والسكاكين.

– نعم لنعلن العصيان، قد نقدر عليهم فيرجعون عن قرارهم وإن لم نقدر نحرق المكان.

– مقاومة قرار الترحيل خطأ، سلوك أخرق نتيجته سفك الدماء. يملكون ما لا نملك من قوة. نرفع فؤوسنا عليهم فيطلقون علينا من بنادقهم النار ويعملون القتل فينا فلا نجنى سوى الهلاك!

– قد تأتينا النجدة.

– انتظرناها مائة عام.

– يا إخوان: العقل زينة، ليس الرحيل كله شرا. نترك أرضنا ولكننا أيضا نعود إلى أهلنا لنعيش بينهم معززين مكرمين، لا تلتقى بمن يسبك قائلا: "عربى كلب!" أو "مسلم جبان!". في الرحيل نهاية لغربتنا.

– هل تترك زيتونك على الشجر؟!

– قبل سنوات كان البعض منا يخطط ويدبر، ويعرض نفسه للمهالك، ويدفع ما يطيقه من مال وما لا يطيق مقابل السفر من هنا إلى هناك. ليس الرحيل كله شرا.

– بل هو الشر بعينه، إنه خراب بيت وموت وهلاك!

- قضاء الله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ماذا دهاكم، أين ذهبت عقولكم؟! لا شر إطلاقا في هذا الرحيل. سمعنا أنهم ينوون قتلنا أو بيعنا عبيدا وتشغيلنا بالسخرة على السفن. قالوا نحرقهم ثم قالوا نخصى الذكور من أولادهم. الحمد لله، وألف حمد على قرار الترحيل هو نعمة وفاتحة خير. كان سجنا وانفتحت لنا الأبواب فلم لا نعلن الفرح. سنحمل ساعة الرحيل الدفوف والطبول ونغنى ونرقص.

- مَن يُعلن الفرح في موكب الجنازة مجنون!

- احفظ لسانك!

- اهدأوا يا إخوان!

- جور يومى، ونهب في عين الشمس وضرائب لا تنتهى لسيد الأرض، ولبلاط الملك، وكنيسة الملك، وزفاف ابن الملك، وحروب سيدنا الملك. هل ما نحن فيه يطاق؟!

- الرحيل أرحم!

- لم يعد أمامنا سوى الرحيل!

- لو تركت لهم أرضى ودارى أموت كمدا قبل الوصول إلى الميناء.

- والله يا أخى ما يعذبنى أكثر من السؤال: أين ذهب العرب والمسلمون؟!

- لا أمل في النجدة.

- إذن فهو الرحيل.

- لا غالب إلا الله!



-١٥-

تطلع علي إلى السماء. كانت ممشّـ ة سحب بدت له كشعر أبيض نفشته الريح. شيخ عرب مكشوف الرأس كأنه جده نعيم. شعره خفيف وطويل تثبت وهو يتطاير مشعثا على الصفحة الزرقاء. من هو الشيخ؟ وجهه لا يراه. كأنه يعوى. خائف أو ساخط، أو مر أو حزين، أو أعطب الجنون عقله فأطلق عواء ضاحكا بدلا من البكاء.

يجلس علي في مواجهة البحر، يحدق في الغيمة، يود لو يركب حصانا مجنحا ليصعد إليها فيرى وجه الشيخ فيها. فاقد أم مفقود؟ ما الذى فقده، أبناؤه أم شئ غير الأبناء؟

صخب في الميناء. صفارات السفن، وصهيل خيول الضباط، وصياح العسكر، ونداءات حاملي الدفاتر وأصوات الأهالي. يتطلع إلى باطن كفيه يتملى ما فيهما من خطوط: باطل وقبض الريح أم شئ سوى ذلك؟! هل للحكاية معنى يراوغه أو أنها عبث لا سبب فيها ولا نتيجة؟! خيط ينتظم اللحظات أم لحظات مبعثرة في مهب الريح لا يحكمها إلا الولادة في البداية والموت في الختام؟!

حكايته يعرفها ويعرف ما عاشه وخبره من ناحية كلمة الحياة. ولكنه لا يعرف تفاصيل الحكاية الأكبر عن أهله العرب والمسلمين، والبشر يَقتلون ويُقتلون على هذه الأرض المتعلقة بالسماء – ما علاقة الأرض بالسماء؟ – يعجزه الفهم لأن الحكاية في حكاية. صندوق في صندوق في صندوق، ولا يملك سوى صندوقه

الصغير الذى صنعه بيديه وأودع فيه كل ما يخصه من أوراق ومفاتيح وتذكارات.

قبل يومين غادر الجعفرية مع أهلها. صرّوا زادهم وأوراقهم ومفاتيح بيوتهم وحملوها كما حملوا العيال. ثم انحدروا هابطين من الجبل. لم يُودِّعوا الزيتون ولا اقتربوا من الحقول. فمَنْ يملك قلبا مدرّعا ليحدق في جذع زيتونة غرس شتلتها ورعاها وكبرها ورأى عقد الثمار عليها عاما بعد عام؟! تهربوا من الزيتون، وغادروا في صمت وبلا سلام. وحين فاجأهم على الطريق النخيل جفلوا وغضّوا الطرف وتشاغلوا بعيالهم.

– لماذا لا تغنون، غنّوا!

كان الصوت زاجرا وآمرا. قالت المرأة الكبيرة غنوا، ثم بدأت بالغناء فامتد صوتها في سفوح الجبال عريضا وواسعا كشباك الصيادين. أمسكت امرأة بدف ودقت. أخرج رجل مزماره من جعبته ونفخ فيه. غنت النساء، فغنى من بعدهن الرجال. اضطرب الصبية والصبايا، وخاف الصغار فبكوا، ولكن الكبار واصلوا الغناء.

عند شاطئ دانيا توقفت القافلة. كان من سبقهم من الأهالى يفترشون الأرض أو يروحون ويجيئون أو يقطعون الوقت بالكلام، ونساء تعد طعاما للصغار، لأن الرحيل – حتى الرحيل – لا يسقط جوع الصغار. والصبية يتصايحون مستثارين بركوب البحر، والأهل يتمممون عليهم بالنداء، يحذرونهم من اللعب بعيدا كى لا يضيعوا في الزحام. تطلق سفينة صفيرها إيذانا بالمغادرة. وموظفون هنا وهناك جلسوا وراء طاولات خشبية، وفتحوا دفاترهم ليسجلوا أسماء المصطفين أمامهم لركوب السفينة التالية، امرأة تبكى، وأخرى تضحك، وثالثة تثرثر مع رفيقتها كأنهما جالستان في ليلة صيف بباب الدار. شيخ يكلم نفسه، ورجال يتشاجرون وآخرون انهمكوا في صفقة بيع وشراء. وهذه المرأة ماذا تفعل؟!

سمراء طويلة خصيبة الجسم ومكتهلة، كأنها فضة وقد حلّت شعرها فتدافعت

خصلاته مموجة كثيفة يختلط أبيضها بأسودها. تحرك المرأة كتفيها، تهز جذعها، تشمخ برأسها، تشيح بوجهها فجأة كأنها جفلت أو نفرت أو مسّها ألم أو جنون. تصهل، تدب الأرض بقدميها، ترجمها رجما كالخيول. تقفز وتلف وتدور وتهتز وتميل. تعلو وتهبط، يستطيل جذعها كوتر مشدود ثم ترتخي، تهز كتفيها، ترفع ذراعيها، تلتف وتنفتل دوّامة دوّارة، وشعرها حول رأسها يتطاير ويدور.

"هل ركبتها الشياطين؟!" قفزت المرأة عاليا ثم انحنت مقرفصة، أسندت كفيها على ردفيها، وثبتت قدميها في الأرض، وراحت تحرك فخذيها وساقيها، تلتقي الركبتان ثم تفترقان، تتلامسان ثم تنفرجان، والرأس يهتز وكذلك الكتفان. والوجه يشرق ويغيم، تنبسط ملامحه وتنقبض كأن المرأة في ذروة نكاح أو ولادة، والروح معلقة بخيط بين موت وحياة. "هل هي مجنونة؟!"، "يبدو أنها ترقص!"

تقدمت منها امرأة أخرى ممتلئة مُدمجة وارتفع صوتها بالغناء. كلمات الأغنية تشكو الزمان، ولكن الصوت لا يشكو. انفلت من عقاله واستبد به جنون. "غريب أمر النساء، لا الرقص رقص ولا الغناء غناء!"

يحدق علي في موج البحر، يعلو ثم يهبط ويدنو ليلامس الأرض في رفق لحظة اللقاء. تشرد عيناه في المدى. البحر واسع ولكن سواحله تتصل، الأمواج فيه هنا، وناحية القدس هناك. لا حاجز لا حدود لا قيود. لو أن هذا البحر كنهر حدرة لنادى بالصوت فسمعوه على الضفة الأخرى في مصر والمغرب والشام. الطيور أيضا كموج البحر تذهب من مكان إلى مكان. تطلّع إلى النوارس ثم تحسس العصافير المشطوفة في خشب صندوقه، يحمله معه ساعة الرحيل. ولكن صندوق مريمة باق هناك في البيازين، مغلق على الكتب، مطمور في بستانها، مستقر تحت التراب لا يطوله مرسوم. صندوق مريمة من خشب الزيتون، ولونه زيتوني جميل

يحمل نقش غصون وزهور وعصافير، كل عصفورين متقابلان متلامسان، إلف وإلفه كزوج الحمام. هل تسرى عصافير مريمة إليها في قبرها البعيد لتؤنسها وتنقل لها كالحمام الزاجل رسائل أحبابها؟

تمدد على رمال الشاطئ وأسند رأسه إلى صندوقه. غفا فرأى نفسه في المنام يهبط درجا إلى باطن الأرض، يهبط ويهبط، كأن في الأرض سبع طبقات كتلك التى في السماء. ثم وصل إلى كهف رحب يجرى فيه جدول. هل كان كهفا أم سردابا، أم قصرا مطمورا أم روضة عجيبة؟ رافق مجرى الماء. كانت الجدران على الجانبين مزينة بنمنمات النقوش، تتكاثف عليها الزخارف والأشكال ورسم غصون وزهور. عرس من الألوان يحفّه من الجانبين فيتوغل أكثر. يا الله من أين أتت كل هذه العصافير ؟! كانت تندفع أمامه وتدفعه دفعا إلى الأمام، تشدو وتغرد وتزقزق وتغرغر وتصفِّر. ثم دخلت به إلى بهو عظيم كأنه قاعة مُلك . هبت عليه رائحة الخزامى. تطلع إلى الجدارن، كلها من الفسيفساء، رفع عينيه، سقف كأنه بستان. أجال النظر فرأى سريرا عاليا من رخام، اقترب منه. مريمة؟! كانت غافية على السرير، جسدها ساج ، ووجهها مبتسم ، على قمة رأسها عصفور الجنة، ولصق الأذنين على كل جانب حمامة، وعلى الصدر طير من طيور القطا يغرغر، وعند القدمين حَبٌّ تحوم حوله العصافير، تدنو لتلتقط الحب ثم ترفع رأسها وتثب وترفرف ثم تطير. بلابل وقبّرات وعنادل وحساسين وذوات أطواق وأيضا كروان.

أيقظه صوت سفينة مغادرة. لم يكن ما رآه سوى حلم. ماتت مريمة منذ زمان والعصافير لا تسكن القبور ، لابد إذن من الرحيل. كيف يبدأ المرء حياته وهو في السادسة والخمسين؟ لا زوجة لا أولاد يبددون وحشة الأرض الغريبة، ولا قبر جدة ينمو فوق صندوقها بستان؟ لماذا يرحل إذن؟ قد يكون الموت في الرحيل وليس في البقاء. لابد أن يعرف معنى الحكاية وتفاصيلها وأيضا ما فعله الأجداد. يلح عليه

السؤال حارقا فمن أين يأتى بالجواب؟! من الأرض الغريبة أم من هنا لعله يكون مطمورا كالكتب المحفوظة في صندوق مريمة؟! سيبقى ، قد يقبضون عليه ويحكمون بموته لمخالفة القرار. سيرحل. يحدق في ماء البحر، تشرد عيناه ثم ينتبه على صفّارة عالية تؤذن بالرحيل.

قام على، أدار ظهره للبحر، وأسرع الخطو ثم هرول ثم ركض مبتعدا عن الشاطئ والصخب والزحام. التفت وراءه فأيقن أن أحدا لم يتبعه فعاد يمشى بثبات وهدوء، يتوغل في الأرض، يتمتم: لا وحشة في قبر مريمة!

تمت

القاهرة أبريل ١٩٩٥

إشـــارة

تذخر المكتبة العربية بالعديد من الدراسات فى تاريخ الأندلس ماقبل ١٤٩٢ ، وتحظى الفترة اللاحقة على سقوط غرناطة بكتب أقل، أما الدراسات الموريسكية، وهى ما يخص عرب الأندلس فى القرن السادس عشر والثلث الأول من القرن السابع عشر فتكاد تكون معدودة على أصابع اليد. ومن هنا فإن مصادر الباحث فى تلك الفترة هى أساسا ما أنجزه الباحثون الغربيون، وخاصة ما قاموا به من دراسات فى العقدين الأخيرين .

لن أثقل على القارىء بثبت كل ما استفدت به من المصادر والمراجع مادام موضوع الكتابة إنشاءً روائيا، واكتفى بالاشارة إلى عدد من الكتب التى أفادتنى كثيرا وقد تكون ذات نفع للقارىء :

* *Cardeillac, Louis. Morisques et Chrétiens, Un Affrontement Polémique 1492-1640 (Paris, 1977) .*

* — ,*Les Morisques et l'Inquisition (Paris, 1990)*.

* *Chejne, Anwar. Islam and the West: The Moriscos A Cultural and Social History (N.Y., 1983)*.

* *Guiral - Hadziiossif, Jacqueline. "L'Organization de la Production Rurale et Artisanale á Valence au XVe Siécle", Annuario De Estudios Medievales (Barcelona, 1985)*.

* *Lepeyre, Henri. Geographie de L'Espagne Morisque, (Paris 1959)*.

* *Meyerson, Mark. The Muslims of Valencia, (Berkeley, 1990)*.

* *Tamimi, Abdel Jalil. ed. Le Ve Centenaire de la Chutte de Grenade: 1492-1992, (Zaghouan, 1993)*.

** Vincent, Bernard. "L'Albaicin de Grenade Au XVIe Siécle (1527-1587), Mélanges De La Casa de Velasquez II (Paris, 1971) .*

** —., "L'Expulsion des Morisques du Royaume de Grenade et leur Répartition en Castille (1570-1591)" , La Casa De Valasquez, (Paris, 1965) .*

** Les Morisques et leur Temps, Table Ronde, 1981, Montpellier , (Paris, 1983) .*

روايات الهلال تقدم

قمر على المستنقع

بقلم

علاء الديب

تصدر : ١٥ أكتوبر سنة ١٩٩٥

رقم الإيداع : ٨٢٣٥ / ١٩٩٥
I . S . B . N
977 - 07 - 0414 - 8

هــذه الروايــة

« باطل وقبض الريح أم شيء سوى ذلك؟! هل للحكاية معنى يراوغه أم أنها عبث لا سبب فيها ولا نتيجة؟!

خيط ينتظم اللحظات أم لحظات مبعثرة... لا يحكمها إلا الولادة فى البداية والموت فى الختام؟!».

إنه زمن النهايات، تتوارث شخصياته السؤال جيلا بعد جيل وهم يواجهون الانكسارات المتعاقبة، وقرارات النفى والترحيل.

تستكمل رضوى عاشور فى هذه الراوية المكونة من جزءين حكاية الوجود العربى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، وتتابع مصائر شخصيات سبق أن تعرفنا عليها فى رواية «غرناطة» (روايات الهلال، ١٩٩٤) وأخرى جديدة تتشكل مصائرها فى غرناطة، وفى شرق الأندلس، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، ومطلع القرن السابع عشر.

بـ«مريمة والرحيل» تكتمل ثلاثية غرناطة، نسيج ممتد تضفر الكاتبة فيه التاريخ المتداول بالتاريخ المهمش بإنشائها الروائى لتخلق عالما أليفا يعقد صلة بالماضى والحاضر معا.



د. رضوى عاشور

- مواليد القاهرة ١٩٤٦ .
- تشغل وظيفة أستاذ بقسم اللغة الانجليزية، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- صدر لها :

الرحلة: «أيام طالبة مصرية في أمريكا» (١٩٨٣)، وأربع روايات هى: «حجر دافىء» (١٩٨٥)، «خديجة وسوسن» (١٩٨٩)، «سراج» (١٩٩٢)، «غرناطة» ١٩٩٤).

ومجموعة قصصية «رأيت النخل» (١٩٨٩).

ومن دراساتها النقدية:

- «دراسة فى أعمال غسان كنفانى» (١٩٧٧).
- «الرواية في غرب أفريقيا» (١٩٨٠).



أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	المؤلف
- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ، ومُلك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٣ شارع ٤٧ المنطقة الصنا
بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى ـ م
الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج . م . ع / فاكس ـ 02/2596650